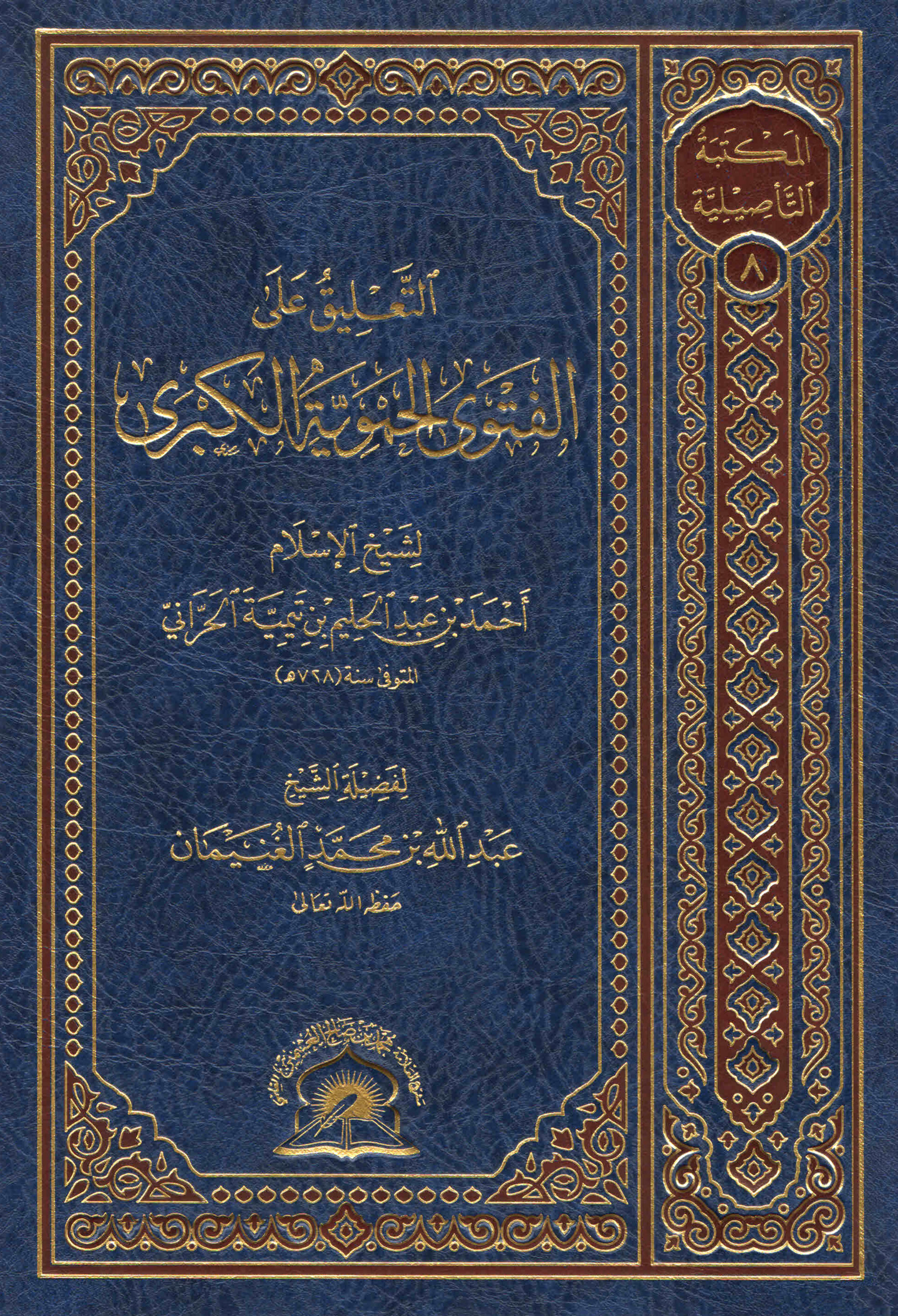


المكتبة التأصيلية
٨
التعليق على
الفتوى الحموية الكبرى
لشيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني
المتوفى سنة (٧٢٨هـ)
لفضيلة الشيخ
عبد الله بن محمد الغنيمان
حفظه الله تعالى

التعليق على

الفتوى الحموية الكبرى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

ردمك: ٩٧٨-٩٩٢١-٠-١٨٨٦-٨





مشروع العلامة

محمد بن صالح العثيمين

العلمي

دولة الكويت







rakaezkw.com rakaez.kw@gmail.com

@dar_rakaezkw t.me/rakaezkw

+٩٦٥ ٥٠٦٧٤٥٣٣



مقدمة الناشر

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد:

فيسرُّ مشروع العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمي بدولة الكويت أن يقدم لطلبة العلم الكرام **الإصدار الثامن** من «المكتبة التأصيلية»، وهو بعنوان: **«التعليق على الفتوى الحموية»** لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني رَحِمَهُ اللَّهُ، المتوفى سنة (٧٢٨هـ).

حيث قام فضيلة الشيخ **عبد الله بن محمد الغنيمان** ـ حفظه الله ـ بالتعليق على هذا الكتاب من ضمن دروس الدورة العلمية الثامنة، والتي عُقِدتْ في مسجد فهد الزبن بمنطقة «بيان» بعد صلاة العصر والمغرب، وذلك بتاريخ ٤ ـ ١٣ من شهر رجب سنة ١٤٣٠هـ، الموافق ٦/٢٧ ـ ٦/٧/٢٠٠٩م.

وكان المنهجُ العامُّ المتبعُ في إخراج هذا الكتاب ما يلي:

١ ـ تفريغ الدروس الصوتية إلى مكتوبة، ثم مقابلة النصِّ المكتوب على المسموع مرةً أخرى.

٢ ـ صياغة النصِّ وتهذيبه، وربطُ المتن بالشرح مع تمييز المتن بلون مختلف.

٣ ـ خدمةُ النصِّ، وذلك بعزو الآيات القرآنية إلى مواضعها في المصحف، والتخريج المختصر للأحاديث المرفوعة، وبيان غريب الألفاظ، وتوثيق الأقوال وعزوها إلى مصادرها.

٤ ـ تدقيق النصِّ من الناحية اللغوية والإملائية، وضبطُ علامات الترقيم، وضبط ما يُشكل من الألفاظ.

٥ ـ اعتمدنا في ضبط متن «الحموية» على النسخة التي حققها الشيخ أ.د. حمد بن عبد المحسن التويجري ـ وفقه الله ـ، مع الاستفادة من تخريجه وتوثيقه لبعض النصوص، وقد أذن لنا بذلك، فجزاه الله خيراً.

وبعد ذلك تكرَّم الشيخ ـ حفظه الله ـ بمراجعة الكتاب، وتعديل ما يلزم تعديله، وإضافة ما يحتاج إلى إضافة أو توضيح، ثم أذِن بطباعته، فجزاه الله خيراً، وشكر سعيه، وبارك في عمُره ووقته، وأجزل له المثوبة.

وختاماً نسأل الله تعالى أن يجعلَ هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ونشكر كلَّ مَن أسهم في إخراج هذا العمل، وأن يَعمَّ نفعه للإسلام والمسلمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

✍ مشروع العلامة
محمد بن صالح العثيمين
العلمي
دولـــة الكـــويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد
وبعد سبق أن ألقيت دروسًا في دورة الشيخ محمد
بن عثيمين رحمه الله وقد أذنت للقائمين عليها
في طباعة تلك الدروس وفوضت إليهم التصرف
فيها والله ولي الجميع بالتوفيق وصلى الله وسلم على
نبينا. قاله وكتبه عبد الله بن محمد الغنيمان في ٢/١٢/١٤٢٨هـ





الفتوى الحموية الكبرى

سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية، وذلك في سنة ثمان وتسعين وستمئة، وجرى بسبب هذا الجواب أمور ومحن، وهو جواب عظيم النفع جداً.

فقال السائل: ما قولكم في آيات الصفات كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات وأحاديث الصفات، كقوله ﷺ: «**إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن**»[(١)]، وقوله: «**يضع الجبار قدمه في النار**»[(٢)] إلى غير ذلك من الأحاديث وما قالت العلماء؟ وابسُطوا القول في ذلك مأجورين إن شاء الله تعالى.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحابته وسلم تسليماً كثيراً، **وبعد:**

فكتب شيخ الإسلام ابن تيمية جلها ـ إن لم تكن كلها ـ أجوبةٌ لأسئلة، ولم يُذكر كتاب ألفه ابتداءً، وكانت حياته كلها جهاداً، وأكبر ما واجهه هم العلماء في ذلك الوقت، فهم الذين قاموا في وجهه، وفي دعوته ما بين حاسد وحاقد، وما بين معارض معاند، والناس تبع لهم؛ لأن هذا شيء معلوم، فالعلماء هم القادة الذين يَتْبعُهم عامة الناس، فلهذا حصل له ما حصل بسبب هذا الجواب وغيره كـ«الواسطية»، فهي أيضاً جواب سؤال من

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٥)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٦٦٦١)، ومسلم (٢٨٤٨)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، قولنا فيها ما قاله الله ورسوله ﷺ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار.......................

رجل من «واسط»، وهذا سؤال رجل من «حماة»، ولهذا قيل لها: «الفتوى الحموية» نسبةً للسائل الذي سأله من هذا البلد، فكان جوابه مبنياً على أمور ثلاثة:

الأول: على كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله ﷺ.

والثاني: على العقل الذي نبه عليه الكتاب والسنة.

والثالث: الحال والوضع الذي كان عليه السابقون.

وهذه أمور مقنعة إذا تأملها الإنسان، ولا يجوز مخالفتها في أمر من الأمور، فبنى الجواب على هذا.

وقوله: «**قولنا فيها**» يعني في هذه الصفات «**ما قاله الله وما قاله رسوله ﷺ**» وهذا هو الواجب على كل أحد أن يتبع كتاب الله وسنة رسوله، والعصمة في اتباع الكتاب والسنة، وأما الآراء والأفكار والاجتهادات؛ فهي محل للخطأ، والخطأُ واردٌ عليها كثيراً، فكيف يُترك المعصوم المتيقن من عصمته ويُسلك الطريق الذي فيه أخطار المخالفة والضلال، فالخطر في هذا كبير.

وأما الحال؛ فهو الذي كان عليه الصحابة وأتباعهم؛ فما وُجد شيءٌ في حالتهم يخالف الكتاب والسنة؛ ولا يوجد في سلوكهم وكلامهم وعملهم ما يوافق ما عليه هؤلاء المخالفون، فكيف يُترك هذا الأمر ويصار إلى ذلك؟

ولهذا يقول: «**قولنا**» يعني قول أهل السنة، وليس قوله هو فقط؛ فهو يتكلم بلسان الجماعة الذين اجتمعوا على الحق.

قوله: «**والسابقون الأولون من المهاجرين**» السابقون الأولون لا يخالفون كتاب الله ولا سنة رسوله، ومعنى هذا أنه إجماع على ذلك، فيجب ألا

والذين اتبعوهم بإحسان، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وغيره، ....

يُخالف، و«**السابقون الأولون**» هم الذين يمكن أن يُعرف إجماعهم ويحصر؛ لأنهم محصورون، أما بعد ذلك فالناس تفرقوا في المدن وكثر فيهم الخلاف، فدعوى الإجماع تحتاج إلى دليل فيما بعد.

وقوله: «**والذين اتبعوهم بإحسان**» يعني أنهم سلكوا طريقهم ولم يخالفوهم؛ لأن الإساءة هي المخالفة، والإحسان هو سلوك سبيل المؤمنين الذين عملوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قوله: «**وما قاله أئمة الهدى**» وهم الذين شهدتْ لهم الأمة أنهم مهتدون وأنهم على الحق، وهؤلاء هم العلماء الذين عُرفوا بتحقيق العلم والعمل به والاهتداء بذلك، وشهد لهم كلُّ مَنْ عرَف حالهم، ولا عبرة في المخالفين من أهل البدع، فلا عبرة بشهادتهم ولا بمخالفتهم للعلماء. و«**أئمة الهدى**» مثل الزهري وأبي حنيفة ومالك والشافعي ونحوهم، ممن عُرف بالاهتداء في هذا، فهم لا يخالفون في ذلك، فهم متفقون في وصف الله جل وعلا بالصفات، ولم يوجد منهم خلاف في هذا.

وقوله: «**الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم**» الهداية هي اتباع الحق، والدراية هي فَهْمُ الكتاب والسنة، فهُمْ عملوا بعد الفهم الذي فهموه، مع أن هذا أمر واضح؛ لأن هذا ليس مبنياً على أمور خفية يمكن أن تُستنتج وتُستخرَج كمسائل الفقه التي هي حكم لأفعال الناس، وأفعال الناس لا حصر لها، فهي تحتاج إلى اجتهاد واستخراج أحكامها من كليات الكتاب والسنة، ولهذا جاءت الخطابات في كتاب الله وفي سنة رسوله عامةً يدخل تحتها ما لا حصر له من القضايا، أما هذا فهو مبني على النصِّ، والنصُّ يجب أن يُفْهم؛ لأن النصوص واضحة.

فإن الله بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد..........

وقوله: «**فإن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق**» الهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، فاللهُ بعثه بالعلم النافع وبالعمل الذي يكون مبنياً على العلم، ومعنى ذلك: أنه يجب عليه أن يبين هذا ويوضحه، فإذا قلنا: إن هذه النصوص ليست واضحة ـ كما يقوله أهل البدع ـ أو إن فيها إشكالاً؛ فمعنى ذلك أن الرسول ﷺ ما بين ما بُعث به.

ولا يحصل الإيمان لعبد من العباد إلا إذا شهد أن محمداً رسول الله، ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: أنه جاء برسالة من عند الله وبلغها، ولهذا كان الرسول ﷺ يسأل الناس في المجامع فيقول: «**إنكم مسؤولون عني فماذا أنتم قائلون؟**»، فيشهدون له ويقولون: نشهد أنك بلغت الرسالة وأدّيت الأمانة. فيستشهد ربه كما وقع له في عرفات، يرفع إصبعه إلى السماء ثم ينكسها إليهم ويقول: «**اللهم اشهد**»[(١)]، اشهد عليهم أنهم شهدوا لي بالبلاغ، فالمقصود أن هذا يدلنا على إيضاح هذا المعنى الواضح الجلي.

قوله: «**ليخرج الناس من الظلمات إلى النور**»، أي من ظلمات الجهل والشكوك إلى نور الهدى والعلم النافع، وأخرجهم بالرسالة التي أُرسل بها صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: «**بإذن ربهم**» الإذن هنا هو المشيئة والإرادة؛ لأنه لا يقع لأحدٍ شيءٌ من الأمور إلا بمشيئة الله جل وعلا، فهو يهدي من يشاء إلى النور الواضح الجلي، ويُضلُّ من يشاء، والخلق عباده يتصرف فيهم كيف يشاء تعالى وتقدس.

وقوله: «**وشهد له بأنه بعثه داعياً إليه بإذنه**» يعني شهد الله جل وعلا له

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

وشهد له بأنه بعثه داعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً، وأمره أن يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

بهذا، وهذا في مواضع متعددة من كتاب الله جل وعلا أنه بعثه سراجاً منيراً، وأنه أرسله بالهدى ودين الحق، وأنه جعله رحمة للعالمين، وأنه جاء بالدين الذي كلفه الله جل وعلا به، وسبقه بذلك المرسلون ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، فإنما جئت بما جاؤوا به.

والدين مبني على معرفة الله، والله جل وعلا يعرف بأسمائه وأوصافه وأفعاله وآياته التي يجعلها في خلقه، قال الله جل وعلا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، هذه الآية تدل على وجوب الاعتبار، فأكبر المخلوقات ـ السماوات والأرض ـ لم تخلق نفسها، ولم يخلقها نظيرها، فهذا أمر مستحيل، ولا بد أن لها خالقاً، والخالق قهار قادر على كل شيء تعالى وتقدس، والمخلوقات الأخرى أولى بأنها لم تخلق نفسها، وأولى بأن يكون لها خالقاً، ولهذا قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾.

فالتعرف إلى الله جل وعلا بآياته ومخلوقاته بعد معرفة صفاته وأسمائه والفقه بها، ولهذا يتفاوت الناس في هذا، فمن كان أتمَّ معرفةً وأكمل؛ فهو أتم إيماناً وأرفع درجة عند الله جل وعلا، وليست الأمور مبنيةً على كثرة العمل، وإنما على معرفة الله جل وعلا والإيمان به واتباعه والخضوع والذل له، فهذا أمر أوضحه الله جل وعلا وبينه لنا رسولنا ﷺ.

وقوله: «**وأمره أن يقول:** ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟﴾» الآية، فقوله: ﴿أَدْعُوٓا۟﴾ تفسير للسبيل الذي أشار إليه بقوله: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ يعني ما أنا عليه من الدعوة إلى الله جل وعلا، فهي السبيل الذي كُلِّفْتُ به، والذي لا يجوز أن أحيد عنه وأبقى عليه حياتي وأموت على ذلك.

وقوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ أي وكذلك أتباعه، فالذي يردُّ أوصاف الله

فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر الناس أن يردُّوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة، وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة، وقد أخبر أنه أكمل له ولأمته دينهم، وأتم عليهم نعمته؛ محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبساً مشتبهاً، فلم يميز بين ما

ويوجب تأويلها أو جهلها يكون لم يسلك سبيله، بل سلك سبيل الضلال في ذلك، فهذا يدلنا على الوضوح والجلاء، وأنه أمر لا يجوز للمسلم أن يتشكك فيه.

ولهذا قال: «**فمن المحال في العقل**» المحال هو الشيء الذي لا يقع ولا يوجد وامتنع وقوعه، مثل أن يقال: هذا الكون له خالقان، فهذا محال؛ لأننا نشاهده على نظام متَّسِقٍ، وهذا يدل على أن الذي يقوم عليه واحد، وكذلك كون الإنسان حياً ميتاً في آن واحد، وكونه قائماً جالساً في آن واحد، وكونه ناطقاً ساكتاً في آن واحد.

قوله: «**من المحال في العقل**» أي الذي لم تغيره التعليمات. وكذلك «**الدين**» الذي جاء به الرسول ﷺ.

وقوله: «**أن يكون السراج المنير**» لظلمات الجهل والغي والضلال.

وقوله: «**والحكمة**»، وهي السنة.

وقوله: «**محال مع هذا وغيره**» من الأمور الأخرى التي سينبه على بعضها «**أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبساً مشتبهاً بغيره**» من الأمور الباطلة، فلا بد أنه وضح وبين، وذلك أن أول ما يخطر في بال المؤمن هو الإيمان بربه الذي يؤمن بكلامه وبأمره وبجزائه، ولا يمكن أن يؤمن وهو

يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه وما يمتنع عليه.

خالي الذهن من ذلك، فمعرفة الله جل وعلا أول ما يجب الإيمان به.

ومعرفة الله لا تكون إلا عن خبر الله أو خبر رسوله لأمرين:

الأول: أن الله غيب؛ فلا أحد يطلع عليه ويشاهده، ولهذا جاء قول الله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، فسَّر كثير من المفسرين الغيب بالله[(١)]، فالله غيب لم نشاهده، ولكن أخبرنا عن نفسه وأوصافه، فيجب أن نؤمن به على ضوء الخبر الذي أخبرنا به، وهو أعلم بنفسه وبغيره من الناس.

الثاني: أن الله جل وعلا لا نظير ولا شبيه له حتى يقاس عليه، فلا مجال للقياس في هذا، والأمر محصور في وجوب الإيمان بخبره وخبر رسوله ﷺ وبما نشاهده من آياته ومخلوقاته التي تدل على ذلك.

والرسول ﷺ بيّن ووضح هذا الأمر إيضاحاً جلياً، ولهذا لم يحصل من الصحابة أي تردد أو أي شك في هذا الأمر، وكثيرٌ من الناس ما عرف قدر الصحابة ولاسيما أهل البدع، فَهُم تصوروا أنهم بمنزلة العوام الذين يسمعون الكلام ولا يفقهونه ولا يدرون ما وراءه، فيأخذونه على ظاهره، ويقولون: آمنا به فقط بدون فقه وبدون علم!!

فهؤلاء ما عرفوا الصحابة، وبُني هذا على عدم معرفة الله جل وعلا، ولهذا سيأتي أنهم جعلوهم بمنزلة البُلْه، والأبله هو الذي لا يفقه، يسمع الكلام ولا يدري ما هو، ومنهم من يعتذر اعتذاراً آخر ويقول: إن الصحابة شُغلوا بالجهاد والعمل، فلم يتفرغوا للتفكير في النصوص والنظر!!

وهل يمكن أن يجاهد الذي لا يعرف معاني ما جاء به الرسول، ويُقبل

---

(١) كأبي العالية وعطاء بن أبي رباح، انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٦٧، ٧٠).

فإن معرفة هذا أصل الدين، وأساس الهداية، ....

على الموت محباً له، مقدماً عليه بكليته؟ فإذا قُتل قال: فزت ورب الكعبة، هل يمكن أن يقول هذا وهو لا يعرف ربه؟ ولا يعرف الذي يستقبله؟

فالصحابة - رضوان الله عليهم - رباهم الرسول ﷺ وتلقوا العلم عنه والإيمان، وهم أكمل الأمة بشهادته ﷺ، كما قال: «**خير أمتي القرن الذين بُعثتُ فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[1].

ثم تأتي الأمور التي فيها المخالفات ونقص الدين، وكل هذا يعطينا اليقين أن ما ذكره الله جل وعلا لنا في خطابه وما ذكره لنا رسولنا ﷺ أن المقصود منا أن نؤمن به على ظاهره بدون تردد وبدون أن نحرفه كما يزعم هؤلاء المحرفة الذين يسمون تحريفهم تأويلاً!

وهو في الواقع تحريف، بل سماه بعض العلماء لعبٌ في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، كما تأتي الإشارة إلى هذا إن شاء الله.

ثم قال: «**فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية**» الأصل الذي يُبنى عليه، والأساس لا بد أن يكون متيناً قوياً، وإلا انهار البناء، فأساس العمل هو معرفة الله جل وعلا، وبدون ذلك لا يكون العمل مجدياً ولا نافعاً، ولهذا أهل البدع لم يعرفوا هذا، فصارت أعمالهم مردودة أو ضارة، كما يقول الله جل وعلا: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾، والغاشية هي القيامة، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية]؛ لأنهم لم يسلكوا السبيل، فقد ضلوا عن سبيل الهدى، وهم الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وهم في ضلال عميق.

فلا بد أن يكون الأساس معروفاً ومعلوماً ومتيقناً أنه حق، ثم يُبنى عليه العمل، وهكذا كان أهل الحق، ولهذا قال: «**فإن معرفة هذا أصل الدين**

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٥٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأفضل ما اكتسبته القلوب، وحصلته النفوس، وأدركته العقول، فكيف يكون ذلك الكتاب، وذلك الرسول، وأفضل خلق الله بعد النبيين، لم يُحكموا هذا الباب اعتقاداً وقولاً!

وأساس الهداية»، يعني لا يمكن أن يكون الإنسان مهتدياً بدون أن يعرف ربه أبداً، هذا من المحال.

ثم قال: «**وأفضل ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس**» يعني الإيمان بالله جل وعلا، ولهذا إذا سُئل الرسول ﷺ عن أفضل الأعمال قال: «**الإيمان بالله**»[1] هذا هو أفضل العمل على الإطلاق، أما بقية الأمور التي تتفاوت؛ فهي مبنية على الإيمان.

قوله: «**وأدركته العقول**» أي العقول السليمة التي لم تنحرف، والعقول سميت بذلك لأنها تَعقل صاحبها عن الانحراف والالتواء والضلال، أما إذا لم تكن بهذه الصفة فليست عقولاً، ومعلوم أن العقول تختلف، فعقلٌ يرشده القرآن ويسترشد به ويهتدي به، وكذلك بسنة الرسول ﷺ، وهو ليس كعقلٍ يتخبط لقول فلان وفلان.

ثم عقل أبي بكر ليس كعقل أبي جهل، فالعقول لا بد أن تقيد بأنها العقول المستقيمة السليمة من الانحراف، وليس المراد كل العقول.

وهذا أيضاً فيه مجال للاختلاف الكثير الذي وقع لبعض الناس كما وقع لأئمة الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم، فإنهم بنوا دينهم على جُرفٍ هارٍ، فقالوا: العقل هو الذي دلنا على صدق الخبر، فلا يجوز أن يكون تابعاً، بل يجب أن يكون متبوعاً.

يعني أنهم قالوا: نحن عرفنا صدق الرسول بالعقل، وعرفنا صحة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (١٣٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن المحال أيضاً أن يكون النبي ﷺ قد علَّم أُمَّته كل شيء حتى الخِراءة، وقال: «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»[١] .

الكتاب بالعقل، فيجب أن نقدم العقل على النقل، فصار هذا أساس الضلال، فالعقل إذا لم يرشده الله جل وعلا لا يهتدي إلى علوم الغيب، ولا يهتدي للمستقبلات، ولا يستطيع أن يهدي صاحبه، فلا بد أن يكون له مرشدا، والمرشد هو قول الله جل وعلا.

ولهذا كثيراً ما يذكر الله جل وعلا الآيات ويقول بعدها ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فليست لكل أحد، ويقول في الكافرين إنهم لا عقول لهم، كما قال: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك: ١٠]، فهم اعترفوا بأنهم ليس عندهم عقل ولا سمع.

والمقصود بالعقل هو الذي يَسترشد بالهدى وبما أُرشد إليه، فليس بمطلق العقل.

والسمع المقصود به الاستماع إلى الحق واتباعه والانتفاع به، لا مجرد سماع؛ لأن البهائم تسمع، والحجارة تسمع، والشجر يسمع، وكل شيء يسمع، كما أخبرنا ربنا جل وعلا بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ثم قال: «**ومن المحال أيضاً أن يكون النبي ..**» يعني محال مع ذلك أن يتركهم في باب معرفة الله ولا يبين لهم ولا يوضح لهم ويترك هذا الباب ملتبساً مشتبهاً، وقد بين لنا ما هو أقل من ذلك، فقال: «**إذا تقدم أحدكم إلى الطعام فليسم الله، وليأكل مما يليه، وليأكل بيمينه**»[٢]، وكذلك قال:

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٤٢)، وابن ماجه (٤٣)، من حديث العرباض بن سارية ﷺ.
(٢) أخرجه بنحوه مسلم (١٨٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

وقال ـ فيما صح عنه أيضاً ـ: «ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدلَّ أمته على خير ما يَعْلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم»[(١)].

«إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه ثلاثاً»، يعني لا يكون فيه شيء يؤذيه، «ثم لينم على جنبه الأيمن ثم لقول كذا وكذا»[(٢)]، وكذلك قال: «إذا أراد أحدكم أن يأتيه أهله فلقول كذا وكذا»[(٣)]، وكل هذه أمورٌ ليست واجبة، بل هي أمور مستحبة، ثم يترك الأمور الواجبة التي لا بد منها ـ كما يزعم هؤلاء ـ بدون إيضاح!!

فالخِراءة التي ذكرها هنا جاء الكلام فيها عن اليهود ينتقدون ما يفعله رسول الله ﷺ، فقد قال أحدهم لأحد الصحابة: علمكم نبيكم كل شيء حتى الخِراءة. ومقصوده بهذا أدب التخلي، يقول: «إذا تخلى أحدكم فليستجمر بثلاثة حجارة، ولا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها»[(٤)]، فقال الرسول ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم»[(٥)].

فكيف يعلمنا هذه الأمور وهي من الآداب، ثم يترك الباب المهم الذي يُبنى عليه العمل كله ـ وهو باب الإيمان بالله جل وعلا ـ ملتبساً مشتبهاً بعضه ببعض، حقه بباطله، كما يزعمه أهل البدع؛ فهذا محال، ومَن زعم هذا فإنه لم يشهد بأن محمداً ﷺ رسول الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢)، من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، (٧٣٩٣)، ومسلم (٢٧١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٢) من حديث سلمان رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أبو داود (٨)، والنسائي (٤٠)، وابن ماجه (٣١٢، ٣١٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال أبو ذر رضي الله عنه: لقد توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً(١).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه. رواه البخاري(٢).

محال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقت؛

قول أبي ذر رضي الله عنه أن الرسول ﷺ أخبرهم عن علم كل شيء حتى الطيور التي تُقَلِّب أجنحتها، وهذه أمور فضلة بالنسبة للإيمان بالله جل وعلا ومعرفة صفاته.

وقول عمر رضي الله عنه أن الرسول قام مقاماً ذكر مبدأ الخلق إلى نهايته إلى أن استقر أهل الجنة بالجنة وأهل النار بالنار، وهذا كان في آخر حياته ﷺ؛ لأنه استشعر بأخبار الله جل وعلا أن الأجل قد قرب، فصار يجتهد بالإخبار عن كل شيء؛ حتى لا يكون هناك شيء فيه قصور، فإذا كان يخبر بالأمور الماضية والمستقبلة، فهذا يجب أن يكون مبنياً على الإيمان بالله ومعرفة أسمائه وصفاته، وإلا لا يفيد ولا يجدي، فلا بد أن هذا وقع تماماً على ما ينبغي وعلى أتم وجه.

ثم يقول: «**محال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين...**»، وهذا مثل ما مضى فلا يمكن أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم في ربهم، وما يعتقدونه في قلوبهم من صفاته وأسمائه وما يجب له وما يمتنع عليه، الذي هو أساس العمل ولا بد منه؛ كيف يتركهم بدون أن يبينه ويوضحه؟

هذا محال وقوعه في العقل وفي الشرع، وكل هذه دلائل في إبطال

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٦١) بنحوه.
(٢) تعليقاً (٣١٩٢) في كتاب بدء الخلق من صحيحه.

أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم، ويعتقدونه بقلوبهم، في ربهم ومعبودهم رب العالمين، الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية، وزبدة الرسالة الإلهية.

كلام المؤوِّلة الذين تأولوا أسماء الله وصفاته على غير مراد الله، وأيضاً إبطال لكلام المعطلة الذين عطلوا الله ﷻ من أوصافه وأسمائه.

والتعطيل هو النفي، وأمره قد يكون أسهل من التأويل؛ لأن التأويل التبس على الناس، فهم يعيِّنون أمراً باطلاً ويقولون: هذا هو الحق وهو الذي أراده الله وأراده رسوله! أما المعطلة فأمرهم واضح للناس وعرفوا أنهم على باطل.

ولهذا صرح كثير من العلماء أن مضرة المؤولة أعظم من مضرة المعطلة، وأنهم أشر على الأمة من أولئك[١].

قوله: «**معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب**» يعني أنه من مقاصد الشرع والرسالة التي أرسل الله جل وعلا بها رسوله ﷺ، فهو الأصل الذي يُبنى عليه العمل، «**بل هذا خلاصة الدعوة النبوية**» يعني معرفة الله بأسمائه وصفاته، ولا يمكن معرفته إلا بأسمائه وصفاته. أما معرفة الوجود؛ فلا تجدي شيئاً، فالكل يعرف أن الله موجود إلا المعاندين والمكابرين أو المعارضين الذين كفروا بالآخرة والمعاد فأعرضوا بقلوبهم وأفكارهم عن هذا قصداً، وإلا لو نظروا في الكون لعلموا أن لهذا الكون مدبراً موجداً، وأن الذي أوجده لا بد أن يكون حكيماً عليماً، وأنه لا بد أن يحكم بين خلقه، وأن حكمه بين خلقه سيكون في حياة أخرى؛ لأن أكثرهم أو جلهم يموتون بلا جزاء.

---

(١) انظر: «الصواعق المرسلة» لابن القيم (١/ ٢٩٦).

فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مُسكة من إيمان وحكمة، أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول ﷺ على غاية التمام، إذا كان قد وقع ذلك منه، فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب، زائدين فيه أو ناقصين عنه.

ثم من المحال أيضاً أن تكون القرون الفاضلة؛ ....

ثم قال: **«فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة»**، المسكة هي الشيء القليل من العقل، **«ألا يكون هذا الباب قد وقع بيانه من الرسول ﷺ على غاية التمام»** وهذا إذا كان مؤمناً بالرسول ﷺ خالياً من الانحرافات والضلالات التي قد يتلقاها ممن يحرف عقله واعتقاده، وهذا معروف كما ذكر الرسول ﷺ أن المربي هو الذي يحرف العقول ويفسد الفطر، كما قال ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»**[1]، أي يجعلانه يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً، والمقصود بالأبوين هنا المعلم والمربي، فقد يكون الأب، وقد تكون الأم، وقد يكون المعلم، وقد يكون الصاحب الذي يصاحبه، أو غير ذلك.

ثم يقول: **«فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها»** أول ما يجب أن نؤمن به هو أن خير القرون وأفضلها هم الصحابة ﷺ، فهم أفضل الناس على الإطلاق بعد الأنبياء؛ لأن هذه الأمة أفضل الأمم، كما قال ﷺ: «**أنتم توفون سبعين أمة، أنتم أفضلها وأكرمها عند الله**»[2]، وهذا نص في فضل هذه الأمة على الأمم السابقة.

وقال الله جل وعلا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٢٩)، والترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٧)، من حديث معاوية بن حيدة ﷺ.

القرن الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين؛ . .

﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فكيف نخرج الصحابة من هؤلاء؟ والذي يخرج الصحابة من هذا إما أنه جاهل غاية الجهل أو أن له مقاصد سيئة، فلا يؤمن لا بالعقل ولا بالنقل.

ولا تكون الأمة خيِّرة إلا إذا عرفت الله وعملت بمعرفتها، وبدون ذلك لا تكون خيرة، فلا بد أنهم عرفوا ربهم بتعريف رسولهم ﷺ لهم إياه، وكذلك بتعريف ربهم جل وعلا لهم بنفسه بذكر آياته وصفاته وأسمائه؛ لأن هذا هو الطريق.

ثم يقول: «**القرن الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»؛ لأن هذا هو النص، «**كانوا غير عاملين بالحق أو غير قائلين به**»، فلا بد أنهم عملوا به وقالوا به؛ لأن العمل والقول أمرٌ مطلوب، كما قال الله جل وعلا لنا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، فيتعين علينا أن نقول: آمنا بالله.

والرسول ﷺ يقول: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»(١)، يعني أن القلوب التي تنطوي على أمور لا تُذكر ولا تُعلم؛ فالله الذي يحاسبهم عليها.

ولهذا عرَّف أهل السنة الإيمان بأنه قول وعلم وعمل، فهذه أركان الإيمان، وإذا اختلَّ ركنٌ منها، فالإيمان غير موجود؛ لأنه مبني على هذه الأمور الثلاثة:

الأول: العلم، وهو العلم بالله.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لأن ضد ذلك إما عدم العلم...

الثاني: القول، فلا بد أن ينطق بشهادة التوحيد، فلو اعتقد أن ما جاء به الرسول حق وصدق، وأنه هو الطريق إلى السعادة، ولكنه لم يقل: لا إله إلا الله، ولم يقل: محمد رسول الله، ثم مات على هذا، فهذا حكمه أنه كافر غير مؤمن، ولهذا لم يؤمن عم الرسول ﷺ أبو طالب بهذا، فهو يقول: ابننا لم يأت بالأقاويل الباطلة بل أتى بالهدى، ولكن أبى أن ينطق ويقول: لا إله إلا الله[1]، فصار في النار كما في النصوص التي جاءت في الصحيحين وغيرهما[2]، فلا بد من النطق مع الإيمان الذي هو اعتقاد القلب.

والثالث: العمل، فلو أن رجلاً قال: آمنت بالله وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ولكن لا أصلي، ولا أصوم، ولا أزكي، ولا أحج، ولا أعمل أي عمل أُمرت به، بل أقاتل أتباع الرسول وأعاديهم، وكذلك ألعن الرسول، فلا يقال إنه مؤمن أبداً، فلا بد من العمل، والعمل لا بد أن يكون سبقه العلم، وعلم بلا عمل لا ينفع، بل يكون ضلالاً ويكون عذاباً على صاحبه.

فالصحابة رضوان الله عليهم وأتباعهم جمعوا بين العلم والعمل والقول، وهذا أمر واضح لا إشكال فيه، وقد اتفق على ذلك العلماء، كما حكى إجماعاتهم النووي وغيره.

قال: «**لأن ضد ذلك إما عدم العلم**» وعدم العلم هو جهل، ولا يجرؤ إنسان من العقلاء أن يقول: إن الصحابة جاهلون؛ وذلك أنهم تعلموا العلم من الرسول ﷺ، وتلقوا الوحي منه صلوات الله وسلامه عليه، وهم أهل اللسان الذي نَزَلَ به القرآن، وهم أيضاً الذين خاطبهم الرسول ﷺ بلغتهم.

---

(١) كما في البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤)، من حديث سعيد بن المسيب، عن أبيه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩)، من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق، وكلاهما ممتنع.

أما الأول؛ فلأن من في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم، أو نهمة في العبادة؛ يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبر مقاصده وصفاته، وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر.

وكذلك «**القول**» فلا يمكن للإنسان أن يقول: إن الصحابة لم ينطقوا ولا تكلموا بالحق، فهذا من المستحيل. وكذلك لا يمكن أن يقال: إنهم لم يعملوا بما علموا؛ لأن هذا من أوضح الكذب عليهم.

قوله: «**وإما اعتقاد نقيض الحق**» وهو القول الباطل «**وقول خلاف الصدق**» وهذا لم يقع، فأصبح أمراً ملزماً لمن يعقله.

ولهذا قال: «**أما الأول: فلأن مَنْ في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم، أو نهمة في العبادة**» النهمة: الشيء الذي يكون في النفس ويدعو صاحبه إلى أمر يترتب عليه خوف العذاب ورجاء الثواب والنعيم، وهذا يوجد في كل عاقل، فمن كان عنده أدنى شيء من ذلك؛ فإنه «**يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبر مقاصده وصفاته**»، فيكون بحثه عن هذا الباب تاماً، ولا يمكن أن يغفله كما هو الواقع من الناس، فإنهم يبحثون عن باب العقائد، أما إن استولت على الإنسان الغفلة، أو عبادة الدنيا، أو غير ذلك؛ فهذا لا عبرة فيه، فإذا كان هذا واضحاً أمام الإنسان؛ فلا بد أن يعتقد ما علمه، أما إذا كان عنده فيه إشكال، فإنه لا بد أن يسأل عنه، ويكون سؤاله بإلحاح كما هو الواقع في كل شيء يقع فيه إشكال، فإن الناس يتجهون إلى علمائهم ويسألونهم عن ذلك، ويبالغون في هذا حتى يتبينوا الحق ويعرفوه، والرسول ﷺ كلفه الله جل وعلا ببيان هذا، فقام به

وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجودية، فكيف يتصور مع قيام هذا المقتضي الذي هومن أقوى المقتضيات أن يتخلف عنه مقتضاه في أولئك السادة في مجموع عصورهم؟ هذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق، وأشدهم إعراضاً عن الله، وأعظمهم إكباباً على طلب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله، فكيف يقع من أولئك؟!

غاية القيام.

فبيان العقيدة وبيان ما يُبْنى عليه العمل أمرٌ ملزم لا بد منه، فهو داخل في أمر الرسول ﷺ في البلاغ.

ثم يقول: «**وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجودية**» الوجودية: هي الموجودة في الناس كلهم، «**فكيف يتصور مع قيام هذا المقتضي**» المقتضي هو هذه الأمور التي هي من أقوى المقتضِيات «**أن يتخلف عنه مقتضاه**»، مقتضاه هو البحث والإيمان والعمل، «**في أولئك السادة**» يعني: الصحابة وأتباعهم في مجموع عصورهم الثلاثة التي أخبر الرسول ﷺ أنها مفضلة[1]، وخبره جاء مرتباً بكلمة «ثم» التي تدل على الترتيب مع التعقيب، فـ«ثم» تدل على أن الأول أفضل من الثاني، والثاني أفضل من الثالث، هذا في الجملة.

يقول: «**هذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق**» أبلد الخلق الذي ليس عنده فهم لذلك، ومعلوم أن خطابات الله جل وعلا واضحة لكل من يعرف اللغة، ولهذا القرآن الذي يقرؤه العامي لا بد أنه يدرك شيئاً من المعنى المراد إن لم يدرك أكثره أو كله، وإن كان هذا يختلف باختلاف العلم باللغة، والعلم بالأصول التي بُنِيَتْ عليها الخطابات، ولكن كل من يعرف اللغة العربية ـ ولو معرفة عامة ـ إذا قرأ كلام الله؛ فإنه يدرك فيه معنى مقصوده.

والله جل وعلا جعل لكلامه قواعد وكليات تدل على أمور عظيمة،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٦٦٩٥)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

وأما كونهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائليه فهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم.

ولهذا تجد من عهد الصحابة إلى اليوم العلماءَ يشتغلون بتفسير كلام الله، ولا ينتهي إلى قيام الساعة، فلو اجتمع الناس كلهم؛ فلا يمكن أن يحيطوا بالمعاني التي انطوى عليها كلام الله، ولهذا قال رجل للحسن البصري: أنا أقرأ القرآن ولا أدرك كل المعاني، فقال: «اقتصر على الذي تفهمه، فإن هذا كلام الله، وأنت ضعيف مخلوق»، فلا يمكن أن تدرك كل ما تكلم الله جل وعلا به.

ومعلوم أن الصحابة هم أكمل الأمة في هذه الأمور التي اجتمعت فيهم من معرفة أسباب النزول، ومعرفة اللسان تمام المعرفة، وكونهم تلقوا ذلك عن إمام الهدى صلوات الله وسلامه عليه، وكل هذه خاصيات يختصون بها، لا يشاركهم فيها غيرهم، فالذي يظن أن الصحابة ما فهموا؛ فهذا بعيد جداً عن الحق.

يقول: «**وأما كونهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائليه..**»، يقول: إن هذا من الأمور المحالة؛ لأن اعتقاد غير الحق هو الباطل، وقد شهد الله لهم بالهداية والسبق بالخير، وكذلك شهد الرسول ﷺ لهم، وأمر باتباعهم والاقتداء بهم، مما يدل على أنهم على الهدى، وهذا أمر واضح.

ثم أمر آخر لم يذكره المؤلف هنا، وهو أن الله جل وعلا فتح عليهم الدنيا، ووصل الحق كما أخبر به الرسول ﷺ إلى مشارق الأرض ومغاربها على أيديهم، ففي مدة خمس وعشرين سنة ما بقي في الأرض من الأمكنة التي يصلون إليها بلدٌ إلا وقد دخله الإسلام وسيطر عليه، وهذا أمر انبهر فيه أهل التاريخ من المسلمين وغير المسلمين، كيف حصل هذا وهم من أضعف الناس قوةً مادية وأقل الناس عدداً، ولكن القوة جاءت من الله وفي العقيدة، وعرفوا أنهم يقاتلون بعقيدتهم.

....

ثم إذا نظر الإنسان إلى حالتهم، فإذا هم أقل الناس كلاماً، وكل من جاء بعدهم أكثر منهم كلاماً، ولكنهم أكثر عملاً، حتى قيل لأحد ملوك الشرق العقلاء لما صاروا في الفتوح والانتصارات، سأل فقال: صفوهم لي؟ فقالوا: هؤلاء بالليل يصلون وبالنهار يقاتلون، فهم رهبان شجعان أسود، قال: هؤلاء لا يقوم لهم أحد أبداً.

فالمقصود أن هذا الشيء الذي وقع دليل على أنهم على الحق؛ لأن الله أخبر أنه سَيُمَكِّن أهل الحق، وأنه يُتِمُّ لهم النعمة، ويكملها لهم، ولم يأتِ النقص حتى انحرف الناس في عقائدهم.

ولهذا لما عرف أهل الباطل هذا الأمر وجربوه اتفقوا على أنه لا يمكن مقاومتهم بالأسلحة وجهاً لوجه، فقالوا: لا بد أن نُفسد عقائدهم حتى نستطيع أن نستولي عليهم وعلى بعض ما يملكونه، فبدأت الانحرافات بهذا السبب، ولهذا تجد أن أول من تكلم بهذه الأمور كإنكار القدر، وإنكار محبة الله، وإنكار صفات الله هم قوم مشبوهون، منهم من يقول: إنهم يهود، ومنهم من يقول: إنهم مجوس، ومنهم من يقول: إنهم نصارى، والوضع الذي تدل عليه الحال أن كل هؤلاء اجتمعوا على محاربتهم، وأسسوا مؤسسات سرية لإفساد العقائد، فحصل الانحراف والاختلاف والتفرق الذي أخبر به الرسول ﷺ، فحصل لأعدائهم بعض ما أرادوا، وقد يحصل لهم كله.

فالرسول ﷺ سأل ربه جل وعلا لأمته ألا يهلكهم بسَنَةٍ عامة، والسَّنَةُ العامَّة: الفقر والجدب التي تقضي عليهم، يقول: **«فأعطاني هذا، وسألته ألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم»**، فأعطاه بشرط أنه لا يحصل منهم خلاف، قال: **«أعطيتك لأمتك أن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم إلا أن يكون بعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم**

ثم الكلام عنهم في هذا الباب أكثر من أن يمكن سطره في هذه الفتوى أو أضعافها، يعرف ذلك من طلبه وتتبعه.

يسبي بعضاً»، يعني إذا وجد هذا؛ فإنه قد يسلط عليهم العدو، وهذا وقع، وسأله ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعه ذلك، فجعل البأس بينهم[(١)].

وهذا كله بإرادة الله جل وعلا وقدرته، ينظر العاقل ماذا يحدث اليوم؟ المسلمون أعدادهم كثيرة، ولكنهم غثاء كغثاء السيل، والسبب أنهم لم يَتَحَلَّوا بالعقيدة التي جاء بها الرسول ﷺ كما ينبغي، فهم أحزاب وفرق وجهلة يجهلون دينهم، ولهذا سلطت عليهم الأعداء.

ثم انظر ماذا حدث في جنة الدنيا «الأندلس»، لما كان المسلمون فيها مجتمعين على إمام واحد، لم يكن للكفار فيهم حيلة، حتى صار بعضهم يغير على بعض، وصار في كل مدينة أمير يقاتل المدينة الأخرى، حتى قُضي عليهم نهائياً، فأصبحت كأن لم يكن فيها شيء من الإسلام، وكلها بيد الكفار، وكل هذا بسبب الاختلاف.

فالمقصود أن الصحابة اتفقوا على الحق، فنصرهم الله جل وعلا، وفتح لهم البلاد، وإذا عادتِ الأمة إلى ما كان عليه الصحابة؛ عاد إليهم النصر والقوة ولا بد، فإن الله ينصر من ينصره، وهذا أمر واضح وجلي، ولكن كثيراً من الناس لا يفهمه، وأقصد بالناس المسلمين.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ثم الكلام عن هؤلاء**» يعني الصحابة ومن اتبعهم في هذا الباب «**أكثر من أن يمكن أن سطره**» يعني: لا يحصى، فهو كثير. مقصوده في هذا هو الذي ساروا عليه وقالوه، إما عملاً وإما تعليماً. أما أن الصحابة كانوا يكتبون أو يتكلمون بما يتكلم به الذين جاؤوا بعدهم؛ فهذا لم يحصل، ولكن إما أن يُسألوا ويفسروا آية أو كلاماً للرسول ﷺ، أو يقولوا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

. . . .

شيئاً في الدعوة ويدعون الناس إلى ذلك ويبينونه أو يعملون به، ومع هذا هو كثير، وكله يدل على إيمانهم بالصفات على ظاهرها، ولم يأت عنهم شيء يدل على التأويل أو التحريف أو الرد أو التوقف والشك، ولو أن أحداً ادعى هذا لكان كاذباً؛ لأن هذا لا يوجد في الكتب التي تذكر سيرهم وتذكر أخبارهم، فلا يوجد حرف واحد يدل على ذلك. وقد تعب هؤلاء أن يوجدوا ما يوافق أهواءهم، فما وجدوا شيئاً.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تحداهم وقال لهم: «قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين، فإن جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثلاثة يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك»[١]، فلم يستطيعوا أن يأتوا بشيء، وهذا أمر واضح، وهذا ذكره في مناظرته في الواسطية؛ لأنه له معهم مناظرات كما أنه له أيضاً في هذه العقيدة مناظرات، ولهم فيها مجال للقدح فيه والكلام فيه، وكذلك سجن بسبب ذلك مراراً، وهو صابر محتسب في إظهار الحق والدعوة إليه[٢].

وقد أدى جهاده إلى ثمار ملموسة ومشاهدة، فاتبعه أهل الحق وتبين لهم، ولهذا كان يقول بعض المصريين: صرنا نعرف الحق بابن تيمية، من رأيناه يسبه ويتكلم فيه عرفنا أنه منحرف، ومن كان محباً له ومتبعاً له عرفنا أنه على الحق. وهذا يقوله أهل الإنصاف، ولكن يجب أن نعلم أن الذي يجب أن يُتَّبع هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن الإمام الذي لا يجوز مخالفته هو رسول الله ﷺ، أما بقية الناس فمهما بلغوا من الاجتهاد ومن القوة في العلم، فيجوز عليهم الخطأ. ولكن في هذا الباب صار الاتفاق

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٦٩).

(٢) انظر: «العقود الدرية» ص٢١١، و«البداية والنهاية» (١٨/ ٥٠).

ولا يجوز أيضاً أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما يقوله بعض الأغبياء ممن لم يقدر قدر السلف، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها، من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

فإن هؤلاء المبتدعة الذين يفضّلون طريقة الخلف على طريقة السلف...

اتفاق أهل السنة.

ثم يقول: «**ولا يجوز أيضاً أن يكون الخالفون أعلم من السالفين**» يعني في باب الأسماء والصفات. وكذلك في باب الأحكام التي تتعلق بالأفعال، فالصحابة أعمق عقولاً وعلماً، وهم كذلك أتم اجتهاداً وطلباً للحق وقولاً وفعلاً من غيرهم ممن جاء بعدهم، أما الذي يقول فيهم خلاف ذلك فإنه لم يعرفهم، والذي لا يعرف قد يعذر بالجهل، ولكنه مقصر.

يقول: «**بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين**» يعني الذي يقول: إنهم لم يقولوا بالحق ولم يعملوا به لأننا عرفنا الحق عن طريقهم؛ هم الذين نقلوا لنا القرآن وبلغونا إياه، وكذلك الأعمال كلها، فهم الواسطة بيننا وبين رسولنا ﷺ، فمن قدح فيهم فهو يقدح في الإسلام، ولهذا يقول أبو زرعة: «إذا رأيت الرجل يتكلم في الصحابة فاعلم أنه زنديق»[1]، يريدون أن يطعنوا بسندنا وبالواسطة التي بيننا وبين رسولنا، وهو طعن في الدين، فهم المطعون فيهم، وهذا حق.

ثم يقول: «**فإن هؤلاء المبتدعة الذين يفضلون طريقة الخلف على طريقة السلف**» يعني: أن القائلين بأن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم، والإشارة بالخلف إلى أناس كَثُرَ في باب معرفة الله اضطرابهم وغلظ عن

---

(١) أخرجه الخطيب في «الكفاية» (١٠٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/ ٣٢).

. . . .

معرفته حجابهم، وذكر أشياء تدل على ذلك.

ولكن المقصود أن هذه الكلمة «طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم» كلمة متناقضة فاسدة في نفسها، لا يمكن أن تكون صحيحة، كيف يكون الأسلم ليس بأعلم؟ السلامة مبنية على العلم، وإذا لم تكن أعلم فهي ليست أسلم، ولا تكون طريقة الخلف أعلم وأحكم ولا تكون أسلم.

ثم كان في بعض النسخ زيادة وهي قوله: «وإن كانت هذه الكلمة إذا صدرت من بعض العلماء فلها معنىً صحيح» هذه الكلمة أدخلت على المؤلف كذباً، فهو لا يقول مثل هذا الكلام الباطل، ولهذا لا توجد هذه الكلمة في بعض النسخ، مما يدل على أنها أدخلت في بعض النسخ فقط.

والحقيقة أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أُدخل في كتبه أشياء ليست من كلامه، بل نُسبت إليه كتب ليست له، فإذا كان تلميذه ابن عبد الهادي يقول: من يقرأ رسائل الشيخ وكتبه ينبغي أن يكون متنبهاً؛ لأنه أدخل فيها ما ليس منها، يقول هذا في وقته، فكيف الآن بعد ما طال الوقت!

فالناس ما بين مبغض وما بين حاقد، وما بين من له غرض يريد أن يلبس ويشهر حتى يعمي على مذهبه الباطل، أو يدلل عليه بكلام من اشتهر عند الناس أنه على حق، وهذا كثير.

فمن ذلك: الرسالة التي صدرت قبل سنتين طبعت في الرياض وقد حققها أحد الناس ونسبها إلى شيخ الإسلام وذكر المحقق أن هذه الرسالة منَّ الله علينا بها في هذا الوقت الذي احتجنا إليه، وهي رسالة يقول فيها: لا يجوز قتال الكفار إلا إذا قاتلوا، وأما إذا لم يقاتلوا، فلا يجوز قتالهم.

....

وذكر أنه سوف يثبت أن هذا من كلام شيخ الإسلام من كل جملة»[١] .

وهذا كذب، فلا يمكن أن يكون كلامه، ولو قُدّر أنه كلام له فنقول: إنه باطل، لأن كلام الله على خلاف ذلك، وكذا فعل الرسول وفعل الصحابة، كل أحد يعرف أن رسول الله ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غافلون غارُّون، فقد قتل منهم رجالهم، وسبى ذريتهم، وأخذ أموالهم، وكذلك غزا هوازن، وكذلك غزا الروم بنفسه، وجلس في تبوك عشرين يوماً ينتظرهم، وتبوك كانت من بلادهم، لكنهم أحجموا عن ملاقاته، وكذلك الصحابة، وصلوا إلى حدود الصين هل جاؤوا يقاتلونهم؟ إلى غير ذلك.

وهذا يستدل بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠]، يقول: ومعنى ذلك أننا إذا قاتلنا الذين لا يقاتلونا فإنا اعتدينا، ويعمى عن بقية الآيات ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ ثم يقول بعدها: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، و﴿تَكُونَ﴾ هنا تامة باتفاق المفسرين، يعني حتى لا توجد فتنة، والفتنة هي الشرك.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ﴾ [التوبة: ١٢٣]، والآيات في هذا كثيرة جداً، فكيف يقال: إنه لا يجوز قتال الكفار إلا إذا أغاروا علينا وقاتلونا؟

---

(١) انظر: «قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم»، طبعت سنة ١٤٢٥هـ.

....

والأمر الثاني: وجد في الرسالة المشهورة له «التوسل والوسيلة» كلام أعتقد أنه مدخل عليه وليس له، وهو قوله في تمام الجواب الذي يقول: أني أجبت عنه في مصر أن الذي يأتي عند القبر ويسأل صاحب القبر ويقول: اشفع لي، أو ادع الله لي أن هذا بدعة منكرة وليس بشرك، أما إذا دعا المقبور وهو بعيد عنه، فهو شرك[1]. هذا لا يمكن يقوله شيخ الإسلام، لأننا إذا عرفنا شرك المشركين، فهو دعوى الأشجار بأن تشفع لهم، والحجارة، والقبور، ما كانوا يقولون: أعطونا كذا وكذا، بل يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وكذلك يوجد في مجموع الرسائل رسائل متناقضة، فمن ذلك رسالة فيها التقرير والتدليل على أن الخضر ميت قديماً ولا وجود له، ويوجد بجوار الرسالة رسالة أخرى فيها التقرير على أنه موجود وحي وأنه يشاهَد[2].

فالشاهد أنه يجب أن يتثبت الإنسان، وإذا جاء كلامٌ لأحد العلماء وفيه خلاف لآيات الله ولأحاديث رسوله ﷺ؛ لا نقبله مهما كان، لأن الخطأ يجوز على كل أحد، فلا نعمي أفكارنا ونعمي عقولنا، ونأخذ بالتقليد الأعمى الذي يفعله بعض الناس.

---

(١) انظر: «قاعدة جليلة في التوسل و الوسيلة» (ص١٩١).

(٢) الرسالة التي فيها إثبات حياة الخضر في «مجموع الفتاوى» (٤/٣٣٨ ـ ٣٤٠)، وعلّق ابن قاسم بقوله: «هكذا وجدت هذه الرسالة»، وهي تخالف ما قرره شيخ الإسلام رحمه الله في مواضع أخرى، انظر: «مجموع الفتاوى» (١/٢٤٩)، (٤/٣٣٧)، (٢٧/١٠٠)، «منهاج السنة» (٤/٩٣).

وذكر ابن عبد الهادي في «العقود الدرية» (ص٧٠) مصنفات شيخ الإسلام، ومنها: «جواب في الخضر، هل مات أو هو حي، واختار أنه مات».

إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأميين الذين قال فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات.

ثم يقول: «**ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه**» هل يمكن أن يكون الصحابة ما فقهوا؟! ولا علموا؟! فهم يجعلونهم بمنزلة العوام الذين إذا سمعوا النص قبلوه، ولكن ما يفقهونه ولا يعرفون ما تحته من المعاني.

وبعضهم يقول ـ كما تقدم ـ: الصحابة اشتغلوا بالجهاد وبالعمل ولم يفكروا في النصوص، فلم يفهموها!! يعني ما فهموا قول الله جل وعلا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقول الرسول ﷺ: «**إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن**»[1]، وهذا يمكن أن يفهمه كل من يعرف اللغة، فيفهم أن المراد على ظاهره، لكن هم أرادوا بذلك أن يبرروا منهجهم ومذهبهم، وهو غير مقبول أصلاً وغير مستساغ لكل من يعرف الخطاب.

يقول: «**بمنزلة الأميين الذين قال فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾**» يعني تلاوة، يعني ما يفقهون، وهذا بالنسبة لبني إسرائيل ذكر الله جل وعلا أن منهم من يكون هذه صفته، ويوجد في هذه الأمة أيضاً كذلك. ولكن السلف لا يوجد هذا فيهم، ولهذا سئل أحد أتباع التابعين قيل: يوجد عندنا قوم يقرؤون الكتاب ولا يفقهونه. فقال: هذه بدعة. يعني أن هذا لم يكن موجوداً؛ لأن الألسنة اختلطت وفسدت اللغة العربية لما دخل العجم في الإسلام وكثر اختلاطهم بالعرب، فصاروا لا يفقهون كثيراً من الكتاب لهذا السبب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

. . . .

وهذا هو الذي دعا العلماء فيما بعد أن يضعوا لكتاب الله جل وعلا تشكيلاً يشكلونه بالنصب والكسرة والضمة، وإلا ما كان هذا معروفاً، حتى النقط ما كانوا ينقطونه؛ لأنهم يفهمونه ويعرفون اللغة العربية تماماً، حتى إن بعض الذين يكتبون في التاريخ وغيره ذكروا قصة وقعت لمعلم الصبيان من العرب، ولكنه ما كان يفقه اللغة كما ينبغي، وكان يلقن صبياً صغيراً ويقول له: ﴿تَبَّتْ يَدَآ﴾ فيقول: (تبت يدان) فيضربه قل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ﴾ فلا يستطيع، يقول: (تبت يدان) فسمعه رجل رآه قال: هذا عربي ائت بالمضاف إليه حتى ينطق به تماماً، فقال له: قل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ فقرأها، فهو لا يستطيع إلا أن يتكلم باللغة الفصحى بدون تكسير، وبدون حذفٍ للمضاف وإبقاء المضاف إليه بدون إضافة.

فالمقصود أنهم كانوا على اللغة الفصحى، فلا يلحن منهم أحد، فكيف تخفى عليهم المعاني؟ لا يمكن، ولهذا أول ما يقولون: إنه وضع النحو من أجل ذلك؛ لما يذكرون قصة عن أبي الأسود الدؤلي أنه قال لعلي رضي الله عنه: حدث في أولادنا شيء ما كان معهوداً قال: ما هو؟ قال: كنت في الليل أنظر إلى النجوم فقالت ابنتي: ما أحسنُ السماء؟ فقلت: نجومُها. فقالت: ليست هذا أريد، يعني أنها ما تستفهم، قال: إذاً تركت اللغة العربية، قولي: ما أحسنَ السماءَ. افتحي فاك، هذا ما كانوا يعرفونه. ثم قال: أخشى أن الألسنة تفسد، فأمره علي رضي الله عنه أن يضع النحو فقال: الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، وكذا انْحُ على هذا النحو، فسُمّي نحواً لأجل ذلك[١].

---

(١) انظر: «أخبار النحويين» للسيرافي (ص١٥)، «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» لأبي البركات الأنباري (ص١٨).

فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف، وضلوا في تصويب طريقة الخلف، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف.

فالمقصود أنهم كانوا ينطقون بالكلام الفصيح البليغ الذي يعرفونه، وخوطبوا بلسانهم، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف] يعني فخر لك ولقومك؛ لأنه نزل بلسانكم.

ولهذا يذكر الله جل وعلا أكبر نعمة على العرب فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فهذا نعمة كبرى من أنفسنا، نعرف لغته ونعرف صدقه، ونعرف أمانته، فهو منةٌ عظيمة، فكيف يقال: إن الصحابة لا يفهمون كلامه؟

فالمقصود أن هذا الظن، ظن سيئ، نشأ إما عن جهل بالصحابة وجهل بالوضع وهو الغالب، أو أنه نشأ عن مقصد سيئ وهذا أسوأ، ولكن الذي ذكر هنا وأشار إليه يدل على الأول أن طريقة الخلف هي: استخراج معاني النصوص المعروفة عن حقائقها.

والمراد بالنصوص: هي التي تتعلق بصفات الله وبأفعاله، وهي التي وقع فيها التأويل، وهذا من الغرائب. أما النصوص التي تتعلق بالفقه فالخلاف فيها قليل.

يقول: «**فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر**»؛ لأنهم إذا كانوا يظنون أن الصحابة بمنزلة الأميين فمعناه أنهم ينقلون لنا الخطأ والباطل، وينقلون لنا خلاف ما جاء به الرسول ﷺ، فيكون الإنسان غير واثق بالإسلام. وهذا هو معنى نبذ الإسلام وراء الظهر.

قوله: «**وقد كذبوا على طريقة السلف، وضلوا في تصويب طريقة الخلف**»،

وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص للشبهات الفاسدة التي شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر وكان مع ذلك لا بد للنصوص من معنىً بَقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى، ....

يعني جمعوا بين الكذب والضلال، وهذا ضلال كامل مع كذب على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين نسأل الله العافية، «**فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف**».

والمقصود بالخلف هم أئمة الأشاعرة كما سيأتي ذكر شيء من ذلك، أما أئمة المنحرفين كالمعتزلة والجهمية، فأمرهم واضح، فالناس يعرفون أنهم على ضلال.

قوله: «**وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص**» يعني أن قول الله جل وعلا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ليس على ظاهره، بل المقصود خلقت بقوتي أو بقدرتي، ولا يجوز أن يكون على ظاهره لأن اليد عندهم جارحة، ولا يجوز أن نصف الله بالجوارح؛ لأن هذا تشبيه لله بالمخلوق؛ لأن لبعض المخلوقات جوارح، هذا الذي يشيرون إليه، وستأتي الإشارة إلى شيء من ذلك إن شاء الله.

يقول: «**بَقُوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى**»، المقصود بالتفويض هنا الجهل، أن يعمي نفسه ولا يبحث في المعنى، يقول: آخذ اللفظ ولا أتكلف له معنىً، فالتفويض معناه أنه لا يبحث على المعنى ولا ينظر فيه. فبعضهم يقول: ليس له معنىً! فهل يمكن أن يخاطبنا الله بشيء لا معنى له؟!! ومعلوم أن كلام الله يطلق على اللفظ والمعنى ولا يطلق على اللفظ فقط، وكذلك كلام الرسول ﷺ، وعلى المعاني المقصودة وإلا يكون الأمر باطلاً.

وهي التي يسمونها طريقة السلف، وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع تكلف وهي التي يسمونها طريقة الخلف، ....

يقول: «**وهي التي يسمونها طريقة السلف**» يعني أن السلف يفوضون الأمور إلى الله، فلا يعرفون الحقائق ومعانيها.

والمقصود بالحقائق: معاني الصفات وليست الكيفية كما سيأتي؛ لأن الكيفية لا يبحث فيها.

والكيفية: هي الحالة التي يكون عليها الموصوف، وهذا يتطلب المشاهدة.

والنفي إنما هو نفي العلم وليس نفي الكيفية التي يكون عليها، فكل موصوف له كيفية، ولكن الله جل وعلا لا يطلع عليه أحد، ولهذا كل البحث في هذا عن المعنى فقط.

فنحن إذا قيل لنا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، نعرف ما هو الاستواء، وهو العلو على الشيء والارتفاع عليه، والاستقرار عليه، هذا مفهوم واضح، والذي يؤوله يقول: الاستواء هو الاستيلاء، فنقول: هذا باطل؛ لأن الاستيلاء يتطلب أنه لم يكن مستولياً عليه قبل، فهل لله منازع في شيء من ملكه؟ هل أحد ينازعه في العرش؟ الله مستولٍ على كل شيء، هل يجوز أن تقول: إنه مستوٍ على الأرض؟ مستوٍ على الخلق؟ لا يجوز، ويجوز أن تقول: مستولٍ على كل شيء يعني أنه قهر وملك، ثم العجب أنهم يتركون النصوص ويستدلون ببيت مصنوع لا يُدرى من قاله؟

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودمٍ مهراق[١]

---

(١) يُنسب هذا البيت لأبي مالك غياث التغلبي المعروف بالأخطل، وهو شاعر نصراني، وذكر الطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (١٦/ ١٨٧) أنه مولد. وعن ابن فارس: أنه لا يُعرف قائله، كما نقل عنه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ١٢٨)، ولم يرد هذا البيت من طريق السكري في روايته عن محمد بن حبيب عن أبي عمرو وابن الأعرابي.

فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل، والكفر بالسمع، فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمورٍ عقليةٍ ظنوها بيناتٍ، وهي شبهاتٌ، والسمع حرفوا فيه الكلام عن مواضعه.

يقولون: هذا دليل على أن الاستواء هو الاستيلاء، فيتركون النصوص الواضحة الجلية، ويستدلون ببيت لا يدرى من قائله؟ وربما يكون مصنوعاً وهو الأقرب.

يقول: «**فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل والكفر بالسمع**» الكفر المقصود به: الرد وعدم الإيمان والعمل به، فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بينات وهي شبهات، مثل ما تقدم: أنه لا يوصف بجارحة، وأنه لا يوصف بالمكان؛ لأن المكان يكون محصوراً فيه، أو يكون معيناً أو ما أشبه ذلك، فهم حملهم على نفي الاستواء على العرش أن يكون له مكان، ولهذا يقولون: الله لا مكان له، والذي لا مكان له لا يكون موجوداً، والمكان أيضاً لا يؤخذ على ظاهره.

ثم نقول: ماذا تريدون بالمكان؟ هل تريدون مكاناً يحصره ويحويه؟ فالله ليس له مكان بهذا المعنى يحصره ويحويه. أما إن كنتم تريدون بنفي المكان نفي العلو؛ فنقول: هذا باطل لفظاً ومعنىً. فلا بد إذا جاءت الأمور المجملة من التفصيل فيها والإيضاح حتى يتبين الحق من الباطل، فيؤخذ الحق ويرد الباطل.

ويقال لمن يقول ذلك: يجب أن تعبر عن المعاني الصحيحة بالعبارات الشرعية، ولا تأت بالعبارات المجملة، كـ«ليس له مكان، ليس في جهة، ليس جسم»، وما أشبه ذلك، ونقول: ماذا تريد بالجهة؟ هل تريد بجهة محصورة محوية محاطة؟ فهذا لا يجوز، أما أن تقول: ليس بجهة، أي: ليس بفوق، فقد أثبت الله جل وعلا أنه في السماء وأنه فوق خلقه، وأنه مستو على عرشه، وهو كذلك.

فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكفريتين كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين، واستبلاهَهُم، واعتقادَ أنهم كانوا قوماً أميين بمنزلة الصالحين من العامة، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله.

وإذا قال: ليس بجسم. نقول: ماذا تريد بالجسم؟ هل تريد أنه ليس مركباً من لحم ودم وما أشبه ذلك؟ أو من أجزاء وما أشبه ذلك؟ فنقول: نعم، الله ليس كمثله شيء تعالى وتقدس، هو أحد صمد، ولكن يجب أن تعبر بالعبارات الشرعية تقول: ليس له كفواً أحد، وليس له مثيل، وليس له سمي، وما أشبه ذلك من العبارات الشرعية، أما أن تأتي بعبارات باطلة، فهذه يجب أن ترد ولا تقبل حتى لا يلتبس الأمر على من لا يعرف الحق. فيقال: إن هؤلاء يريدون التنزيه، إما أن يريدوا أمراً باطلاً، ويريدوا التعمية على الناس وتلبيس الحق بالباطل، أو أنهم جهلة كما سبق.

يقول: «**فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكفريتين كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاههم**» يعني أنهم بلهاء لا يفقهون ولا يعرفون الكلام، وأنهم جهلة ما يعرفون المعاني ولا قالوا بها، ولا عملوا بها، ويترتب على ذلك نبذ الإسلام وراء الظهر؛ لأن هؤلاء السلف هم الذين نقلوا لنا ديننا عن نبينا ﷺ، والذي ينظر في حالهم يعلم أنهم أعلم الأمة وأفقهها وأتمها عقولاً، ولذا اختارهم الله جل وعلا لصحبة نبيه ﷺ، فهم - كما قال ابن مسعود[1] - أتمُّ عقولاً وأفكاراً وعلماً وكذلك عملاً ممن يلحق بهم، فلا أحد يساويهم، ولكن هؤلاء جهلوا ذلك.

قال: «**واعتقاد أنهم كانوا قوماً أميين بمنزلة الصالحين من العامة**» يعني

---

(١) «شرح السنة» للبغوي (١/ ٢١٤). وروي عن ابن عمر كما في «الحلية» (١/ ٣٠٥).

. . . .

عامة الناس، والصالح هو الذي يعمل الشيء بالأمر الظاهر وليس عنده في قلبه غل أو فساد، وهؤلاء العامة هم أكثر من يدخل الجنة؛ لأن أكثر المؤمنين بهذه الصفة، والعلماء والعُبّاد قلة، ولو قيل: إنه لا يدخلها إلا من كان عارفاً عالماً؛ لما امتلأت الجنة، والله جل وعلا وعد أن يملأها بعباده المؤمنين، فلا بد أن عامة المؤمنين هم أكثر من يدخل الجنة، ولا يلزم أنه لا ينالهم عذاب، ولكن مآلهم إلى الجنة إذا ماتوا على الإسلام.

وقد قال الرسول ﷺ: «**إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبُصرى**»[(١)].

وفي حديث آخر: «**إن ما بين المصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وإنه لكظيظ**»[(٢)]، يعني يمتلئ من الزحام، فيتزاحمون عليه مع هذه السعة.

فلا بد أن يكون هؤلاء الذين هم غير علماء وغير فاهمين لكلام الله كما ينبغي، وإنما أخذوا بالظاهر وآمنوا بالعقائد التي دعت إليها فطرهم، ولهذا نقول الآن: هؤلاء الأشاعرة يزعمون أنهم أكثر الناس، نقول: هذا كذب، بل هم قلة شرذمة؛ لأن هذا عبارة عن علماء معينين، أما عموم الناس فهم على العقيدة التي فطروا عليها، ولهذا لو تسأل أي واحد من عامة الناس، من بين هؤلاء قيل له: أين الله؟ قال لك: في السماء، فما من أحد انحرفت عقيدته إلا الذين خاضوا في الكلام وفي هذه العقائد الفاسدة.

يقول: ثم صارت هذه النتيجة هكذا في هاتين المقدمتين اللتين هما: استجهال الصحابة وأتباعهم، والمقدمة الثانية تصويبهم طريقة الخلف،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٢٥)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة، كيف يكون هؤلاء المتأخرون لا سيما والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابُهم، وغَلُظَ عن معرفة الله حجابُهم، وأخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم حيث يقول[١]:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسَيَّرْتُ طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائر ... على ذَقَنٍ أو قارعاً سن نادم

وأقروا على نفوسهم بما قالوه متمثلين به أومنشئين له فيما صنفوه من كتبهم؛ كقول بعض رؤسائهم[٢]:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذىً ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي

فهاتان المقدمتان بني عليهما الفساد وكل الشر.

قول الشهرستاني: «**لعمري لقد طفت** ...» وهو من الذين حاروا، وصاحب كتاب «الملل والنحل» وغيرها من الكتب، وهو من المقدمين عندهم.

وقول الفخر الرازي: «**لقد تأملت الطرق الكلامية**» هذا كلامه في نفسه، وهو تكلم هذا في آخر كتاب صنفه كتاب سماه «أقسام اللذات»، فذكر لذات الأشياء إلى أن وصل إلى لذة العلم، وذكر أنه ما استلذَّ بشيء

---

(١) القائل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني في كتابه «نهاية الإقدام في علم الكلام» ص٤.

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسين الرازي (٦٠٦هـ)، وكلامه بنحوه في كتاب «أقسام اللذات» ص٢٦٢.

عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. اقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي».

ولا وجد شيئاً، وإنما وجد وحشة وأذىً ووبالاً، فهو يخبر عن نفسه، ثم تمثل بهذه الأبيات، فهل مثل هذا يقال: إنه أعلم من الصحابة؟ نسأل الله العافية.

يقول: «**فما رأيتها تشفي عليلاً**»، والعليل هو المريض، والمرض هنا مرض الجهل والشكوك والشُبه «**ولا تروي غليلاً**»، الغليل هو الظمآن.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، يعني أن العمل الصالح يُرفع إلى الله، وهذا يدل أن الله فوق، وهو ظاهر.

وقوله: «**ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي**» هذا الكلام هو الذي جعل بعض العلماء يقول: إنه تاب من طريقته الكلامية الفاسدة التي أفسد فيها كثيراً من النصوص، وله كتاب سماه «تأسيس التقديس»، اجتهد فيه غاية الاجتهاد في تأويل كلام الله وكلام رسوله على طريقة الخلف، وهو مطبوع وموجود، وقد تولى شيخ الإسلام رحمه الله الرد عليه، فرد عليه رداً إذا قرأه من يكون مدركاً للكلام، عرف الباطل تماماً، وأنهم على الباطل.

ولهذا تسلط الأشاعرة في ذلك الوقت على هذا الكتاب، وصاروا يلاحقون من كان عنده ويأخذونه ويمزقونه ويحرقونه فعدم، ولكنه أخيراً وجد غير كامل، فحقق في جامعة الإمام محمد بن سعود في ثمان رسائل، فصار قريباً من عشرة مجلدات، وقد فقد منه ما يقرب من ثلثه أو أكثر إلى الآن؛ لأن هذا الموجود يمثل ثلثي الكتاب المردود عليه، وبقي ثلث

. . . .

الكتاب المردود عليه ليس له رد، فلا بد أنه مفقود. وقد قال أصحابه: إن هذا الكتاب لا نظير له، وإنه يقع في ستة مجلدات مخطوطة[١]، وبعضهم يقول: في أربعة مجلدات.

فالمقصود أن هؤلاء اجتهدوا في تمزيق هذا الكتاب وتحريقه، وكانوا يأخذونه بالقوة من تلامذته، ولهذا صار من عنده يخفيه ولا يظهره، فهذا سبب فقده.

أما الكتاب الثاني الذي هو نظير هذا فهو «الجواب على الاعتراضات المصرية»؛ لأنه يقول: لما أجبنا على اعتراضاتهم في الفتاوى المصرية، والمقصد بالفتاوى المصرية شيء خاص بقي من شبههم في هذا الكتاب، فأردنا أن نبطل هذه الشبه، ونجيب عليها حتى ما يكون لهم حجة. أما الاعتراضات المصرية، فلا يوجد كاملاً، وقد وجد الآن جزء صغير لا يمثل عشر الكتاب، وقد طبع أخيراً.

المقصود أن هذا الرجل الذي هو الفخر الرازي هو عمدتهم الذي يعتمدون عليه وعلى كتبه إلى اليوم، وهو يضع لهم القواعد، ويقول: إنه إذا جاءنا شيء من الوحي سواء من كلام الله أو من كلام رسوله فلا بد أن ننظر هل يتفق مع العقل أو لا يتفق، فإن اتفق مع العقل فلا كلام، وإن لم يتفق فأيهما يقدم؟ السمع الذي هو كلام الله وكلام رسوله أو العقل؟

يقول: إن قدمنا السمع، فهذا لا يجوز، فكيف نقدم السمع، والعقل هو الذي دل على صحته؟ ثم يبني على هذه القاعدة الفاسدة التي أفسدت العقول وأفسدت الأديان؛ يبني عليها أشياء كثيرة.

فهذه حاله يخبر عن نفسه أنه في اضطراب، وأنه في أذىً ووبال، وأنه

---

(١) انظر: «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص٤٤).

ويقول الآخر منهم: «لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمة منه فالويل لفلان، ....

لم يستفد طول حياته من بحثه إلا أنه جمع الأقوال من قيل وقالوا، فإذا كان يخبر عن حاله في هذا؛ فكيف يكون عمدة في ذلك ويترك ـ لكلامه ـ الكلام الذي جاء به رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه، سواء كان من كلام الله أو من كلام الرسول ﷺ؟!

ثم كذلك يقول: «**ويقول الآخر**» وهو الجويني، «**لقد خضت البحر الخضم**» هو البحر الكبير المتلاطم الأمواج، «**وتركت أهل الإسلام وعلومهم**» يعني بذلك أنه ترك الكتاب والسنة ودخل في معترك أفكار المتكلمين وهو البحر الخضم.

يقول: «**وخضت في الذي نهوني عنه**» وهو الكلام، سُمي كلاماً لأنه كلام في الله وكلام مبني على مجرد الشبهات والعقول التي لا تأتي بنتيجة؛ لأن كل عاقل يناظر الآخر، فيبطل ما عنده. والعقول قد تكون متناظرة، وقد تكون متفاوتة، والله ما وكلنا إلى العقول، وإنما وكلنا إلى الكتب التي ينزلها، والرسل الذين يرسلهم إلينا.

والجويني في آخر حياته عند موته كان يقول هذا الكلام: لا تشتغلوا بالكلام، ثم يقول: «**والآن إن لم يتداركني ربي برحمة منه، فالويل لي**»، هكذا يقول، والمؤلف يقول: «**ويل لفلان**»، وهذا من الأمور الحسنة الجميلة التي ينبغي للمتكلم أن يقولها، فلا يضيف إلى نفسه الشيء المكروه يقول: الويل لي، وإن كان مجرد لفظ فقط، يعني ما يقصد نفسه وإنما هو حكاية.

ولهذا لما جاء في حديث أبي طالب الذي رواه سعيد بن المسيب عن أبيه، وكان حاضراً فقال: فكان في آخر كلامه أن قال: إنه على ملة

وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي»[١].

عبد المطلب[٢]. وهو لم يقل: «إنه على ملة عبد المطلب»، بل أضاف الكلام إلى نفسه، ولكن الراوي كرِه أن يضيف هذا إلى نفسه، وهذه قاعدة.

قال: «**وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي**»، يعني أنها على الفطرة، ولا يمكن أن يُمحى بهذا ما في قلبه، وما في ذهنه، لكنه مجرد خبر، تمنى فيه ذلك. وهذه الكلمات تدل على حيرة وعلى اضطراب.

وذكروا عن الفخر الرازي أنه كان في نيسابور، فخرج يوماً معه تلامذته في جمع كبير أكثر من ثلاثمئة تلميذ، فإذا بعجوز واقفة في بابها، فقالت لأحدهم: من هذا الملك؟ فقال: هذا ليس ملكاً، هذا فخر الدين الرازي، يعرف على وجود الله ألف دليل، فضحكت العجوز ساخرة، وقالت: والله لو لم يكن عنده ألف شك ما احتاج إلى أن يستدل على وجود الله بألف دليل.

هذه الفطرة، وهي التي أشار إليها الجويني بقوله: «أموت على عقيدة عجائز نيسابور»، وفي رواية: «على عقيدة أمي»، والله يتولى عباده ويحاسبهم على أعمالهم، وربما يعفو عن المجتهد ويثيبه وإن كان على باطل؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «**إذا اجتهد المجتهد فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر، وخطؤه معفو عنه**»[٣]، لكن يجب أن يكون محلاً للاجتهاد، غير أن من المسائل والأمور الواضحة التي لا يجوز الاجتهاد فيها، يجب أن يتبع النص فيها، مثل أوصاف الله جل وعلا.

---

(١) ذكر كلامه أبو الفرج ابن الجوزي في «المنتظم» (١٦/ ٢٤٥)، والذهبي في «السير» (١٨/ ٤٧١)، و«تاريخ الإسلام» (١٠/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤)، من حديث ابن المسيب، عن أبيه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)، من حديث عمرو بن العاص ﷺ.

. . . .

ومع هذا كله لا يجوز أن نكفر أحداً من هؤلاء، إنما نضللهم ونقول: إنهم ضالون ولكن ليسوا كفاراً، بل هم من المؤمنين غير أنهم أخطؤوا، وأمرهم إلى الله، فهو الذي يتولى جزاءهم وحسابهم، ويجوز أن يعفو عنهم ويجوز أن يعاقبوا على قولهم. ولكن كون الإنسان اجتهد في هذا وهومن أهل العلم؛ فلا يجوز أن نظن أنه قصد مخالفة الحق، ولكن الإنسان إذا تربى على يد شيخ وتلقى عقيدته عنه، فإنه يصعب عليه جداً أن يفارق هذه العقيدة، ويستبعد أن شيخه خالف الحق، فيجتهد في توفيق النصوص مع ما تلقاه، فيكون هذا وضعه.

وهذا الذي أخبر به بعضهم؛ لأنه قال: كنت في اضطراب وفي شكوك لا تدعني أنام ولا آكل، وإذا أويت إلى فراشي أفكر وأتقلب إلى الصباح؛ لأني إذا قرأت كتاب الله وحديث رسوله وجدته لا يتفق مع ما يقوله الشيخ، ثم اجتهدت بالدعاء أدعو ربي أن يهديني للحق، فتبين لي أن الحق في كلام الله وكلام رسوله، وليس في كلام المشايخ هؤلاء، فيقدم نصيحة لمن يقرأ يقول: هذه نصيحة أقدمها، وذكر أمثلة مثل العلو، وغيره[1].

فالمقصود أن هذا يدلنا على أنهم ما قصدوا مخالفة الحق، وإنما وقعوا في ذلك عن اجتهاد، فيكون هذا من باب إحسان الظن فيهم، ونقول: ما قصدوا مخالفة الرسول ﷺ ولا الرد عليه ولا الرد على الله جل وعلا، وإنما تلقوا هذه القواعد وطبقوها، فأرادوا أن تتفق مع كلام الله، فوجدوا أنها لا تتفق إلا بالتأويل، فوقعوا فيه.

---

(١) هو ابن شيخ الحزاميين، أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي، عماد الدين (٧١١هـ)، وله كتاب صغير يسمى «النصيحة في صفات الرب جل و علا»، وفيه قريب من الكلام المشار إليه.

ويقول الآخر منهم: «أكثر الناس شكاً عند الموت أصحاب الكلام».

ثم يقول: «ويقول الآخر منهم» وهو أبو حامد الغزالي، ذكر عنه رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يقول: كنت إذا أويت إلى فراشي أضع الملحفة على وجهي، ثم أفكر في هذه الأقوال والعقائد، فأستعرض كلام هذه الطائفة مع كلام هذه الطائفة، فيأتي الصباح ولم يتبين لي الحق. ثم بعد ذلك صار يأخذ صحيح البخاري ويضعه على صدره من كثرة الشكوك[١].

تأمل كيف أنه لا يستطيع أن ينام؛ لأنه غير واثق، ثم اختار بعد ذلك أن يسلك مسلك الصوفية ورآه هو أقرب شيء، فألف كتابه «إحياء علوم الدين» وغيره، وألف كتباً في النهي عن الاشتغال في الكلام مثل: «إلجام العوام عن الوقوع في الكلام» وما أشبه ذلك، ولكنه فيما بعد كان يقول: إن هذه الطرق التي كان الناس عليها ـ ويقصد بالناس العلماء ـ ليست هي ما جاء به الرسول ﷺ.

وقد ذكروا أن أحدهم كان له صديق من أهل السنة، فدخل عليه يوماً وهو يفكر، فسلم فلم يرد عليه السلام، ثم عاد فلم يرد عليه السلام، ثم عاد الثالثة فلم يرد عليه السلام؛ لأنه مستغرق التفكير فقال في نفسه: لا بد أن هذا ذهب عقله، فأراد أن يرجع، فلما رجع تنبه له، فدعاه: يا فلان. فالتفت وقال: ماذا تعتقد؟ فضحك ساخراً، ماذا أعتقد؟ أعتقد ما يعتقده المسلمون والحمد لله. يقول: فأطرق برأسه وصار يبكي ويقول: ولكني والله ما أدري ماذا أعتقد! ما يدري ما يعتقد!

وله من العمر ستون سنة أفناها في الطلب وفي البحث، في كد الذهن والفكر، ثم يصبح ما يدري ماذا يعتقد؟ السبب أنه ترك الأصول ـ الكتاب

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٦/ ٢١٤).

ثم هؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف إذا حقق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر، ولم يقفوا من ذلك على عين ولا أثر، كيف يكون هؤلاء المحجوبون المنقوصون المسبوقون..........................

والسنة ـ وأخذ بالأفكار التي تضطرب وكل فكر يكون نظير الفكر الآخر، فحار في ذلك، فالهدى بما جاء به الرسول ﷺ.

وسيأتي كلام المؤلف أنهم تركوا الأصول فأضاعوا السبيل، وأُعطوا علوماً، يعني علوماً شرعية، وأُعطوا ذكاء ولكنهم ما أُعطوا زكاءً، فلا بد للإنسان أن يزكيه ربه جل وعلا، ويسلمه ويبين له.

ولهذا نقول: يجب أن نرجع إلى ربنا في طلب الهداية: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾، فنحن بأَمَسِّ الحاجة إلى هذا، والهداية لا تنتهي حتى يدخل العبد الجنة، وإلا فهو بحاجة في كل يوم إلى هداية يهتدي بها إلى الحق الذي جهله أو أخطأ فيه.

ثم يقول: «**إذا حقق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر**» يعني بهذا أنه لم يوجد الشيء الذي أخبر الله جل وعلا به عن نفسه وأوصافه وأسمائه، ولم يقفوا من ذلك على عين ولا أثر، بسبب أنهم تركوا كلام الله وكلام رسوله، واعتاضوا عن ذلك بكلام المتفلسفة والمتكلمين، وهذا لا يأتي إلا بالشك والحيرة.

ثم يقول: «**كيف يكون هؤلاء المحجوبون المنقوصون المسبوقون.. إلخ**»، هذا الكلام، هو الذي دعا أولئك العلماء الذين يعظمون هؤلاء إلى أن يسجنوه، وأن يقوم بعض قضاتهم عليه ويحكموا عليه بالقتل؛ لأنه يقولون: يفسد العقائد!

كيف يكون مفسداً من يدعو إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله، ويحذر من

الحيارى المتهوكون أعلَمَ بالله وأسمائه وصفاته، وأحكَمَ في باب آياته وذاته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل، ....

طريقه الشك والحيرة ممن أخذ دينه وعقيدته من المتفلسفة، الذين جاؤوا بالفلسفة من اليونان، أو من الهنود أو من غيرهم؛ كيف يكون مفسداً للعقائد؟!! الله المستعان.

ولكن الإنسان إذا تصور التصورات الباطلة يكون الحق أمامه باطلاً، فيريد أن ينتقم ممن يقوم بالحق ويدعو إليه. والرسول ﷺ يقول: «**إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه؛ فقد أخذ بحظ وافر**»[1]، فالعلم الذي يوصل إلى الله وإلى السعادة هو ما جاء به الرسول ﷺ، أما العلم الذي يؤخذ من أفكار الرجال وتصوراتهم؛ فهذا لا بد أن تكون نهايته الضلال.

وقوله: «**المحجوبون**» أي عن معرفة ربهم تعالى ومعرفة دينه كما تعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته ومخلوقاته.

وقوله: «**المنقوصون**» أي في دينهم وعقولهم، حيث قدموا آراء الرجال على قول الله وقول رسوله.

وقوله: «**المسبوقون**» أي أن السلف سبقوهم إلى العلم وأسباب السعادة، وقبول ما قاله الله ورسوله وفهم ذلك.

وقوله: «**الحيارى**» أي في ربهم وما يعتقدون، فهم في شكوك وظنون.

وقوله: «**المتهوكون**» يعني في أفعالهم وأقوالهم، فليس معهم دليل يعتمد.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤٢)، والترمذي (٢٦٨٢)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وأعلام الهدى ومصابيح الدجى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برَّزوا به على سائر أتباع الأنبياء، فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف، وبواطن الحقائق، بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة.

وكذلك يقول: إنهم «**أعلام الهدى ومصابيح الدجى**»، يعني الصحابة ومن سلك طريقهم، فهم «**الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا**»، الكتاب يقوم بهم يعني أنهم هم الذين بلغوه للأمة، فهم الواسطة بين الأمة وبين رسولهم ﷺ، وبه قاموا أي فهماً وعلماً وعملاً.

قال: «**وبهم نطق الكتاب**» يعني: بالثناء عليهم، فالله جل وعلا أثنى على الصحابة في أماكن كثيرة، وأخبر أنه رضي عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، في آيات كثيرة.

ولكن نحن بحاجة إلى معرفة ثناء الله جل وعلا عليهم في كتابه وهو كثير، لأنا نجد من يطعن فيهم ويحتقرهم، وربما يوجد من يكفرهم نسأل الله العافية، فنحن بحاجة إلى معرفةِ حالتهم ومعرفة درجتهم وبلوغهم من العلم، ورضا الله جل وعلا عنهم، وثنائه عليهم.

ومعلوم أن الله جل وعلا لا يثني على من يعلم أنه يرتد؛ لأنه علام الغيوب، ولا يخبر بأنه رضي عن قوم يغضب عليهم فيما بعد! وكذلك لا يجوز لشباب المسلمين وعموم المسلمين أنهم يعرفون عن اللاعبين وقادة الكفار وعظمائهم ما لا يعرفونه عن أئمتهم من صحابة الرسول ﷺ وأتباعهم! هذا في الواقع عيب كبير، ويجب أن تكون معرفتهم بِمَنْ أصلُ الهداية جاءت عن طريقهم أتمَّ وأكمَلَ وألزَمَ من معرفتهم بقادة الكفر، أو

ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقصَ في العلم والحكمة ـ لا سيما العلم بالله وأحكام آياته وأسمائه ـ.......................

قادة اللعب أو ما أشبه ذلك من الأمور التي لا تلزم، بل تكون على حساب دين الله جل وعلا.

فيقول: «**نطق بهم الكتاب**» يعني أنه أثنى الله عليهم في كتابه وكذلك رسوله أثنى عليهم، وأخبر أنه راض عنهم، وأمر باحترامهم، وقال: «**اعرفوا لهم حقهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن أحبهم فبحبي أحبهم**»[(١)] فيجب أن نعرفهم.

ولما وقع بين خالد بن الوليد رضي الله عنه وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه منازعة في أمر ما وتكلم عليه خالد بن الوليد، فبلغ ذلك الرسول ﷺ غضب وقال: «**اتركوا لي أصحابي، والله لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[(٢)].

وهذا الخطاب لخالد بن الوليد ومن صار مثله ممن آمن قبيل الفتح، فلا يمكن أن يكون مثل السابقين الأولين كعبد الرحمن بن عوف وأبي بكر، وعثمان، وعمر، وأشباههم من الذين سبقوا إلى الإسلام، وتحملوا الأمور العظيمة في نصرة الدين ومناصرة الرسول ﷺ، فكيف يقال لمن يأتي بعدهم؟ فالأمر في هذا فيه بون شاسع جداً. فهل هؤلاء عرفوا قدر الصحابة؟ نقول: ما عرفوا قدرهم في الواقع، ولو عرفوا قدرهم ما تكلموا في مثل هذا الكلام.

يقول: «**كيف يكون خير قرون الأمة أنقصَ في العلم والحكمة..**»، هذا الكلام هو الذي أغضب الذين يتبعون ويعظمون مثل الفخر الرازي،

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٨٠٣)، والترمذي (٣٨٦٢)، من حديث عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟ أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان، وورثة المجوس والمشركين، وضلال اليهود والنصارى والصابئين وأشكالهم وأشباههم؛ أعلَمَ بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟!

والجويني، والشهرستاني ونحوهم، حيث وصفهم بأنهم «**الأصاغر**»، فقاموا عليه بهذا السبب.

والميزة التي تميز بها شيخ الإسلام عن غيره من العلماء أنه لا يبالي في مثل هذه الأشياء، فإذا جاء الحق يتكلم به، ويُذكّر من لم يقم به، وقد يكون يعينه باسمه، فيغضب الناس لهذا، وكلامه إنما هو من باب النصح وليس من باب القدح.

ولهذا تجده في كتابه «التأسيس» الذي رد فيه على الفخر الرازي إذا أراد أن يذكر كلامه، يكنيه بقوله: «قال أبو عبد الله»، من غير تنقص أو استهتار، ولكن إذا جاء الحق، بين وقال: إن هذا ضل في كذا وكذا وإنه فلان.

وتسمية الناس بأعيانهم أو مقابلتهم بأنهم ضلوا لا يتحملونه، فيقومون من أجل ذلك، ولهذا ينبغي للإنسان أن ينظر في الحال؛ لأن الأمر التبس على كثير من الناس، ولهذا لو قرأنا كلام الذين كتبوا في التاريخ في هذه الحالة، يصفون الأمر بأنه صعب، فلا يوجد من يقوم بالسنة إلا نادراً جداً، ولهذا يقول الغزالي: «أصبحنا على أن الخروج عن المذهب الأشعري ـ ولو في قِيدَ شبر ـ كفر وضلال»[1].

كيف يقول مثل هذا الكلام؟ فإذا كان مثل هذا يكون قد وقع، فما حالة الإنسان الذي يقوم بالرد على هؤلاء؟ لا بد أنه يجابه ويلقى ما يلقى،

---

(١) «فيصل التفرقة بين الإسلام و الزندقة» للغزالي (ص١٤).

وإنما قدمت هذه المقدمة؛ لأن من استقرت هذه المقدمة عنده علم طريق الهدى أين هو، في هذه الباب وغيره.

ويتحمل في هذا السبيل، حتى نصره الله جل وعلا، وإن كان مات في السجن، لكن نقول: نصره الله لأن الحق تبين بدعوته.

وسمعت من بعض المشايخ يقول: لا يزال عجبي من أمرين:

الأمر الأول: ابن تيمية خرج في قوم ضلال قد عمي الحق واندثر؛ فقام وحده في الجهاد حتى تبين الحق، هذا من يتحمله؟

والأمر الثاني: محمد بن عبد الوهاب جاء إلى أمة ضالة تعبد الأشجار والحجارة، فجاهد وكابد حتى انمحى هذا نهائياً. فعلى كل حال الأمر بتوفيق الله جل وعلا.

فهؤلاء الذين ذكرهم المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يتبعون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند وغيرهم من الأمم الذين جاء كلامهم من مثل المجوس والمشركين وضلال اليهود والصابئين وأشكالهم؛ قد فارقوا ما جاء به الرسول ﷺ.

ثم يقول: «**إنما قدمت هذه المقدمة...**»، فهذه مقدمة لما سيأتي من الكلام الذي يكون رداً على تلك العقائد الفاسدة.

والمقدمة: كلامٌ يذكر قبل الموضوع الذي يتكلم فيه. وهذه المقدمة نافعة جداً، فيجب أن تفهم ويبنى عليها ما سيأتي، وفيها بعض الكلمات التي يمكن أن يقف عندها الإنسان.

وقد ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حتى يتبين للقارئ أن ما يتكلم فيه أمر كبير وخطير، حيث بيّن أنهم جانبوا طريقة الرسول ﷺ والصحابة، وباينوها مباينةً وليست مجانبة فقط، ولهذا صار الخلاف شاسعاً وكبيراً. ثم إن هذه المقدمة جعل دلائلها من الكتاب والسنة، ومن العقل والفطرة والوضع، يعني أن الأدلة كلها اجتمعت فيها، فإذا فهمها إنسان عرف الذي يجب أن

وعلم أن الضلال والتهوك إنما استولى على كثير من المتأخرين بنبذهم كتاب الله تعالى وراء ظهورهم، وإعراضهم عما بعث الله به محمداً ﷺ من البينات والهدى، وتركهم البحث عن طريق السابقين والتابعين، والتماسهم علم معرفة الله ممن لم يعرف الله بإقراره على نفسه، ولشهادة الأمة على ذلك، وبدلالات كثيرة، وليس غرضي واحداً، وإنما أصف نوع هؤلاء، ونوع هؤلاء.

وإذا كان كذلك: فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة ....

يتبع، وأن العبد لا يمكن أن يهتدي إلا باتباع كتاب الله وسنة رسوله.

والكلام في الله جل وعلا وفي أوصافه ليس كالكلام في الحوادث التي تحدث للناس من أحكام وغيرها؛ لأنه يجب أن يكون بالنص، فالعقل لا يدركه، والعرف لا يدركه، وإنما يكون ذلك بالوحي، فإذا ترك الإنسان الوحي في هذا فإن الضلال ملازم له ولا بد منه، وهذا الذي أراد أن يبينه المؤلف.

ثم إن هناك علماء صاروا هم القدوة في هذا الباب، وهم الذين يُرجع إليهم وإلى كتبهم ومؤلفاتهم، فأراد المؤلف أن ينصَّ على بعضهم؛ لأنهم جانبوا الطريق السوي، وجانبوا الحق في ذلك، فلزم أنه يعين بعضهم ولو بما يُفهم، فذكر هذا الكلام، ولهذا يقول: «**وليس غرضي واحداً، وإنما أصف نوع هؤلاء، ونوع هؤلاء**» فأراد أن يبين المنهج والطريق الذي يجب على العبد أن يسلكه.

و«**التهوك**» كلمة غريبة، معناها: التهور، فهو لا يبالي في أي طريق سلك، ومثل هذا سريع الهلاك بلا شك.

يقول: «**وإذا كان كذلك**» يعني إذا علمت هذه المقدمة وتحقَّقْتَها، فالأمر

مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله ـ سبحانه ـ فوق كل شيء، وعليٌّ على كل شيء، وأنه فوق العرش، وأنه فوق السماء.

مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾

في هذا أنه لابد من الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ثم إذا كان هناك أمر يحتاج إلى إيضاح وبيان؛ فالرجوع فيه إلى أقوال الصحابة والتابعين والأئمة، والحق لا يعدوهم بشهادة رسول الله ﷺ.

قوله: **«مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر» النص**: هو الذي لا يحتمل معنىً آخر، وكانت دلالته على المراد مقطوعاً بها، كقوله جل وعلا: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، فلا يمكن يحتمل أن يكون معه ثان، وكقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦].

أما الظاهر: فهو الذي يدل بظاهر اللفظ على المعنى، ويكون هناك احتمال، ولكنه بعيد، فهذا يسمى ظاهراً، مثاله: قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ [الزمر: ١]، هذا قد يحتمل أن التنزيل بأمره أو بملكه، ولكنه بعيد جداً، فهو ظاهر في علو الله؛ لأن النزول يكون من أعلى إلى أسفل. وهذا كثير جداً، مع أن هذا المثال قد جعله بعض العلماء نصاً، ولكنَّ الأصوليين يجعلون مثل هذا ظاهراً؛ لأنه يحتمل، فإذا احتمل ولو احتمالاً بعيداً جعلوه ظاهراً، ومعلوم أنه لا يجوز مخالفة الظاهر، بل يجب أن يعمل به.

فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: الكتاب كله بهذه المنزلة إما نص على علو الله أو ظاهر، ولا يجوز أن نخالف الظاهر، فإذا كان أقلُّ ما يكون هو الظاهر؛ فلا حجة للمخالف أصلاً.

ثم ذكر **المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ هذه النصوص وإن سماها بعض الناس ظاهراً، فهي لا تحتمل إلا ما أخبر الله جل وعلا بها، فمن ذلك:

قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾؛ والصعود يكون من أسفل إلى علو،

[فاطر: ١٠]، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٧]، ....

فهو نص في إثبات العلو لله تعالى.

وقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ هذا في خطابه لعيسى عليه السلام، يعني منيمك، فالوفاة المقصود بها هنا النوم، والله ألقى عليه النوم فرفعه حياً، وقد تواترت الأحاديث بأنه سينزل ويقتل الدجال ويحكم بهذا الشرع[(١)]، فهو حي لا يزال في السماء.

وقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ يعني إلى السماء، وهو كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾.

وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ هذه الآية للعلماء فيها قولان[(٢)]:

القول الأول: منهم من يقول: «في» بمعنى «على» أي على السماء، وهذه لها أدلة من كتاب الله ومن لغة العرب، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١]، وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، معلوم أنهم ما يدخلون في جذوع النخل ولا تدخل في قلب الأرض تسير فيها وإنما تسير عليها، فتأتي كثيراً «في» بمعنى «على»، وقد تتعاقب مع «على».

والقول الثاني: أننا لسنا بحاجة إلى هذا؛ لأن المقصود بالسماء العلو، فقوله ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في العلو، فالله في أعلى عليين، وفوق العرش.

---

(١) ذكر ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» (٢/ ٤٥٥) الأحاديث الواردة في ذلك.

(٢) انظر: «التمهيد» لابن عبد البر (٧/ ١٣٠)، «مجموع الفتاوى» (٣/ ٥٣)، «لباب التأويل» للخازن (٣/ ٢١٩).

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: ١٥٨]. ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: ٤]، ....

وهذا القول الثاني هو الذي يرجحه شيخ الإسلام[(١)]، والمعنى الأول لا يخالف الثاني فهو يتفق معه، فمثل هذا لا يسمى خلافاً، وإنما يسمى تنوعاً في العبارات أو تنوعاً في التفسير، وهذا كثير جداً في كلام الصحابة.

وقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ مثل السابق، يعني في عيسى عليه السلام، وهذا للرد على النصارى واليهود الذين يقولون: إنهم قتلوه، فأخبر أنه لم يقتلوه ولم يصلبوه، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾، فألقي على أحد اليهود شبه عيسى، فأخذوه وقتلوه وصلبوه على أنه عيسى، ولا يزال النصارى واليهود يعتقدون أنه مصلوب، ولهذا يعبدون الصليب.

قوله: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ العروج هو الصعود، وهذا من النصوص التي تدل على العلو.

وأدلة العلو كثيرة جداً، قال ابن القيم رحمه الله: «ولو شئنا لأتينا على هذه المسألة بألف دليل»[(٢)].

ولكن المسلم لا يحتاج إلى شيء من هذا، بل إلى دليل واحد إذا ثبت لديه فإنه يجب عليه أن يتبعه، أما العناد والمكابرة فلا تفيد فيها كثرة الأدلة. والله جل وعلا يقول: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾ [البقرة: ١٤٥]، مَنْ كَتَبَ الله عليه الضلال فهو ضال، ولا تنفع فيه

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٣/ ٥٣).
(٢) «اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية» (٢/ ٣٣١).
ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض كبار أصحاب الشافعي مثل ذلك، انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٣/ ١٠٠)، «الجواب الصحيح» (٤/ ٣١٨)، «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٢١، ٢٢٦).

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥].

كثرة الأدلة، ولا كثرة الكلام، وإنما النافع في حقه اللجوء إلى الله، فيدعو ربه جل وعلا أن يهديه.

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أنه جل وعلا في السماء وأمره في الأرض، وفي كل مكان، ثم يعرج إليه الأمر الذي يكون هو نتيجة عمل، أو الملك أو غير ذلك؛ يعرج إليه إلى السماء، ومعروف أن عروج الملائكة ليس إلى العرش، وإنما هو إلى السماوات، وكما أن روح المؤمن يُعْرَجُ بها إلى أن تصل السماء السابعة. ثم يخاطب الله جل وعلا الملائكة الذين يتولون قبضها والعروج بها أن يَرْجعوها إلى بدنها(١).

وكل هذا في وقت ما يغسل ويصلى عليه، فإذا وضع في قبره عادت روحه إليه وجاءته الملائكة وسألته بعقله وفكره الذي خرج به من الدنيا، فإما أن يجيب الجواب الصحيح أو أن يرتاب، وهناك ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ﴾، في الآخرة في القبر وفي غيره، وذلك أن الآخرة فيها نوع من بعض التكاليف والامتحانات، فالسؤال في القبر نوع منه، والمساءلة في الموقف نوع من ذلك.

ومن ذلك: أنهم إذا وقعت الشفاعة بعد الوقوف الطويل العظيم الذي يتمنى كثيرٌ من الناس أن يُقضى له ولو إلى النار؛ لأنه صار في عذاب عظيم، ثم إذا وقعت الشفاعة، وجاء رب العالمين للفصل بين عباده؛ يخاطبهم ويقول جل وعلا كما جاء الحديث: «**أليس عدلاً مني أن أولي كل واحد منكم ما كان يتولاه في الدنيا؟**». فيقولون: بلى، فعند ذلك يؤتى

---

(١) كما في حديث البراء بن عازب ﷺ الذي أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، وأبو داود (٤٧٥٣).

. . . .

بالمعبودات أو أمثال المعبودات، فيقال لكل عابد: «**اتبع معبودك، فيذهبون خلفها، ويتساقطون في النار**»[(١)].

وهو كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ٩٩]، فيبقى اليهود والنصارى، فيقول الله جل وعلا: «ماذا تريدون؟». قالوا: نريد الماء. فيقول: «**ألا تَرِدون؟ انظروا إلى الماء، فينظرون إلى جهنم كأنها سراب يتقطع، ويظنون أنه ماء، فيذهبون ويتساقطون فيها، فيبقى المؤمنون وفيهم المنافقون، فيأتيهم الله جل وعلا في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة. فيقول: ما الذي أبقاكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: تركناهم أحوجَ ما نكون إليهم، أما اليوم فلا حاجة لنا فيهم، ولنا رب ننتظره. فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك! هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء عرفناه**» هذا نوع من الامتحان «**فيقول الله جل وعلا: هل بينكم وبينه آية؟ فيقولون: نعم الساق. فيكشف عن ساقه، فيخر له كل مؤمن ساجداً، ويبقى المنافق ظهره طبقة واحدة، إذا أراد أن يسجد خرَّ على قفاه**»[(٢)].

ثم تُلقى عليهم الظلمة، وتُقسم عليهم أنوارهم بحسب إيمانهم، ويبقى المؤمنون يسيرون في أنوارهم، ثم يقال للمنافقين: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ والمنافقون ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يعني في الدنيا، فيقولون: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ [الحديد: ١٣ - ١٤]، وهذا نوع من الامتحان والابتلاء.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨١)، من حديث أبي موسى الأشعري، وبمعناه في «الكبير» (٩٧٦٣)، (٩/٣٥٧)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، في ستة مواضع. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

وإذا مضى المؤمنون من فوق الصراط، فإنهم يحبسون في قنطرة دون الجنة، ويقتص لبعضهم من بعض[1]، وهذا أيضاً نوع من القصاص، وقد علم الله جل وعلا أن هذا الاقتصاص لا يقضي على حسناتهم، فيبقي لهم حسنات، الذي يؤخذ منه يدخل بها الجنة، فلا يدخلون الجنة إلا وقد صفوا وهذبوا، وصفت قلوبهم وصار ليس عند أحد غل للآخر أو حق للآخر.

والمقصود أن الموت لا يكون منهياً للتكليف بالكلية.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وفي سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣].

ولكن ذكر العرش جاء في سبعة مواضع؛ لأنه في سورة طه قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾، لكن ليس فيه ذكر خلق السماوات والأرض.

وكذلك في سورة البقرة قوله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩].

والاستواء بلغة العرب هو العلو والارتفاع والصعود على الشيء والاستقرار عليه، هذه أربعة ألفاظ جاءت عن السلف تفسيراً للاستواء[2].

---

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ في «صحيح البخاري» (٦٥٣٥).

(٢) أما تفسيره بالارتفاع، فمروي عن ابن عباس في «تفسير البغوي» (١/ ٧٨)، وأبي العالية، والحسن، والربيع بن أنس، كما في «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٧٥)، =

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلا بكلفة.

قوله: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ هذا من النصوص الظاهرة في العلو؛ لأنه ظاهر في أن موسى عليه السلام أخبر فرعون أن الله في السماء، ولهذا أمر بالبناء، وأمر فرعون هذا من التدجيل والكذب والتزوير على الناس، ومعروف أن أكثر الناس همج، فإذا نعق لهم ناعق اتبعوه بدون تفكير إذا كان كبيراً أو له قوة، وإلا فكيف يصدق عاقل أن فرعون يبني بناءً يصل إلى السماء ليطلع على الله؟ ثم يقول: إني رأيت السماء ليس فيها أحد! ثم هو كيف يسيغ عقله ذلك له؟ ومع ذلك لم يعترض عليه أحد! وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فاتبعوه على هذا حتى قال أقرباؤه ووزراؤه: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، يعني أن موسى هو الذي يفسد في الأرض، وفرعون هو الذي يصلح! كما هو الواقع الآن من نظرائه.

قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ التنزيل يأتي من العلو إلى أسفل.

وقوله: «**إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلا بكلفة**» ففي كتاب الله أمثال

= و«تفسير الطبري» (١/ ٤٢٩)، وتفسير أبي العالية عند «البخاري» (٩/ ١٢٤)، معلقاً.
وأما تفسيره بالعلو، فمروي عن مجاهد، كما في البخاري معلقاً (٩/ ١٢٤).
وأما تفسيره بالاستقرار، فمروي عن ابن عباس، كما في «الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ٣١١)، ومقاتل بن حيان البلخي، والكلبي، كما في «تفسير البغوي» (٣/ ٢٣٥).
وأما تفسيره بالصعود، فنسبه البغوي في «التفسير» (٣/ ٢٣٥)، وابن القيم في «النونية» (١/ ٢١٧) لأبي عبيدة، وهو معمر بن المثنى، إلا أن الذي في كتابه «مجاز القرآن» (١/ ٢٧٣) تفسيره الاستواء: بالعلو. ونسبه الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٢٥) لابن عباس، والله أعلم.

وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى، مثل قصة معراج رسول الله ﷺ إلى ربه، ....

هذا كثير، وهذه أمثلة فقط، حصرها والإحاطة بها تحتاج إلى كلفة، لأن أكثر كلام الله جل وعلا بهذا.

وهذا يدلنا على أمر يجب أن نتنبه له وهو كثرة هذه الأدلة، فالله عليم حكيم، انظر إلى الشيء الذي لا يستغني عنه الإنسان، كالماء والهواء والنار والملح، فهي كثيرة جداً، ولا أحد يستطيع أن يسيطر عليها، ولا يحتكرها أحد، وهذه من حكمة الله ورحمته، فلما علم الله جل وعلا أن الأمة تضل في هذا أَكْثَرَ من ذكره تعالى وتقدس.

وهكذا الصفات كلها على هذا المنوال؛ لأن وجود الصفات في كتاب الله أكثر من ذكر الصلاة والصوم والزكاة؛ لأننا نحتاج إليها لوجود من انحرف ودعا إلى خلافها، فأكثر الله جل وعلا من ذلك رحمةً منه، وهذا ظاهر لمن تأمل.

قال: «**مثل قصة معراج رسول الله ﷺ**» يعني أن الصعود ثابت في أحاديث المعراج[1].

والمعراج يطلق على الآلة التي يُصعد بها، وعلى المكان الذي يصعد معه؛ لأنه «مفعال» مثل مفتاح، فإذا جاء هذا على هذه الصيغة فالغالب أنه يدل على الآلة.

والمعراج من الأمور التي لا يحتملها عقل الإنسان إلا أن الشرع جاء بها، فلهذا ينكر العلمانيون هذه الأحاديث، حتى الذين ينتسبون إلى العلم، ولكنهم يغلبون جانب العقل، مع أنه متواتر وأمر واقع، وإنكاره قد يؤول بالإنسان إلى الكفر نسأل الله العافية.

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٥/٦).

ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه، وقوله في الملائكة الذين يتعاقبون فيكم بالليل والنهار، فيخرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم.

والرسول ﷺ عرج بجسده وروحه حياً يقظةً لا مناماً، وهو مرة واحدة في مكة وليس متعدداً كما زعم من زعم من العلماء أنه وقع في مكة ووقع في المدينة؛ لأنه جاءت أحاديث فيها شيء من الاشتباه في هذا، فزعموا أنه في المدينة. والعجيب أنهم يزعمون أن الصلاة فُرضت مرتين خمسين مرة وكل مرة تحط إلى أن تصل إلى خمس!!

فالمقصود أن ممن ينسب إلى العلم ويعد مع العلماء من قال: إن المعراج بالروح فقط، وهذا قول ابن حزم، وعنده شذوذات، ولهذا لا يتابع على شذوذه، وأما أهل السنة قاطبةً فيقولون: إن المعراج بجسده وروحه معاً يقظةً لا مناماً، والأحاديث في هذه ظاهرة جداً، أما الذين ينكرونه فهم أهل البدع والعقلانيون، وإنكاره مكابرة.

قال: «**ونزول الملائكة من عند الله**» قد جاءت النصوص الكثيرة أن كل واحد منا معه عدد من الملائكة إما اثنان أو أربعة، اثنان في النهار واثنان في الليل، وقد يكونون أكثر من هذا، فالله جل وعلا يقول: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]، فهؤلاء غير الحفظة الذين يحفظون كلامه، فملائكة الله رسله.

قوله: «**الملائكة الذين يتعاقبون**» المقصود هنا ما ثبت في الصحيحين أن الرسول ﷺ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ثم يجتمعون في صلاة العصر، فيصعد الذين بقوا معكم في النهار ويبقى الذين يبيتون معكم في الليل، ثم ينزل أولئك ويجتمعون في صلاة الفجر، فيصعد الذين باتوا، ويبقى الذين نزلوا في صلاة الفجر**»، هذا معنى أنهم يتعاقبون، والتعاقب هو التناوب، ولكن إذا كان الإنسان نائماً لا ينزلون إليه،

وفي الصحيح في حديث الخوارج: **«ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً»**(١).

والاجتماع هذا لأمر أراده الله جل وعلا، هو سؤاله إياهم، فإنهم إذا صعدوا يسألهم: **«كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»**(٢)، فإذا سمعت الملائكة التي لا تعرف عنا شيئاً تصورت أن وقتنا كله صلاة، فيدعون لنا ويستغفرون لنا، أما إذا كان نائماً أو يلعب لا يستغفر له، ولا يدعى له.

المقصود صعودهم إلى الله أي: إلى السماء، وليس إلى العرش، ولكن معنى ذلك أن السماء أقرب إلى الله من الأرض، وهذا مما ينكره أهل البدع يقولون: لا يجوز أن تقول: إن هذا المكان أقرب إلى الله من هذا المكان، أو هذا الشخص أقرب إلى الله من هذا الشخص، وهذا منكر لأنه خلاف النصوص.

قوله: «**حديث الخوارج**» خبر الخوارج هذا أن رجلاً من الخوارج - هو أولهم - أتى إلى النبي ﷺ بعدما قسم ذهباً؛ جاءه من اليمن في ترابه لم يُصَفَّ، بعد أن أرسله علي بن أبي طالب من اليمن، فقسمه ﷺ بين أربعة من رؤساء القبائل رجاء أن يسلموا؛ لأن هذا من مصارف الزكاة الذين يتألفون على الإسلام، فإذا أسلم أسلمت قبيلته كلها، فكان يعطيهم عطاءً كبيراً جداً، فأعطى أحدهم أربعمئة ناقة، فجاء رجل محلوق الرأس، ناتئ الوجنتين، غائر العينين، فقال: يا محمد اعدل، فإنك لم تعدل، هذه قسمة لم يرد بها وجه الله. فتغير وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «**ألا تأمنوني على الدنيا؟!**»، لا تعلق لقلب الرسول ﷺ فيها أصلاً، «**وأنا أمين من في**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وفي حديث الرقية الذي رواه أبو داود وغيره: «**ربنا الله الذي في السماء**، ....

السماء»، يأتيني الوحي من السماء، وقد ائتمنني الله جل وعلا عليه، وأنتم لا تأمنوني بهذا. ثم بعد ذلك قال: «**رحم الله أخي موسى، لقد أوذي أكثر من ذلك فصبر**»[(١)].

وقال له بعض الصحابة: دعنا نضرب عنقه فقال: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[(٢)]؛ لأن هذا من طبيعة الناس، فلا يتأكدون من الأخبار، فإذا سمعوا شيئاً نشروه ولو على غير وجهه. فإذا قيل: إنه يقتل أصحابه، صار هذا تنفيراً عن الدخول في الإسلام. يقول الإنسان: لا أدخل في الإسلام حتى لا يقتلني. ولهذا قال: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**». وفي رواية أنه قال لأحدهم: «**لا خير لك في قتله، فإن هذا يخرج من ضئضئه قومٌ تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصومكم مع صومهم، يمرقون من الإسلام مروقَ السهم من الرمية**»[(٣)].

والمصيبة أن صفات الخوارج لا تزال موجودة عندنا؛ لأنه جاء في الحديث «**إنهم يبقون حتى يلحق بقيتهم بالدجال**»[(٤)]، وأمر الرسول ﷺ بقتلهم، ولهذا فرح علي رضي الله عنه لما قتلهم؛ لأن فيهم نصوصاً بالأمر بقتلهم والترغيب بذلك.

قوله ﷺ: «**ربنا الله الذي في السماء**» هذا أيضاً مما يدل على علو الله جل وعلا نصاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢)، من حديث ابن مسعود، في غير هذا الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٧)، ٢٥٤٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه أحمد (١٩٨٠٨)، والنسائي (٤١٠٣)، من حديث أبي برزة رضي الله عنه.

تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاءً من شفائك على هذا الوجِع»[1].

قال ﷺ: «**إذا اشتكى أحد منكم، أو اشتكى أخ له، فليقل: ربنا الله الذي في السماء...**» وذكره.

وقوله في حديث الأوعال: «**والعرش فوق ذلك، والله فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه**». رواه أبو داود[2].

وهذه رقية، فإذا كان المريض رقى بها مؤمناً موقناً بذلك، فإنه يشفى بإذن الله جل وعلا.

قوله: «**تقدس اسمك**» يعني: طهر وتنزه من كل عيب.

ثم قال: «**أمرك في السماء والأرض**» يعني أن أمره في كل مكان تعالى وتقدس، فهو المهيمن على كل شيء، وهو الحاكم على كل شيء، وهو القهار.

ثم قال: «**كما رحمتك في السماء**» التي هي صفتك، وآثارها تنزل إلى الأرض، ولهذا قال: «**اجعل رحمتك في الأرض**» التي هي أثر الرحمة، وليست هي الصفة، وآثارها: الشفاء وغيره.

قال: «**وشفاءً من شفائك على هذا الوجع**» الوجع المريض الذي يرقاه.

قال: «**إذا اشتكى أحد منكم، أو اشتكى أخ له..**» وهذا من الإرشاد.

قوله: «**الأوعال**» نوع من الظباء أو ذكر الظباء، والمراد بهم ملائكة على

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٢٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٠٨)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٧٠)، وأبو داود (٤٧٢٣، ٤٧٢٤، ٤٧٢٥)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وهذا الحديث مع أنه قد رواه أهل السنن كأبي داود، وابن ماجه، والترمذي، وغيرهم؛ فهو مروي من طريقين مشهورين، فالقدح في أحدهما لا يقدح في الآخر، إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب «التوحيد»[(١)] الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بما نقله العدل عن مثله موصولاً إلى النبي ﷺ.

وقوله في الحديث الصحيح للجارية: ....

شبه الأوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين السماء والأرض، وهم حملة العرش، والعرش فوقهم، فسمي حديث الأوعال. وهذا الحديث قد اخْتُلفَ فيه ما بين مضعف ومصحح، والشيخ يقول: «**مروي من طريقين مشهورين، فالقدح في أحدهما لا يقدح في الآخر**»، وهو عنده صحيح.

وقد قال ابن القيم في كتابه «تهذيب السنن»: «إن رواته ليس فيهم علة، إلا أنه خالف الجهمية في اعتقادهم»[(٢)]، والجهمية إذا أطلقت تشمل عند العلماء كل من نفى الصفات أو تأولها.

وقوله: «**الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بما نقله العدل عن مثله موصولاً إلى النبي ﷺ**» يعني أن هذا تصحيح من ابن خزيمة له، ويقول العلماء: إذا صحح إمام موثوق به، معلوم معرفته في هذه الأسانيد، وفي الرجال وجب العمل به، وإن ضعفه غيره.

قوله: «**في الحديث الصحيح للجارية**» هذا الحديث في صحيح مسلم، وقد رواه غير مسلم بروايات كثيرة.

والذي في صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم، ـ وليس هو معاوية بن أبي سفيان ـ قال: كان لي جارية في غنم بالجوانية قرب أحد، والجارية

---

(١) (١/ ٣٣٤).

(٢) «تهذيب السنن» (٤/ ٢١٦٠).

«أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها، فإنها مؤمنة»[(١)].

هي المملوكة، وفي رواية: جارية سوداء، والسوداء قد يحتقرونها قليلاً.

يقول: فاطلعت عليها يوماً، فإذا الذئب قد أخذ شاة من غنمي، وأنا رجل من بني آدم آسَفُ كما يأسفون. يعني يغضب. يقول: فصككتها في وجهها فندمت، ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فأعظم ذلك علي فقلت: يا رسول الله ألا أعتقها؟ قال: «بلى، ائتني بها». يقول: فجئت بها، فقال لها ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. فقال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. فقال: «أعتقها فإنها مؤمنة». وهذا فيه فوائد، منها:

أولاً: أن الإيمان بالمذكور في الكفارة يكتفى فيه بالظاهر فقط في مثل هذا، فإذا قال الشخص: إن الله في السماء، وإن محمداً رسول الله كفى هذا في عتقه، بخلاف الإيمان الذي يتحلى به الإنسان ويوصف لأجله بأنه مؤمن، فهو أمر آخر، هذا أمر يجب أن نفقهه ونعرفه.

ثانياً: أن السؤال عن ربنا بقول: «أين الله؟» سنة، وهذا ينكره أهل البدع أشدَّ الإنكار، ولهذا منهم من يقول ويسمي أهل السنة: الأينية. يقول: أنتم الأينية، يعني أنكم تقولون: أين الله، فعندهم هذا أمر عظيم؛ وهذا لأن الله جل وعلا أضلهم في هذا الأمر، وصاروا على عقائد تخالف الحق الذي جاء به الرسول ﷺ.

ثالثاً: أنه نصٌّ في أن الله فوق، وهم يقولون: إن الله في كل مكان ـ تعالى الله وتقدس ـ، ويصح على قولهم هذا أنه في أجوافهم وفي الحشوش وفي الأماكن القذرة! نسأل الله العافية، فما حكم من يقول مثل هذا؟

سئل الإمام أبو حنيفة فقال: الذي يقول: إن الله مستو على العرش

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

وقوله في الحديث الصحيح: «إن الله لما خلق الخلق كتب في كتاب موضوع عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي»[(١)].

وقوله في حديث قبض الروح: «حتى يعرج بها إلى السماء التي فيها الله»[(٢)]، إسناده على شرط الصحيحين.

ولكن ما أدري أين العرش هل هو في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر[(٣)].

قوله: «**إن الله لما خلق الخلق..**» هذا الحديث في الصحيحين، وفي لفظ قال: «**كتب كتاباً ووضعه على العرش**»[(٤)]، فهو وضعه عنده على العرش، وهذا كتاب خاص كتبه على نفسه رحمةً وإحساناً منه جل وعلا، ولا أحد يكتب عليه، فهو الذي يكتب، ورحمته أوسع من غضبه وأسبق، وكل هذا جاء في ألفاظ الحديث. فالمقصود: أن هذا يدلنا على أن للعرش مكاناً، وأنه يوضع عليه شيء، وأن الذي على العرش عند الله .

وكلمة «**عنده**» هي نفس المسألة التي يقولون فيها: «أين»، فهم مرة يسموننا: الأينية ومرة يسموننا: العندية، فكل هذا من المنكر، فكيف يعيرون الناس بالنصوص التي جاءت في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ؟! أليس هذا ضلالاً بيِّناً؟

قوله: «**حتى يعرج بها إلى السماء**» المراد بالسماء العلو؛ لأن السماء تطلق على كل ما فوق، فالسقف يقال له: سماء، كما قال الله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٦٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٤٢)، وابن ماجه (٤٢٦٢، ٤٢٦٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) «الفقه الأكبر» (ص١٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٠٤).

وقول عبد الله بن رواحة ﷺ وأقره عليه:

شهدتُ بأن وعدَ الله حق ... وأنَّ النار مثوى الكافرين
وأن العرش فوق الماء طافٍ ... وفوق العرش رب العالمين[١]

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ١٥]، والمعنى إذا كان الإنسان يحزنه انتصار رسول الله فليعجل بموته، وليجعل حبلاً في السقف، ثم يضعه في رقبته، ثم يتحامل عليه حتى يموت، فلا بد من نصر الرسول، والمقصود هنا أنه سمى السقف سماءً.

وقول عبد الله بن رواحة ﷺ لما أنشده هذا ضحك؛ لأن هذا فيه قصة عجيبة، عبد الله بن رواحة له جارية، فوقع عليها، فاطلعت زوجته على ذلك، فذهبت وأتت بالسكين لتذبحه، فقال: لم يكن شيء. فقالت: إذا لم يكن، اقرأ علي القرآن؟ فقال لها هذه الأبيات، فقالت: آمنت بذلك وكذبت عيني، فذهب للرسول ﷺ وأخبره، فضحك الرسول ﷺ.

والشاهد من هذا قوله:

وأن العرش فوق الماء طافٍ ... وفوق العرش رب العالمين

والماء المقصود به البحر العظيم الذي فوق السماوات السبع، الذي بينه وبينها مسيرة شاسعة جداً كما ذكر في الحديث إما خمسمئة عام، أو أقل أو أكثر، لاختلاف الروايات[٢].

وقوله: «**وفوق العرش رب العالمين**» فالعرش فوق الماء كما في حديث

---

(١) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٨٢)، وابن أبي الدنيا في «النفقة على العيال» (٥٧٢).

(٢) من ذلك ما رواه العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمس مئة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمس مئة سنة، وكِثَفُ كل سماء مسيرة خمس مئة سنة، وفوق =

وقول أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي أنشد للنبي ﷺ هو وغيره من شعره فاستحسنه، وقال: «**آمن شعره، وكفر قلبه**»[(١)].

مَجِّدوا الله فهو للمجد أهلٌ ربُّنا في السماء أمسى كبيرا

عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب مقادير الأشياء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء**»[(٢)]، وقوله: «**عرشه على الماء**» جملة حالية، يعني وقت الكتابة كان العرش على الماء.

فإن قال قائل: هل القلم أول المخلوقات أم العرش؟

فالجواب: أن القلم ليس أول المخلوقات، وإنما القلم لما خلقه الله أمره بالكتابة بدون فاصل وقت، «**أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب**»[(٣)]، فالجملة واحدة، يجب أن نقرأها هكذا واحدة، وإلا فهذا الحديث صريح جداً وظاهر أن العرش والماء موجودان قبل خلق القلم، فلا يكون المقصود الإخبار بأن القلم هو أول مخلوق، كما زعمه من زعمه.

قوله: «**أمية بن أبي الصلت**» هذا الرجل مات كافراً، وقال فيه الرسول ﷺ: «**آمن شعره، وكفر قلبه**».

فإن قال قائل: هل يستدل بأشعار الكفار؟

فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن الرسول أقرَّه، وقال: «**إنه آمن**» أي هذا الشعر.

= السماء السابعة بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض». أخرجه أحمد (١٧٧٠)، وأبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣).

(١) أخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٩٧٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣١٩)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

بالبناء الأعلى الذي سبق النا ... س وسوّى فوق السماء سريرا
شَرجعاً ما يناله بصر العيـ ... ـن يُرى دونه الملائكة صورا[(١)]

الوجه الثاني: أن المؤلف أراد أن يبين أن هذا إجماعٌ حتى من الكفار، وأن الذي خالف في هذا الجهمية وأفراخهم الذين أخذوا عنهم إلى اليوم.

أما كلمات الشعر هذا، فهي قوله: «**وسوى فوق السماء سريراً**» والمقصود به العرش.

وقوله: «**شرجعاً**» الشرجع هو المتناهي في العلو. «**ما يناله بصر العين**» يعني أنه رفيع جداً.

وقوله: «**يرى دونه الملائكة صورا**» الصور: هو الذي ينظر بعين واحدة، يرفع رأسه وينظر بواحدة؛ لأنه لا يستطيع أن يرفع رأسه جملة، فهذا حسب عقيدة هذا الرجل.

والمقصود أن هذا الرجل علم أن لله عرشاً، وأنه في الجملة فوق هذا، وهو من أهل الجاهلية، فمعنى ذلك أن هذا أمر مجمع عليه، ويدل على الإجماع أيضاً ما جاء في صحيح البخاري وغيره ـ ولم يذكره المصنف هنا ـ وهو قول زينب رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: زوَّجَكُنَّ أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات[(٢)]، فكلٌ يسمعه ويقره ولم ينكره أحد إلا الجهمية.

فالمقصود أن العلو أمر فطري فطر الله عليه خلقه، ولهذا كل داعٍ يدعو تجده يرفع يديه، حتى البهائم شوهدت أنها إذا هضمت وظلمت رفعت رؤوسها.

---

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (١٢٢١، ٣٤٠٤)، «تاريخ دمشق» (٩/ ٢٧٧)، وليس فيها أنه أنشد للنبي ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، من حديث أنس رضي الله عنه.

وقوله في الحديث الذي في السنن: «إن الله حيي كريم، يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهم صفراً»(١).

وقوله: «يمد يديه إلى السماء يقول: يا رب يا رب..»(٢).

قوله في الحديث: «**حيي كريم**» فيه وصف الله بالحياء، قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، و«**كريم**»، واسع العطاء والجود.

وقوله: «**يستحيي**» هذا الذي يدل على الصفة «**يستحيي من عبده**» وفي لفظ: «**عبده المؤمن**»، وهنا من غير قيد.

قوله: «**أن يردهم صفراً**» يعني لم يعطَ إجابة دعوته.

وهذا الحديث رواه الترمذي وغيره، وهو حديث صحيح، والمقصود منه الرفع.

وقوله: «**يمد يديه إلى السماء**» هذا في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، وهو حديث مشهور، وفيه قوله ﷺ: «**إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢]».

فما فرّق بين هذا وهذا، الأولى في المرسلين، والثانية في المؤمنين، فكلهم أمروا بالأكل من الطيبات والعمل الصالح والشكر لله، والشكر هو العمل الصالح. ثم ذكر الرجل الذي يطيل السفر أشعث رأسه، مغبرة قدماه، يرفع يديه إلى السماء، هذا هو الشاهد من الحديث «يرفع يديه إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٧١٥)، وأبو داود (١٤٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، والترمذي (٣٥٥٦)، من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

السماء يقول: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له» فأنى يعني: بعيد الاستجابة، ولكن ليس مستحيلاً؛ بسبب أكل الحرام وشرب الحرام، هذا شيء يجب أن نعرفه؛ لأن ذلك له أثر بالغ في رد العمل وعدم قبوله، فيجب أن يكون الإنسان محتاطاً مجتنباً للحرام لئلا يرد عمله ودعاؤه ولا يستجاب من رب العالمين، فالمقصود رفع الأيدي.

وذكر ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ أن هذا الحديث اجتمعت فيه أسباب الإجابة الكثيرة، منها: أن هذا الرجل غريب، والغريب يستجاب دعاؤه، والغربة مظنة انكسار القلب، وإذا انكسر القلب، فإن الله قريب منه ويستجيب له.

ومنها: الابتذال؛ لأنه قال: **«أشعث أغبر»**، والابتذال وإظهار الحاجة مظنة للإجابة، ولهذا يقول الفقهاء في الاستسقاء: ينبغي أن يخرج إلى المصلى بثياب بِذْلة ويظهر الفقر والفاقة والحاجة لربه، كما فعل الرسول ﷺ[1].

ومنها: رفع الأيدي في الدعاء، فهو من أسباب الإجابة.

ومنها: ترديد هذا الاسم الكريم: «يا رب، يا رب»، فإنه من أسباب الإجابة[2].

---

(١) كما في حديث عبد الله بن عباس، أخرجه أحمد (٢٠٣٩)، وأبو داود (١١٦٥)، والترمذي (٥٥٨)، والنسائي (١٥٠٦)، وابن ماجه (١٢٦٦).
وانظر: «المحلى» لابن حزم (٣/ ٣٠٩)، «المغني» لابن قدامة (٣/ ٣٣٤)، «الموسوعة الفقهية» (٣/ ٣١٠).

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص٢٥٠).

إلى أمثال ذلك مما لا يحصيه إلا الله، مما هو أبلغ المتواترات اللفظية والمعنوية، التي تورث علماً يقينياً من أبلغ العلوم الضرورية، أن الرسول ﷺ المبلِّغ عن الله، ألقى إلى أمته المدعوين أن الله ـ سبحانه ـ فوق العرش، وأنه فوق السماء، كما فطر الله على ذلك جميع الأمم عربهم وعجمهم في الجاهلية والإسلام، إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته.

ثم عن السلف في ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مئات أو ألوفاً.

يقول: «**إلى أمثال ذلك مما لا يحصيه إلا الله**» يعني أن هذه المسألة ظاهرةٌ جداً، والأدلة لا حصر لها، والنصوص في كتاب الله كثيرة، وكذلك في أحاديث رسوله ﷺ، وفي إجماع الأمم والرسل على ذلك، وكذلك في الفطر التي فطر الله عليها، فأي مسألة اجتمعت فيها هذه الأدلة فوق ذلك؟! ومع ذلك ينكرها من ينكرها من أهل البدع! وليس لهم حجة، وإنما هي شبهات وتوهمات من الشيطان.

والعجيب أن الأشعرية يقولون: إن الله يُرى. فلما قال لهم من يجادلهم: من أين؟ قالوا: لا من جهة!!

كيف إذاً يرى إذا لا من فوق، ولا من تحت، ولا من يمين، ولا من شمال، ولا من خلف ولا من أمام، هل هذا إثبات للرؤية؟! ما هي إلا تناقضات، فصاحب الباطل متناقض حتى في نفسه، وعقيدته مضطربة، ولا يمكن أن يكون هذا لأهل الفطر الذين فطرهم الله على الحق، وإنما يكون لمن «**اجتالته الشياطين عن فطرته**» كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، واجتيال الشياطين، يكون من الإنس والجن، وشياطين الإنس أبلغ من شياطين الجن في ذلك.

ثم ليس في كتاب الله، ولا في سنة رسول ﷺ، ولا عن أحد من سلف الأمة؛ لا من الصحابة والتابعين، ولا عن أئمة الدين الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك، لا نصاً ولا ظاهراً.

ولم يقل أحد منهم قط: إن الله ليس في السماء، ولا أنه ليس على العرش، ولا أنه بذاته في كل مكان، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل، ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصبع، ونحوها.

قال: «**ليس في كتاب الله.. حرف واحد يخالف ذلك**» يعني أن أهل الحق مجمعون على هذا، فإذا كان إجماعاً بهذه الصورة تضافرت عليه الأدلة من الكتاب والسنة ومن العقل ومن الفطر والإجماع، فكيف يسوغ لأحد يخالف في هذا؟!

وقد يقول القائل: ما هو دليل العقل؟

فالجواب: أن للعقل دلائل كثيرة، ولكن أذكر مسألة واحدة فقط، أقول: كل من يؤمن بالله ويعلم أنه الخالق؛ نقول له: لما خلق الخلق تعالى وتقدس أين كان؟ هل في داخل الخلق؟ فهذا لا يمكن، هل هو بأسفل الخلق؟ فإذاً لابد أن يكون فوقهم مبايناً لهم، هذا أمر ملزم.

ونحن لسنا بحاجة لهذا، ولكن قد يسأل سائل.

قوله: «**ولم يقل أحد منهم**» يعني أن هذه كلها أقوال أهل البدع، فيقولون: ليس فوق ولا تحت، وليس داخل العالم ولا خارجه، وليس يميناً ولا شمالاً، وليس محايثاً وليس خلف العالم، وكل أوصافهم: «ليس»، وإذا أثبتوا قالوا: الله موجود! فيأتون بشيء مجمل فقط، فعكسوا كتاب الله وسنة رسوله، ففي كتاب الله إذا جاء النفي جاء مجملاً، كقوله: ﴿لَيْسَ

بل قد ثبت في الصحيح عن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفة في أعظم مجمع حضره رسول الله ﷺ؛ جعل يقول: «**ألا هل بلغت؟**». فيقولون: نعم. فيرفع أصبعه إلى السماء وينكبها إليهم ويقول: «**اللهم اشهد**»[(١)] غير مرة، وأمثال ذلك كثير.

فإن كان الحق فيما يقوله هؤلاء السالبون النافون للصفات الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله، من هذه العبارات ونحوها، دون ما يفهم

كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، كله مجمل، وإذا جاء الإثبات جاء مفصلاً، كإثبات السمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والرحمة والغضب وغير ذلك، فهذا إثبات مفصل ينص عليه.

وهذا الذي يجب أن يتبع؛ لأن الإجمال في النفي يكون مطلقاً، فكل نفي إذا أريد به العموم والتنزيه والكمال؛ فإنه يكون مجملاً حتى بالنسبة لخطابات الناس، فلو أحداً قابل الأمير، وقال له: أنت لست كالغسال، ولا الكساح، ولا الحداد، ولا الخباز ولا ولا.. إلخ، يعني أنت في المكانة تفوق هؤلاء، فأقل ما يقال له: إنه سيئ الأدب.

بخلاف ما لو قال له: أنت لست كأحد من شعبك، أنت فوقهم، وجاء بالإجمال، فإنه جاء بالأدب، ورب العالمين أولى بأن يُنزه، ونحن مكلفون باتباع الكتاب والسنة.

قوله: «**فيرفع أصبعه إلى السماء**» إشارة إلى العلو وأن الله فوق.

وقوله: «**فإن كان الحق فيما يقوله هؤلاء السالبون**» أي أن هذا هو ما كان في وقته وقبله وكذلك بعده ظاهراً عند أكثر الناس، والمقصود بالناس

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

من الكتاب والسنة إما نصاً وإما ظاهراً، فكيف يجوز على الله، ثم على رسوله ﷺ، ثم على خير الأمة أنهم يتكلمون دائماً بما هو نص أو ظاهر، في خلاف الحق الذي يجب اعتقاده ولا يبوحون به قط، ولا يدلون عليه، لا نصاً ولا ظاهراً، حتى يجيء أنباط الفرس والروم وفروخ اليهود والنصارى والفلاسفة، يبينون للأمة العقيدة الصحيحة، التي يجب على كل مكلف أو كل فاضل أن يعتقدها.

لئن كان ما يقوله هؤلاء المتكلمون المتكلفون هو الاعتقادَ الواجب، وهم مع ذلك أُحيلوا في معرفته على مجرد عقولهم وأن يدفعوا بمقتضى قياس عقولهم ما دل عليه الكتاب والسنة نصاً أو ظاهراً، لقد كان ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أهدى لهم وأنفعَ على هذا التقدير، بل كان وجود الكتاب والسنة ضرراً محضاً في أصل الدين.

فإن حقيقة الأمر على ما يقوله هؤلاء؛ أنكم يا معشر العباد، لا تطلبوا معرفة الله ﷻ، وما يستحقه من الصفات نفياً وإثباتاً، لا من الكتاب ولا من السنة، ولا من طريق سلف الأمة.

العلماء وليس العامة، فهم ـ أي العامة ـ على الفطرة، لا يخالفون ما فطرهم الله جل وعلا عليه، وهم ـ أعني علماء هؤلاء المبتدعة ـ يتركون هذه النصوص الظاهرة ويقولون: إنها تدل على التشبيه، فيجعلون القول بها من الباطل، بل قد يجعلونه من الكفر.

وقوله: **«بل كان وجود الكتاب والسنة ضرراً محضاً في أصل الدين»**؛ لأن الكتاب والسنة يدلان على خلاف هذه العقيدة التي يزعمونها، فكون الرسول جاء بخلاف قولهم الذي زعموا أنه الواجب اتباعه؛ فعلى هذا الزعم الكاذب يكون الرسول جاء بخلاف الحق، ولم يبلغ الأمة ما يجب أن تعتقده في ربهم، وهذا هو مقتضى قولهم أنا وكلنا إلى عقولنا فقط، وهم يعتذرون عن هذا ويقولون: نعم لأنا وكلنا إلى عقولنا حتى تكثر

ولكن انظروا أنتم، فما وجدتموه مستحقاً له من الأسماء والصفات، فصفوه به، سواءٌ كان موجوداً في الكتاب والسنة أو لم يكن، وما لم تجدوه مستحقاً له في عقولكم، فلا تصفوه به!

ثم هم ههنا فريقان، أكثرهم يقولون: ما لم تثبته عقولكم، فانفوه.

ومنهم من يقول: بل توقفوا فيه، وما نفاه قياس عقولكم ـ الذي أنتم فيه مختلفون مضطربون، اختلافاً أكثر من جميع اختلاف على وجه الأرض ـ فانفوه، وإليه عند التنازع فارجعوا، فإنه الحق الذي تعبدتم به، وما كان مذكوراً في الكتاب والسنة مما يخالف قياسكم هذا، أو يثبت ما لم تدركه عقولكم ـ على طريقة أكثرهم ـ فاعلموا أني أمتحنكم بتنزيله، لا لتأخذوا الهدى منه، لكن لتجتهدوا في تخريجه على شواذ اللغة، ووحشي الألفاظ، وغرائب الكلام، وأن تسكتوا عنه مفوضين علمه إلى الله مع نفي دلالته على شيء من الصفات، هذا حقيقة الأمر على رأي هؤلاء المتكلمين.

أجورنا، فلأجل ذلك ـ على حد زعمهم ـ ننبذ الكتاب والسنة وما جاء به الرسول وبينه ووضحه، فهذا اعتذار شيطاني غير مقبول.

قوله: «**ثم هم ههنا فريقان**» يعني أن عندهم طريقين، وكل واحد تسلكه يكفي، فإما أن تسلك التأويل بوحشي الألفاظ وغرائب اللغة، أو تفوض، والأشاعرة ينصون عليه في عقائدهم فيقولون: إذا جاءت الآيات المتشابهات مثل قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، فالطريق فيه إما التفويض أو التأويل، وهذا واجب عندهم!

والعقائد الفاسدة المخالفة للحق تكون نتائجها فاسدةً مخالفةً للحق، وهذا الكلام الذي يقوله الشيخ، فلا يتكلمون بهذه الطريقة، ولكن يقول: هذا هو مقتضى ما يقولونه، واللازم لقولهم.

وهذا الكلام قد رأيته صرَّح بمعناه طائفة منهم، وهو لازم لجماعتهم لزوماً لا محيد عنه، ومضمونه أن كتاب الله لا يُهتدى به في معرفة الله، وأن الرسول ﷺ معزول عن التعليم والإخبار بصفات من أرسله، وأن الناس عند التنازع لا يردُّون ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، بل إلى مثل ما كانوا عليه في الجاهلية، وإلى مثل ما يتحاكم إليه من لا يؤمن بالأنبياء كالبراهمة والفلاسفة وهم المشركون والمجوس وبعض الصابئين.

وإن كان هذا الرد لا يزيد الأمر إلا شدة، ولا يرتفع الخلاف به،

قوله: «**وهذا الكلام قد رأيته صرح بمعناه طائفة منهم**» يعني أن الكلام الذي ذكره، وهو إذا كان هذا الذي يقولونه ويعتقدونه هو الحق؛ فتركُ الناس بلا كتاب وبلا رسول أسهل بل أولى؛ لأن الرسول جاء بخلاف هذا تماماً، فهذا نسأل الله العافية غاية الضلال.

وقوله: «**قد رأيته صرح بمعناه**» ليس بلفظه، ولا يزال بعضهم يصرح به، فهذا الصاوي، صاحب «حاشية الجلالين»، يقول في تفسير سورة الكهف: «إن الأخذ بظاهر الآيات والأحاديث، من أصول الكفر»، ذكر ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1]، فهل يجرأ مسلم على أن يقول هذا الكلام؟ فهذا غاية الضلال نسأل الله العافية.

قوله: «**وإن كان هذا الرد لا يزيد الأمر إلا شدة**» يعني أن التصريح بهذا الكلام وذكره لا يزيد الأمر إلا شدةً بالنسبة لهم، وإلا فالذي يريد الحق يزيده هدىً وحذراً من الباطل، ومعلوم أن معرفة مثل هذا مفيد، حيث يتحرز الإنسان من الوقوع فيه؛ لأن الذي لا يعرف الباطل يوشك أن يقع فيه

---

(١) «حاشية الصاوي على تفسير الجلالين» (٣/ ٩).

إذ لكل فريق طواغيت، يريدون أن يتحاكموا إليهم، وقد أُمروا أن يكفروا بهم.

وهو لا يدري، ولاسيما إذا كانت الكتب منتشرة، وأصحابها يدّعون أن هذا هو الحق، وأنه السنة، فلا بد من بيان ذلك.

أما قوله: «**إذ لكل فريق طواغيت يريدون أن يتحاكموا إليهم**» الطاغوت: هو الذي يصد عن الحق، فكل ما صدَّ عن الحق هو طاغوت، كما قال الإمام مالك: «الطاغوت كل ما عبد من دون الله»[١]، وبعض العلماء يقيد هذا فيقول: «كل ما عبد من دون الله وهو راض»[٢]، يعني إذا كان عاقلاً، أما إذا كان شجراً أو قبراً أو ما أشبه ذلك؛ فلا يشترط فيه الرضا.

ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٣]، فلو عبد القبر صار وثناً، ولا يلزم من أن يكون صاحب القبر هو الطاغوت، ولكنَّ هذه العبادة التي جعلت للمخلوق أو للحجر أو لغير ذلك هي الطاغوت نفسه.

ولهذا كان الرسول ﷺ يسمي الأصنام طواغيت[٤]؛ لأنها تعبد، فالمعبود من دون الله يكون طاغوتاً.

وألحق بعض العلماء بهذا كل ما شغل عن عبادة الله وألهى عنها، وجاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه مَرَّ على قوم يلعبون الشطرنج، فقال: ما هذه الأوثان التي أنتم لها عاكفون؟[٥] وهذا لأنها تلهي عن ذكر الله وعن

---

(١) انظر: «تفسير السمعاني» (١/ ٤٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٤).
(٢) انظر معنى الطاغوت في: «لسان العرب» لابن منظور (٨/ ٤٤٤)، «التوضيح» لابن الملقن (٢٢/ ٢٣١)، «عمدة القاري» للعيني (٦/ ٨٣)، «الدرر السنية» (١/ ١٦١).
(٣) أخرجه أحمد (٧٣٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٥٨).

وما أشبه هؤلاء المتكلفين بقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]

الصلاة، والتشبيه بذلك قد يكون من باب الزجر.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ هذه الآية نزلت في المنافقين، وكلمة ﴿يَزْعُمُونَ﴾ تطلق في الغالب على الكذب، كما قال الله جل وعلا: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧]، أي كذبوا في هذا.

ثم قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾، فإذا دعاهم إلى الحق صدوا، والصدود يكون بأنفسهم وليس لغيرهم، إذ لوكان غيرهم لكان «صداً» أي يصدون عن الحق صداً، فيكون مصدراً متعدياً، أما المصدر اللازم الذي ذكر هنا فهو ﴿صُدُودًا﴾، وهؤلاء إذا قيل لهم: تعالوا إلى حكم الله ورسوله أعرضوا، وقالوا: إنما نريد التوقف بين الفريقين أي بين أهل الحق ومخالفيهم، ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ يعني أردنا في فعلنا هذا التوفيق بين الأدلة أو بين الفريقين المتنازعين، فنحن نريد الإحسان، ولا يمكن للإنسان أن يوفِّقَ بين الحق والباطل، ولكن قد يكون هذا بالتوهم والتصور، وإلا فالحق في جانب والباطل في جانب بلا شك، كما أن المؤمن في جانب والكافر في جانب، ولابد من هذا التمايز والتباين.

ولهذا لما ذكر الله جل وعلا المؤمنين والمهاجرين، وكذلك المؤوين الناصرين؛ أن بعضهم أولياء بعض، قال في بيان الجانب الآخر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ

فإن هؤلاء إذا دُعوا إلى ما أنزل الله من الكتاب وإلى الرسول ـ والدعاء إليه بعد وفاته هو الدعاء إلى سنته ـ؛ أعرضوا عن ذلك وهم يقولون: إنا قصدنا الإحسان علماً وعملاً بهذه الطريق التي سلكناها، والتوفيق بين الدلائل العقلية والنقلية.

ثم عامة هذه الشبهات التي يسمونها «دلائل» إنما تقلدوا أكثرها

كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: ٧٣]، فهذا أمرٌ خلق الله جل وعلا الخلق لأجله، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، يعني خلقهم مؤمناً وكافراً، فالمؤمن على نهج وعلى طريقة وعلى أمر من أمر الله، والكافر على خلاف ذلك، فلا يمكن الموافقة بينهما كما يزعمه المنافقون، أنهم يريدون الإحسان والتوفيق.

ثم ذكر وجه الأدلة أنهم يقولون: مضمون هذا القول حتى تجتمع «**الدلائل العقلية والنقلية**»، مع أنه في الواقع تفرقت أدلة الكتاب والسنة فلا تجتمع على هذا النهج، بل هي بعيدة جداً، ولكن هكذا يزعمون، غير أن لهم قوانين سنوها ووضعوها فقالوا: إذا جاء النص في الكتاب والسنة مخالفاً للعقل فلا يمكن أن نقبله، وهذا قانون عندهم؛ لأن العقل هو الأصل الذي دلنا على صدق الرسول، وعلى أنه جاء بالحق، فلا يمكن أن نهدر الأصل ونأخذ بالفرع.

ثم دعوى من يقول: إن العقل هو الأصل في هذا؛ هل هذا جاء فيه وحي؟! بل الأصل ما جاء إلى الرسول من الوحي الذي يجب أن نتبعه، ولهذا يقول جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وهذا عام في العقائد وفي العمليات وفي غيرها، فلا بد من تحكيم الرسول ﷺ، وتحكيمه هو تحكيم سنته، وما جاء به من الشرع الذي أوحاه الله إليه.

عن طواغيت من طواغيت المشركين أو الصابئين، أو بعض ورثتهم الذين أُمروا أن يكفروا بهم، مثل فلان وفلان، أو عن من قال كقولهم لتشابه قلوبهم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ولازم هذه المقالة: أن لا يكون الكتاب هدىً للناس، ولا بياناً ولا شفاء لما في الصدور ولا نوراً، ولا مردّاً عند التنازع، لأنا نعلم بالاضطرار أن ما يقوله هؤلاء المتكلفون، أن الحق الذي يجب اعتقاده لم يدل عليه الكتاب والسنة لا نصاً ولا ظاهراً، وإنما غاية المتحذلق، أن يستنتج هذا من قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وقوله: «**المتحذلق**» هو المتكلف، والتحذلق ترك الظاهر، بل ترك ما هو الأولى، وأخذ الشيء البعيد، لأجل موافقته لهواه، أو الشيء الذي يقصده، أو غير ذلك. والإشارة هنا للفخر الرازي الذي استدل بهذه الآية على نفي الصفات[1]، وهذا من أعجب ما يكون، فكيف يكون قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ دالاً على التعطيل وعلى النفي؟! بل هو نص على أن الله لا شبيه له ولا نظير.

ووجه استدلاله أنه إذا قلت: إن لله يداً؛ فهذا تشبيه؛ لأن المخلوق له يد، وإذا قلت: إنه استوى، فهذا أيضاً تشبيه؛ لأن الاستواء يكون للأجسام.

---

(١) انظر: «أساس التقديس» (ص٣٠).

وبالاضطرار يعلم كل عاقل أن من دل الخلق على أن الله ليس على العرش، ولا فوق السماوات، ونحو ذلك بقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ....

وإذا قلت: إن لله سمعاً وبصراً، فهذا تشبيه، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ نفي لذلك، وهذا كله باطل، وكما يقول المؤلف: إنه تحذلق، يعني أنه تكلف زائد.

قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، وجه استدلال الفخر الرازي بهذه الآية على مذهبه، أننا إذا جعلنا له يداً ورجلاً كما قال الرسول ﷺ: **«لا يزال يلقى في النار وهي تقول: هل من مزيد. حتى يضع الجبار عليها رجله»**. وفي رواية: **«حتى يضع فيها رجله»** وفي رواية **«قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط، قط»**[1] فيقول: إن هذا تشبيه؛ لأن المخلوق له رجل، وله يد، وله سمع، وله بصر، والله جل وعلا يقول: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، يعني: شبيهاً ونظيراً.

فالواقع أن هذا من أبعد ما يكون، وهو حق أريد به باطل، فقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ يعني ليس له من يساميه ويماثله، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، فهذا حق، أما أن نجعل هذا دالاً على نفي الصفات التي اتصف بها؛ فهذا تناقض، وذلك أن الله جل وعلا يقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ويقول جل وعلا: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فلا يصح أن نقول: إن هذا يدل على نفي ذلك! هل يكون كلام الله متناقضاً؟ تعالى الله وتقدس.

فالتكلف وتمحل الباطل يجعل الإنسان بعيداً عن المنطق الذي يمكن أن يكون له شيء من الاستدلال.

---

(١) تقدم تخريجه.

لقد أبعد النجعة، وهو إما مُلْغِز، أو مُدَلس، لم يخاطبهم بلسان عربي مبين.

ولازم هذه المقالة أن يكون تركُ الناس بلا رسالة خيراً لهم في أصل دينهم؛ لأن مَرَدَّهم قبل الرسالة وبعدها واحد، وإنما الرسالة زادتهم عمىً وضلالاً.

يا سبحان الله! كيف لم يقل الرسول ﷺ يوماً من الدهر، ولا أحد من سلف الأمة: هذه الآيات والأحاديث لا تعتقدوا ما دلت عليه، لكن اعتقدوا الذي تقتضيه مقاييسكم، أو اعتقدوا كذا وكذا؛ فإنه الحق، وما خالف ظاهره فلا تعتقدوا ظاهره، وانظروا فيها، فما وافق قياس عقولكم فاعتقدوه، وما لا فتوقفوا فيه أو انفوه.

يقول: «**لقد أبعد النجعة**» أصل النجعة: الورود إلى الماء أو الذهاب إلى المرعى في وقت معين، وإذا كان أبعد هلك ومن معه، وهذا يقال في لغة العرب، وصار كالمثل.

وقوله: «**وهو إما مُلْغِز**» الألغاز هي الحجاوي التي يضعها الناس لامتحان الفكر والذكاء.

وقوله: «**مدلس**» التدليس هو أن يظهر الحق بمظهر الباطل، فهو يظهر الشيء ويريد خلافه.

وقوله: «**لم يخاطبهم بلسان عربي**» يعني أن كل هذا خلافُ ما جاء به الرسول ﷺ وما قاله الله تعالى.

قوله: «**أن يكون تركُ الناس بلا رسالة خيراً لهم في أصل دينهم**» يعني أن هذا لازم مقالتهم، وهذا تكرار لما سبق ذكره.

قوله: «**كيف لم يقل الرسول ﷺ يوماً من الدهر ولا أحد من سلف الأمة...**» يعني ليس معهم أدلة، وإنما هي دعاوى يدّعونها، وهذه الدعاوى مبنيةٌ على

ثم الرسول ﷺ قد أخبر أن أمته ستفترق ثلاثاً وسبعين فرقة[١]، فقد علم ما سيكون، ....

ضلالاتٍ توهموها سموها عقليات، وهي في الواقع ضلالات، وبهذه التوهمات ردوا كتاب الله جل وعلا، وهي تناقضه تماماً.

ومع ذلك إلزام العلماء لهم بما ذكر المؤلف وأنهم قد جانبوا الحق ووقعوا في الباطل، وهؤلاء ليسوا هم العلماء، فليست الأمة هكذا، هذا قسم منهم، وربما يكونون شرذمة، فالحق لا يزول أبداً من هذه الأمة؛ لأن الرسول أخبر أنه لابد أن تبقى أمةٌ قائمةٌ على الحق لا يضرها من خذلها ولا من خالفها إلى قيام الساعة[٢].

ولكن إذا كان للقضاة والمدرسين أثر في هذا، فكانوا بهذه الصفة وكثير من الناس ينظر إليهم، فيضل بضلالهم كما قال الرسول ﷺ: «**إن العلم يفقد بموت العلماء، فإذا ماتوا اتخذ الناس رؤساء جهال، فأفتوا بخلاف الحق، فضلوا وأضلوا**»[٣].

---

(١) يروى من حديث جماعة من الصحابة:
فأخرجه أحمد (٨٣٩٦)، وأبو داود (٤٥٩٦)، وابن ماجه (٣٩٩١)، والترمذي (٢٨٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (١٢٢٠٨)، وابن ماجه (٣٩٩٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وأخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. وأخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢)، من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه. وأخرجه الترمذي (٢٨٣٢)،من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) يُروى من حديث جماعة من الصحابة:
فأخرجه مسلم (١٥٦، ١٩٢٣)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وأخرجه أيضاً (١٩٢٢)، من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنهما. وأخرجه أيضاً (١٩٢٤)، من حديث عقبة ابن عامر رضي الله عنه. وأخرجه أيضاً (١٩٢٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ثم قال: «**إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله**»[١]، ورُوي عنه ﷺ أنه قال في صفة الفرقة الناجية: «**هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[٢].

فهلا قال: من تمسك بظاهر القرآن في باب الاعتقاد فهو ضال؟ وإنما الهدى رجوعكم إلى مقاييس عقولكم، وما يحدثه المتكلمون منكم بعد القرون الثلاثة، وإن كان قد نبغ أصلها في أواخر عصر التابعين.

وهذا أمرٌ أخبر به الرسول ﷺ، ولا بد من وقوعه وقد وقع، وسيقع أيضاً أكثر من هذا فيما بعد؛ لأنه كلما يأتي وقت فالذي بعده أشر منه نسأل الله العافية، كما في حديث أنس في الصحيحين لما شكا الناس إليه فعل الحجاج قال: «اصبروا، فإنه لا يأتي يوم إلا وما بعده شر منه، كما قال نبيكم ﷺ»[٣]. وهذا أيضاً لا يناقض ما أخبر به ﷺ أنه تبقى طائفة من هذه الأمة على الحق؛ لأن الحق لابد أن يبقى حجةً إلى قيام الساعة.

هذا الحديث: «**إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله**» وفي رواية أخرى: «**كتاب الله وسنتي**»[٤]، وأما رواية: «**عترتي**»[٥] فقدح فيها من قدح من العلماء.

وقوله في الفرقة الناجية: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»، هذا رواه الترمذي وقال: إنه حديث مفسر، ورواه غيره، لكن أول الحديث بدون هذه الزيادة مشهور معروف.

قوله: «**وإن كان قد نبغ أصلها في أواخر عصر التابعين**» يعني بذلك أول

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٢١٨).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه البخاري (٧٠٦٨).
(٤) أخرجها مالك بلاغاً (٣٣٣٨).
(٥) أخرجها الترمذي (٣٧٨٨)، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

ثم أصل هذه المقالة ـ مقالة التعطيل للصفات ـ إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين، وضُلّال الصابئين، فإن أول من حُفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها، فنُسبت مقالة الجهمية إليه، وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم[(١)].

من قال بتعطيل الصفات وهو الجعد بن درهم، كما سيأتي.

قوله: «**لبيد بن الأعصم**» هو الساحر الذي سحر الرسول ﷺ، فهو ساحر خبيث، وهذا السند ذكره الإمام أحمد في «الرد على الزنادقة»، وذكره البخاري في «خلق أفعال العباد».

والجعد بن درهم هذا هو معلم مروان بن محمد، الذي يسمى بـ«الحمار»، ويقال: إن هذا سبب ذهاب دولة بني أمية، والله أعلم، وإن كان هذا فهو أمرٌ قدَّره الله جل وعلا.

وهذا الرجل ـ الجعد بن درهم ـ لما اشتهر عنه أنه كان يقول: إن الله لا يحب ولا يُحب؛ لأن الحب يدل على النقص، فهو الميل إلى الملائم، وكذلك الذي يُحب للميل إليه، والحاجة إليه، ولو قدر أن هذا يُسَلَّم له؛ فنقول: إن هذا بالنسبة للمخلوق، فالحب للمخلوق أما محبة الله جل وعلا، فهي تخصه ولا يشاركه فيها المخلوق. وكذلك قال: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً؛ بناء على نفي الحب، ثم طرد المسألة.

وكان في ذلك الوقت إذا ظهر زنديق من الزنادقة يتتبعه الأمراء وقادة الجيوش، فلما سمع خالد بن عبد الله القسري ـ الذي يُسمى قصاب الزنادقة لأنه قتل عدداً منهم ـ مقالة الجعد هذه طلبه حتى أدركه، ووافق ذلك يوم

---

(١) انظر: «تاريخ دمشق» (٧٢/ ٩٩).

. . . .

عيد، وجرت العادة أن الأمير هو الذي يخطب ويصلي بالناس، فحضرت صلاة عيد الأضحى، فجاء به إلى المصلى مقيداً ووضعه، وقام يصلي، ثم خطب الناس، وفي نهاية الخطبة قال: أيها المسلمون، ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم؛ لأنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً! تعالى الله عن قول الجعد بن درهم علواً كبيراً[١]، ثم قتله في المصلى، فشكر له العلماء وحمدوا صنيعه هذا؛ لأن هذا زنديق يغير عقائد الناس

ولكن تتلمذ على الجعد الجهم بن صفوان، ونُسبت المقالات إلى هذا، وهذا من الشياطين، وأدركه أحد القادة الذين يقودون الجيوش وهو سلم بن أحوز في الحروب التي قامت بينه وبين الذين قاموا على الدولة في ذلك الوقت، فأخذه أسيراً فجاءه قوم يتوسطون له يقولون: تطلقه، فحاولوا فأبى. وفي النهاية قال: والله لوكان هذا الرجل في بطني لشققت عنه حتى أقتله؛ لأني سمعت منه كلاماً لا يمكن أن أتركه. أي: كلام زندقة وكفر، فكان عندهم غَيْرة وقوة في الحق، فقتله[٢]. ولكن بعدما انتشر مذهبه وصار له تلامذة، وله من يقبل منه.

وعلى كل حال؛ فالواقع أن الذي نشر هذه الأمور ليس هذا الرجل ولا الجعد ولا الجهم؛ لأن المتتبع للتاريخ والوقائع يتبين له أن هناك مؤسسات

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ١٥٨)، و«خلق أفعال العباد» (ص٢٩)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (١٣)، و«النقض» (١/ ٥٨١)، والخلال في «السنة» (١٦٩٠).

(٢) انظر: «خلق أفعال العباد» (ص٤٠)، «السنة» لعبد الله بن أحمد (١٨٩)، «شرح مذاهب أهل السنة» لابن شاهين (٣٠)، «الإبانة» لابن بطة (٦/ ٩٤)، «الاعتقاد» للالكائي (٣/ ٤٢٢)، «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٣٤٥).

وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ[١].

وكان الجعد هذا ـ فيما قيل ـ من أهل حرَّان، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين النمرود والكنعانيين الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم. والنمرود هو ملك الصابئة

اتفق فيها اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من أعداء الإسلام على إفساد العقيدة؛ لأنهم جربوا الأمر، وحاولوا أن يثنوا المسلمين عن القوة، وعن الفتوحات وعن نشر الإسلام، فما استطاعوا، فقالوا: الحيلة أننا نفسد عقائدهم، وإذا كان هناك إنسان عنده جرأة فإنهم يظهرونه، وينسب القول له، ولهذا نُسب القول في نفي القدر إلى معبد الجهني، فقالوا: أول من تكلم به معبد الجهني[٢]، وبعض العلماء يقول: بل أول من تكلم به رجل من المجوس يقال له: سيسويه[٣]، ومنهم من يقول: بل أول من قاله رجل من النصارى يقال له: سوسن[٤]، فكل هذا يدل على أن هناك أموراً غير الأفراد، ووراء الأفراد مَن وراءهم.

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث وجمع للأدلة على ذلك، وقد ذكر هذا ابن حزم في «الفصل»، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة» وفي غيره أشار إلى شيء من ذلك.

قوله: «**الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم**» صنف الفخر الرازي

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (٣٢٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٩).
(٢) كما أخرجه مسلم (٨).
(٣) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٥٣٦)، «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٢٩٨).
(٤) انظر: «الشريعة» للآجري (ص٢٣٢)، «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٧٥٠)، «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٢٩٨).

الكنعانيين المشركين، كما أن كسرى ملك الفرس والمجوس، وفرعون ملك القبط الكفار، والنجاشي ملك الحبشة النصارى، فهو اسم جنس لا اسم علم.

كانت الصابئة ـ إلا قليلاً منهم ـ إذ ذاك على الشرك، وعلماؤهم الفلاسفة، وإن كان الصابئ قد لا يكون مشركاً، بل مؤمناً بالله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: ٦٩].

لكن كثيرًا منهم، أو أكثرهم كانوا كفاراً أو مشركين، كما أن كثيراً من اليهود والنصارى بدلوا وحرفوا وصاروا كفاراً أو مشركين،

كتاباً سماه «السر المكتوم في مخاطبة الشمس والنجوم»، وذكر السحر فيه في عبادة النجوم والشمس، وهي عبادة الكنعانيين والصائبة الذين بعث فيهم إبراهيم عليه السلام وناظرهم في ذلك كما هو معلوم، وحتى إلى اليوم لهم بقايا.

قوله: «**وإن كان الصابئ قد لا يكون مشركاً، بل مؤمناً بالله واليوم الآخر**» مراد المؤلف أن من آمن بالله حينما يبعث إليه رسول فإنه يبقى على هذا الاسم «النصارى»، فالنصراني يؤمن بعيسى وبمن قبله من الرسل، فيكون من المؤمنين، وليس معنى ذلك أنه على مذهب الباطل يكون من المؤمنين، يعني يُذكَر بهذا الاسم وهو مؤمن بالذين يبعثون إليهم، والذين سبقوا.

قوله: «**كما أن كثيراً من اليهود والنصارى بدلوا وحرفوا..**» يعني صاروا كفاراً فيما بعد؛ لأنهم كفروا بالرسول الذي بعث بعد موسى وهو عيسى عليه السلام، وبعد موسى أنبياء كثيرون، ولكنهم يأتون لتجديد الدين، وموسى هو الذي

فأولئك الصابؤون ـ الذين كانوا إذ ذاك ـ كانوا كفاراً مشركين، وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل.

نزل عليه الشرع، ونزلت عليه التوراة، فيحتاج إلى تجديد، كما قال الرسول ﷺ: «**كانت الأنبياء في بني إسرائيل تجدد لهم دينهم وليس بعدي نبي**»[(١)].

فالرسول ليس بعده أحد يجدد هذا الدين، ولكن تبقى هذه الطائفة المنصورة، قائمة، فلهذا جاء في الحديث: «**العلماء في هذه الأمة بمنزلة الأنبياء في بني إسرائيل**»[(٢)]، فلما بعث عيسى عليه السلام جاء بالتخفيف، ونسخ بعض الآصار التي كانت عليهم والأغلال ورفعها، فكفر به اليهود، وآمن به قلة، بل حاولوا قتله، ورموه بالفجور وبما ذكره الله عنهم، وغلا فيه من غلا من النصارى، فزعموا أنه الله، أو ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم.

والنصراني نسبة إلى قولهم: نحن أنصار الله ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، أو إلى «الناصرية» بلدة اجتمعوا فيها فنسبوا إليها.

قوله: «**الهياكل**» وهي البيوت التي يضعون فيها الصور على صورة الكوكب، ثم يخاطبونه ويدعونه، فتنزل عليهم الشياطين، ويسمونها روحانيات الكواكب وتخاطبهم، وهذه شياطين لإضلالهم، فتنزل وتخاطبهم، ويسمون الجني والشيطان: «روحاني»؛ لأنه قد يغيب عنهم، وهذا كثير، ويوجد حتى في هذه الأمة، فيأتي الشيطان ليخاطب الإنسان ويضله ويقول: أنا الشيخ الفلاني! أو الولي الفلاني! فيطيعه ويزيده ضلالاً، نسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (١٨٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٤٥٩): «قال شيخنا ـ يعني ابن حجر ـ ومن قبله الدميري، والزركشي: إنه لا أصل له، زاد بعضهم: ولا يعرف في كتاب معتبر».

ومذهب النفاة من هؤلاء في الرب: أنه ليس له إلا صفات سلبية، أو إضافية، أو مركبة منهما. وهم الذين بعث إبراهيم الخليل إليهم، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة.

وكذلك أبو نصر الفارابي دخل حران، وأخذ عن فلاسفة الصابئين تمام فلسفته، وأخذها الجهم أيضاً ـ فيما ذكره الإمام أحمد وغيره ـ لما ناظر السمنية بعض فلاسفة الهند، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات.

فهذه أسانيد جهم ترجع إلى اليهود والصابئين والمشركين، والفلاسفة الضالين؛ إما من الصابئين وإما من المشركين.

ثم لَمَّا عُرّبت الكتب الرومية في حدود المئة الثانية، زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان في قلوب الضلال ابتداء، من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم.

قوله: «**صفات سلبية**» السلبية هي صفات النفي. وأما «**الإضافية**»، فهي التي لا تدل على شيء معين، مثل: فوق وتحت، وما أشبه ذلك. وأما «**المركبة**»أي مركبة من السلب ومن الإضافية، وكل هذا من الباطل.

ثم ذكر المؤلف أن الجهم ذهب إلى قوم يقال لهم: «**السمنية**»، وهم الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوسات، فقالوا له: أخبرنا عن ربك هل شاهدته؟ أو شَمِمْتَه؟ أو أحسست به؟ فقال: لا. قالوا: إذاً لا وجود له، فبقي أربعين يوماً لا يصلي؛ لأنه ما يدري من يعبد[1]، فالله أعلم.

قوله: «**ثم لمَا عُرّبت الكتب الرومية في حدود المئة الثانية**» عربت في وقت المأمون، وهذه الكتب جُلبت من اليونان، وكانت في خزائن، فعُرِّبت وفتح

---

(١) انظر: «الرد على الجهمية» للإمام أحمد (ص٩٣)، و«الاعتقاد» للالكائي (٦٣٠).

. . . .

بيت كبير سمي «بيت الحكمة»، واستجلب المعربين فعربوها، ونقلوها من لغة اليونان إلى اللغة العربية، فزادت الأمر بلاءً، ولهذا كان شيخ الإسلام يقول: «ما أظن أن الله يغفل عن المأمون، ولا بد أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الأمة، من إدخال هذه العلوم الفلسفية بين أهلها»[١].

وذكر بعضهم أنه لما أرسل المأمون إلى ملك الروم يطلب منه هذه الكتب استشار من عنده، فقالوا له: أرسلها إليهم، هذه الكتب لا تكون عند أمة فتصلح، من كانت عنده أفسدت عقله، وأفسدت دينه، فأرسلها[٢].

فزاد البلاء؛ لأنه صار الذين حول الخليفة المأمون هم من أهل البدع وأهل هذه المقالة، فزينوا له إرغام الناس على نفي الصفات، والقول بأن القرآن مخلوق، فقتلوا خلقاً من الناس، والعلماء صاروا ما بين هارب ومقر بالظاهر حتى يسلم، فالله جل وعلا يقول: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وكانوا يأخذون بهذا، ومنهم من صبر وقتل، ولم يصبر أمام التعذيب والضرب والسجن إلا الإمام أحمد، دخل مع عثمان، فقتل وبقي هو، وكانوا يريدون قتله، ولكن أراد الله جل وعلا نصر الحق به، فبقي ثابتاً في هذا الأمر حتى نصره الله جل وعلا وأظهره، أما بقية الناس، فكانوا يختبرون الجيش، فمن يقول: إن القرآن غير مخلوق، إما أنه يسرح أو يمنع عنه العطاء من بيت المال، وإذا أسر لا يفك، ويترك عند الكفار، فصار الأمر شديداً، حتى ذهب المأمون وذهب المعتصم، وكذلك الواثق؛ هؤلاء الخلفاء الثلاثة كلهم امتحنوا الناس بهذه الطريقة السيئة.

---

(١) في «الغيث المسجم شرح لامية العجم» للصفدي (١/٤٦) قال: «حدثني من أثق به، أن الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله كان يقول»، فذكره.

(٢) المصدر السابق.

ولما كان في حدود المئة الثانية انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته، وكلام الأئمة مثل: مالك، وسفيان بن عيينة، وابن المبارك، وأبي يوسف، والشافعي، وأحمد وإسحاق، والفضيل بن عياض، وبشر الحافي وغيرهم، في هؤلاء كثير في ذمهم وتضليلهم.

وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس مثل أكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في كتاب «التأويلات»، ....

ثم جاء المتوكل، فرفع المحنة عن الناس، ولكن بقيت هذه المقالات، وهذه الفتنة دبرها المعتزلة؛ لأنهم صار لهم قوة وسلطة، فصار بأيديهم القضاة.

وعلى كل حال؛ فالأمر في هذا لا يخفى لمن أراد الحق، فكيف نترك نصوص كتاب ربنا جل وعلا الظاهرة وكلام رسوله ﷺ لقول فلان وفلان؟ أو لأن الفلاسفة قالوا كذا!!

قوله: «**بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته**» وكذلك أحمد بن أبي دؤاد، فهم القضاة في ذلك الوقت، وهم الذين تعلم عليهم المأمون، وكان مغرىً بالعلم والمناظرات، فكانوا يناظرون بعض العلماء، والذي لا يقر بأن القرآن مخلوق يقولون للخليفة: اقتلهم وإثمهم علينا، ليس عليك شيء، وبعضهم يقسم له يقول له: إنك مأجور في قتلهم.

قوله: «**ذكرها أبو بكر بن فورك**» يعني في كتابه الذي سماه «مشكل الحديث»[1]، وهو مطبوع عدة طبعات، ومشكل الحديث، يعني في الصفات، فيذكر الصفة التي تكون عنده مشكلة، ثم يتأولها، مع أن تأويله أقل من تأويل المتأخرين بكثير.

---

(١) «مشكل الحديث» أو «تأويل الأخبار المتشابهة» لأبي بكر محمد بن الحسن ابن فورك الأصبهاني الأشعري (٤٠٦هـ).

وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي في كتابه الذي سماه «تأسيس التقديس» ويوجد كثير منها في كلام خلق كثير غير هؤلاء مثل أبي علي الجبّائي، وعبد الجبار بن أحمد الهمذاني، وأبي الحسين البصري، وأبي الوفاء بن عقيل، وأبي حامد الغزالي وغيرهم هي بعينها التأويلات التي ذكرها بشر المريسي التي ذكرها في كتابه، وإن كان قد يوجد في كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضاً،

وقد رد عليه القاضي أبو يعلى الحنبلي في كتابه «إبطال التأويلات»، وكذلك رد عليه غيره، وأما كتاب الرازي «تأسيس التقديس»، فهو الذي رد عليه شيخ الإسلام في نقضه التأسيس الذي طبع أكثره.

قوله: «**مثل أبي علي الجبّائي**» وهو زوج أم الأشعري؛ لأن الأشعري توفي والده وهو صغير، وتزوج أمَّه أبو علي الجبائي، وكان من رؤوس المعتزلة، فأصبح الأشعري يتعلم الاعتزال عليه أربعين سنة، فأتقن مذهب المعتزلة، ثم هداه الله جل وعلا وصار حرباً عليهم، فانتقل من مذهب الاعتزال إلى مذهب أهل السنة.

أما «**أبو الوفا بن عقيل**»، فقد رجع عن هذا المذهب، وتبرأ منه، وكتب في رجوعه أنه يتبرأ من ذلك[1]. وأما البقية «**كالغزالي**»؛ فالتبس عليه الأمر، وتنقل تنقلات صار في النهاية كما سبق[2].

فهؤلاء هم الذين ذكرهم لهم هذه الكتب، مثل: ابن فورك، وكذلك الذين بعده، أما صاحب «تأسيس التقديس»، فله التفسير الكبير، وقد يذكر بعض الأشياء على وجهها، ولكن الغالب عليه التأويل.

---

(١) انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (١/ ٣١٦).
(٢) انظر: «طبقات الشافعية» لابن الصلاح (١/ ٢٤٩)، و«تاريخ الإسلام» (١٢/ ٦٢)، و«سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٣٢٢)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٦/ ٢١٣).

ولهم كلام حسن في أشياء.

فإنما بيَّنت أن عين تأويلاتهم هي عين تأويلات المريسي، ويدل على ذلك كتاب الرد الذي صنفه عثمان بن سعيد الدارمي أحد الأئمة المشاهير في زمان البخاري، صنف كتاباً سماه: «رد عثمان بن سعيد على الكاذب العنيد فيما افترى على الله في التوحيد»، حكى فيه من التأويلات بأعيانها عن بشر المريسي بكلام يقتضي أن المريسي أقعد بها، وأعلم بالمنقول والمعقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت إليهم من جهته.

قوله: **«ولهم كلام حسن في أشياء»** يعني: في غير الصفات.

قوله: **«فإنما بيّنت أن عين تأويلاتهم هي عين تأويلات المريسي»** يعني بشر المريسي، وكذلك رده على ابن الثلجي في نفس الموضوع، وله كتابان: «رد على بشر المريسي»، و«رد على الجهمية»، الذي هو رده على ابن الثلجي، والتأويلات التي ذكرها بشر المريسي أحسن من التأويلات التي يقولها متأخرو الأشاعرة، مع التأويل على اصطلاح هؤلاء فيه حسن.

قوله: **«أقعد بها»**، يعني: أنه كلامه فيها أوضح وأبين وأقرب إلى أنه يلتبس على بعض الناس، مع أنه كل باطل، ولكن الذي يقول في قول الرسول ﷺ: **«لا يزال يلقى فيها حتى يضع فيها الجبار رجله جل وعلا، فينزوي بعضها إلى بعض»**[1] أن رجله، يعني: جماعة من الناس! هكذا يؤولونها، وهذا من أبعد الأشياء. وبعضهم يقول: يوضع فيها مخلوق يسمى: رجله، مثل ما يستساغ أصلاً، أما بشر المريسي، فما يقول مثل هذا.

قوله: **«وأعلم بالمنقول والمعقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت إليهم من**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨)، من حديث أنس ﷺ.

ثم رد عثمان بن سعيد بكلام إذا طالعه العاقل الذكي علم حقيقة ما كان عليه السلف، وتبين له ظهور الحجة لطريقهم، وضعف حجة من خالفهم. ثم إذا رأى الأئمة، أئمة الهدى قد أجمعوا على ذم المريسية وأكثرهم كفّروهم أو ضللوهم.

وعلم أن هذا القول الساري في هؤلاء المتأخرين هو مذهب المريسية تبيَّن الهدى لمن يريد الله هدايته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والفتوى لا تحتمل البسط في هذا الباب، وإنما نشير إشارة إلى مبادئ الأمور، والعاقل يسير وينظر. وكلام السلف في هذا الباب موجود في كتب كثيرة لا يمكن أن نذكر هنا إلا قليلاً منه، ....

جهته» يعني أن تأويلات المتأخرين أخذوها من هؤلاء.

قوله: «**ثم رد عثمان بن سعيد بكلام..**» هذا الكتاب ينصح الطلاب أنهم يقرؤونه وهو «رد عثمان بن سعيد»؛ لأنه يبطل مذاهب المتأوِّلة، ويبين مذهب السلف، وإن كان متقدماً. وعثمان بن سعيد كان على زمن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان أحمد يثني عليه، ويقول: «علماء شباب أتونا من الشرق، مثل البخاري وعثمان بن سعيد الدارمي».

ومن الغرائب التي تذكر: أن كتاب عثمان بن سعيد مع كتاب «السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد؛ طبع في بلد من بلاد المسلمين قبل قرابة خمسين سنة وقامت ثائرة من العلماء يطلبون محاكمة طابع هذا الكتاب؛ لأنه كتاب تشبيه، مع أنه لا يقول إلا بما قاله السلف ويرد الباطل؛ وذلك لأن مذهب الأشاعرة كان هو السائد في تلك البلاد.

قوله: «**والفتوى لا تحتمل البسط..**» وهذه كلها مقدمات لا بد منها، وهي نافعةٌ جداً، وبها يمر من عنده عقل ومعرفة، ويتبين له مذهب السلف والخلف، غير أنه ذكر المقدمات وذكر الأمثلة، وهذه تكفي العاقل في

مثل: كتاب «السنن» للالكائي، و«الإبانة» لابن بطة.

و«السنة» لأبي ذر الهروي، و«الأصول» لأبي عمر الطلمنكي، وكلام أبي عمر بن عبد البر، والأسماء والصفات للبيهقي وقبل ذلك «السنة» للطبراني ولأبي الشيخ الأصبهاني ولأبي عبد الله بن منده، ولأبي أحمد العسال الأصبهاني، وقبل ذلك السنة للخلال والتوحيد لابن خزيمة وكلام أبي العباس ابن سريج والرد على الجهمية لجماعة، وقبل ذلك «السنة» لعبد الله بن أحمد، والسنة لأبي بكر بن الأثرم، والسنة لحنبل وللمروزي، ولأبي داود السجستاني، ولابن أبي شيبة، والسنة لأبي بكر بن أبي عاصم وكتاب الرد على الجهمية لأبي جعفر عبد الله بن محمد الجعفي شيخ البخاري، وكتاب خلق أفعال العباد لأبي عبد الله البخاري، وكتاب الرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمي، ....

الاقتناع بأن مذهب الحق، وهو ما جاء في الكتاب والسنة، وأن مذهب هؤلاء هو الباطل؛ لأنه مجانب للكتاب والسنة، فمذهبهم في جانب وكتاب الله وسنة رسوله في جانب آخر.

وقصده بـ«**السنن**» هو كتاب «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي وهو مطبوع، و«الإبانة» لابن بطة وجد كثير منها، وبعضها لم يوجد إلى الآن، والموجود منه مطبوع.

وقوله: «**والسنة لأبي ذر الهروي، والأصول لأبي عمر الطلمنكي**» هذان مفقودان، وأكثر هذه الكتب التي ذكرها مفقودة، ولا وجود لها اليوم في أيدي الناس، ويظهر أن أهل البدع تسلطوا عليها وأعدموها؛ لأنها تبطل مذهبهم، وهذه العادة في الناس؛ لأنهم يعتقدون أن هذا باطل يجب أن يقضى عليه؛ لأنه يبين عوار مذهبهم بل يرد عليه، وهم يعتقدون أن مذهبهم حق غالباً، ولا يلزم أن كلهم هكذا.

وكلام عبد العزيز المكي صاحب «الحيدة» في الرد على الجهمية، وكلام نعيم بن حماد الخزاعي.

قوله: «**الحيدة في الرد على الجهمية**» الحيدة عبارة عن مناظرات جرت بين عبد العزيز المكي وبشر المريسي بحضرة المأمون، ولها قصة عجيبة، وهي مناظرة غريبة عجيبة، ينبغي الاطلاع عليها، ففيها عبر وعلم يهتدي به، وهي مطبوعة عدة طبعات، وقد أنكرها بعض الناس مثل الذهبي، فقال لما ذكرها: «لم يصح إسناد كتاب الحيدة إليه فكأنه وضع عليه»[(١)].

وقال: «هو ـ أي محمد بن الحسن الدعاء ـ الذي انفرد برواية كتاب الحيدة.. ويغلب على ظني أنه هو الذي وضع كتاب الحيدة، فإني لأستبعد وقوعها جداً»[(٢)].

وكل هذا غير صحيح؛ لأن الكتب ليس العمدة فيها بالسند، بل إذا اشتهرت بين العلماء تكفي شهرتها عن سندها، وهذا الكتاب نقل عنه العلماء ونسبوه إلى عبد العزيز الكناني رحمه الله، وشيخ الإسلام جزم بأنه له، وقد نقلها في كتابه «درء التعارض»[(٣)]، وأظن لو أن الإنسان تتبع نقوله فيها لاستخرج المناظرة شبه كاملة من «درء التعارض»، وفي كلها يقول: «قال عبد العزيز الكناني في الحيدة».

وتبع الذهبي في إنكاره لها الشيخ الألباني رحمه الله[(٤)]، فقال: إنها لا تصح لهذه العلل. ثم لو قدر أنها ما صحت أليس الذي فيها حقاً؟ كلام بشر هذا نفسه يكفي في بعده عن الحق ومجانبته لكتاب الله تعالى.

---

(١) «ميزان الاعتدال» (٢/ ٦٣٩).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٥١٧ ـ ٥١٨)، وانظر توجيه الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» (٧/ ٧٢).
(٣) انظر: «درء التعارض» (٢/ ٢٤٥)، (٦/ ١١٥).
(٤) «شرح الطحاوية» (ص١٧٢).

وكلام الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ويحيى بن يحيى النيسابوري وأمثالهم، وقبل هؤلاء عبد الله بن المبارك وأمثاله، وأشياء كثيرة.

وعندنا من الدلائل السمعية والعقلية ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، وأنا أعلم أن المتكلمين لهم شبهات موجودة، لكن لا يمكن ذكرها في الفتوى، فمن نظر فيها وأراد إبانة ما ذكروه من الشبه؛ فإنه يسير.

قوله: «**وأشياء كثيرة**» وأكثر الكتب التي ذكرها مفقود، والموجود منها قليل، مثل: «الصفات» للبيهقي، و«السنة» لأبي عبد الله بن الإمام أحمد، و«السنة» لابن أبي عاصم، و«الرد» لعثمان بن سعيد، و«خلق أفعال العباد» للبخاري.

أما البقية؛ فهي مفقودة ولا توجد، وقد تكون موجودة في خزائن الكتب التي لا يطلع عليها، وهذه في طريقها إلى الذهاب إن لم تتدارك؛ لأنه قد مضى عليها مئات السنين، إلا إذا كانت استنسخت، وهذا قد يكون قليلاً.

قوله: «**الدلائل السمعية**» وهي التي تؤخذ في الكتاب والسنة، وكذلك الدلائل «**العقلية**» لرد هذه العقائد، فهي موجودة عندنا، ولكن لا يتسع هذا الكتاب لذكرها، فمن أرادها فليسأل، وهكذا كان، فإذا سئل أجاب.

وقوله: «**فإنه يسير**» يعني يسير عليه وقد يكون عند غيره غير يسير.

وقد أجاب عن شبه كثيرة، ولاسيما في كتابه «درء التعارض»، فإنه أبطل أكثر شبههم، ثم تبعه في «نقض التأسيس»، وقبله في كتابه «جواب الاعتراضات على الفتوى المصرية» وهذا كتاب كبير ولكنه معدوم، فلا ندري أين هو، قد كثر البحث عنه فلم يوجد، ووجد منه جزء قليل جداً،

وإذا كان أصل هذه المقالة ـ مقالة التعطيل والتأويل ـ مأخوذاً عن تلامذة المشركين والصابئين واليهود، فكيف تطيب نفس مؤمن، بل نفس عاقل أن يأخذ سبل هؤلاء المغضوب عليهم والضالين، ويدع سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وطبع في ما يقارب مئة وخمسين صفحة، وهو كما يقول ابن عبد الهادي: في ستة مجلدات[1]، وستة المجلدات إذا كانت مخطوطة فغالباً تكون اثني عشر مجلداً إذا طبعت.

وكذلك له غيرها، مثل: الرد على الفلاسفة في «الصفدية»، وكذلك ذِكْر القواعد التي تبطل كلام المتكلمين في رسالته «التدمرية»، فهي قواعد كلية فيها إثبات الحق وإبطال الباطل، على التقديرات التي يمكن أن يقدرها، وغير ذلك من كتبه، وقد جمعت رسائله ـ كما هو معروف ـ في «الفتاوى» التي بلغت خمسة وثلاثين مجلداً.



(١) «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص٢٧).

فصل

ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو بما وصفه به رسول الله ﷺ، وبما وصفه به السابقون الأولون؛ لا يتجاوز القرآن والحديث.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: «لا يُوصف الله إلا بما وَصَفَ به نفسه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث».

قوله: «**ثم القول الشامل في جميع هذا الباب**» يعني: القول الذي فيه العموم والإجمال من غير التفصيل، وهو من القواعد أيضاً «**أن يوصف الله بما وصف به نفسه**» في كتابه «**أو بما وصفه به رسوله ﷺ**».

وقوله: «**وبما وصفه به السابقون الأولون**» يعني الصحابة والتابعين وغيرهم من العلماء، فهم لا يخرجون عن الكتاب والسنة في ذلك.

ومقصوده: أنهم اتفقوا على ذلك، وقالوا به واتبعوه، فهذه الطريقة التي يجب أن تُتبع، أما أن يأتي الصحابة بوصف ليس في الكتاب والسنة؛ فهذا لا وجود له؛ لأن هذا يتوقف على النص، والله جل وعلا أعلم بنفسه وبغيره، وقد تعرَّف إلى عباده بما يقوله لهم، ويبديه لهم من أوصافه وأسمائه، وكذلك أفعاله، فيجب أن نقف عند هذا ولا نتعداه؛ لأن هذا أمر توقيفي. وقد نص العلماء على أن صفات الله وأسماءه توقيفية، ومعنى توقيفية أن يوقف معها على ما جاء به النص في كتاب الله وسنته، ولا يتجاوز ذلك[١].

وأئمة المسلمين كلهم يقولون: لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو بما

---

(١) انظر: «رسالة السجزي لأهل زبيد» (ص ١٧٨)، و«التمهيد» لابن عبد البر (٧/ ١٥٤).

ومذهب السلف؛ أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

وصف به رسوله ﷺ، ولا يجوز أن نستحدث صفةً لله جل وعلا، أو أن نجتهد فيها أو أن نقيس، بل يجب أن يكون بالنص، والنص لا يكون إلا بالكتاب والسنة.

يقول: «**ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه**»، يدخل في الصفة الاسم، والفعل الذي يختص به، ولهذا يطلق على ذلك أنه وصف لله جل وعلا.

وقوله: «**من غير تحريف**» المقصود بالتحريف: جعل الكلام على جانب غير الذي أريد به، بل يصرف عن مدلوله إلى شيء آخر لا يدل عليه إلا بقرينة أو تكلف.

والقرائن التي يتكلفها المبطلون من أهل التحريف ليست من الكتاب والسنة، وإنما هي من عقولهم، وهذا باطل لا يجوز؛ لأن هذا إرجاع إلى العقل وإهدار السنة.

وأما قوله: «**ولا تعطيل**» فالتعطيل هو النفي والإخلاء، يعني إخلاء الموصوف من صفته، فالتعطيل أصله الخلو من الشيء، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥]، يعني معطلة عن الاستعمال، فالتعطيل هو ألا يوصف الله جل وعلا بالصفات ولا يسمى بالأسماء.

وقوله: «**من غير تكييف**» التكييف: هو ذكر الكيفية، والكيفية لابد فيها من المشاهدة، وهذا منفي لا وجود له، وليس المعنى نفي الكيفية عنه، فالكيفية تنفى عن الخلق، فلا يجوز أن يطمع فيها طامع.

وقوله: «**ولا تمثيل**» فالتمثيل، هو التشبيه، وإن كان المؤلف عدل عن التشبيه؛ لأن التشبيه فيه إجمال، ولم يأت ذكره في الكتاب والسنة نفياً

ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك حق ليس فيه لغز ولا أحاجيّ، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم من كلامه، لا سيما إذا كان المتكلم أعلمَ الخلق بما يقول، وأفصحَ الخلق في بيان العلم، وأنصحَ الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد.

وهو ـ سبحانه ـ مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة

ولا إثباتاً، وإنما جاء نفي المثيل والند والكفو، فالله جل وعلا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وما جاء: (ليس كشبهه شيء)، ولهذا لما امتحن الإمام أحمد، قال له أهل المحنة: ما نتركك حتى تقول: إن الله ليس له شبيه بوجه من الوجوه، فقال: لا أقول هذا[1]. لأن معنى هذا تعطيل الله من صفاته.

فالتشبيه عندهم أن تثبت له السمع والبصر واليدين والاستواء والفعل، ومعنى ذلك: أن كلمة «تشبيه»، فيها إجمال واشتباه، وقد يُقصد بها باطل، ولهذا اجتنبها المؤلف، فقال: «**ولا تمثيل**».

وقوله: «**ونعلم أن ما وصف الله به نفسه من ذلك حق**»، الحق هو: الشيء الثابت.

وقوله: «**ليس فيه لغز**»، اللغز: الحجاوي التي يمتحن فيها الذكاء والعقل، فهو ظاهر معروف؛ ويعرف بالخطاب ويعرف باللغة، فالله خاطب العرب بلغتهم التي يعرفونها بأمور واضحة لا إشكال فيها، وكذلك بينها رسول الله ﷺ، وهذا هو معنى قوله: «**لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول**»، يقصد بذلك الرسول ﷺ، «**وأفصح الخلق في بيان العلم، وأنصح الخلق**»، فإنه لا يترك الأمر ملتبساً.

قوله: «**وهو مع ذلك ليس كمثله شيء**»، هذه قاعدة من القواعد التي

---

(١) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» لابن تيمية (٦/ ٤٩٧).

المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في أفعاله، فكما يتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقية وله أفعال حقيقية، فكذلك له صفات حقيقية. وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ....

يجب أن تُحفظ وتعرف، وهي متفق عليها عند أهل السنة، فالله «**ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة**»، يعني المطهرة عن كل عيب ونقص، «**المذكورة بأسمائه**» مثل: الله الرحمن، وكذلك قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وما أشبه ذلك، فلا يقول أحدٌ من الخلق: إن هناك ذاتاً تشبه ذات الله! فهذا أمر متفق عليه، فإذا كان هذا لا خلاف فيه؛ فيجب أن تكون الصفات كذلك؛ لأن الصفات تبع للذات.

والفرق بين الصفة والاسم: أن الصفة هي المعنى القائم بالذات، والاسم هو: الذي يدل على الذات. فالاسم يدل على المسمى، والصفة تدل على المعنى الذي يقوم بالمسمى، مثل: الرحمة والعزة والقوة، فهي صفات، أما «الله»، «الرحمن»، «العزيز»، فهذه أسماء.

كذلك يقول: «**فكما يتيقن أن الله له ذات حقيقية وله أفعال حقيقية، فكذ له صفات حقيقية**» والحقيقة: هي الشيء الثابت الذي لا يتغير، والأسماء ثابتة بلا إشكال، ولهذا أهل البدع يؤمنون بالأسماء، ولكن ينفون المعاني التي تدل عليها الأسماء، والمعاني هي الصفات.

قوله: «**ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته**» وصفاته تتعلق بذاته، والصفة قد تسمى بصفة الفعل وصفة الذات، والفرق بينهما: أن صفة الذات لا تفارق الذات بحال، فهو موصوف بها دائماً وأبداً، مثل: الحياة والعلم.

وكذلك «**ولا في أفعاله**» وهي التي تتعلق بمشيئته، مثل: الخلق والرزق والإحياء والإماتة وما أشبه ذلك، فهذه تتعلق بمشيئته، فإذا شاء فعلها وإذا شاء لم يفعلها، وهذا من الكمال، قال الله جل وعلا: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج]، فإذا أراد الشيء فعله، وفعلُه جل وعلا من صفاته. وكذلك يجب

وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً، فإن الله منزه عنه حقيقة، فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه، ويمتنع عليه الحدوث؛ لامتناع العدم عليه، واستلزام الحدوث سابقة العدم، ولافتقار المحدَث إلى محدِث، ....

ألا يكون له مشارك أو نظير في حقه، وحقه العبادة التي أوجبها على عباده، فيجب أن تكون خالصة له تعالى وتقدس.

وقول المؤلف هنا فيه وهذا كله ردٌّ على أهل البدع الذين أثبتوا سبع صفات، وإثباتهم لها ليس صحيحاً، فيزعمون أنها الصفات السبع التي اتفق عليها العقل والسمع، ثم يتأولونها، ومن هذه الصفات: الكلام، ومذهبهم فيه معروف، وذلك أن الكلام ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: لفظي يسمع، ويكون بالحروف، وهذا ممتنع عندهم على الله.

القسم الثاني: الذي يقوم بالذات، ولا يتكلم به، بل معنىً يقوم بذاته، ويكون معنى واحداً، فهو غير معقول، وأكثر مذهبهم باطل؛ لأنه مخالف للحق.

قال: «**وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً؛ فإن الله منزه عنه حقيقة**» أي إنه منزه عن كل نقص وعيب، وعن «**كل ما أوجب حدوثاً**» والحدوث يطلق على المخلوق الحادث المخلوق، فالله جل وعلا لا يطلق عليه شيء من ذلك لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، «**ويمتنع عليه الحدوث**» فلا يقال: إنه يحدث له العلم، أو تحدث له القدرة تعالى الله وتقدس، فله الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته، هذا هو الذي يجب أن يقال ويُعتقد في الله جل وعلا.

قوله: «**ولافتقار المحدَث إلى المحدِث**» هذه الجملة تحتاج إلى بيان، وهو أن المخلوق يفتقر إلى خالق، فلا يمكن أن يكون مخلوق بلا خالق، فهذا مستحيل، حتى عند الصبيان، فالصبي الصغير لو ضربه ضارب وبكى،

....

فقلت له: اسكت، لم يضربك أحد! فلا يقتنع أبداً؛ لأنه يعرف أن الضرب وقع من ضارب، فكل المخلوقات لا بد لها من خالق، فلا يمكن أن تكون حدثت بنفسها.

كما أنه لا يمكن أن يكون الذي أحدثها مثلها؛ لأنه فقير مثلها، فيحتاج إلى محدث، ولو قيل: إن الأرض خلقتها السماء، والسماء خلقها سماء، والسماء تلك خلقها سماء، وهكذا يستمر الأمر متسلسلاً؛ فإن هذا لا يمكن، فهو باطل أصلاً، ولا بد أن يكون للموجود من محدث، هل يمكن أن نشاهد سيارةً بلا صانع؟ فهذا لا يمكن.

وكذلك يقال: لابد أن المحدث قد سبقه العدم، ولا يمكن أن يوجِد المخلوق شيئاً من عدم، والعدم ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: عدم مطلق، وهذا لا يسمى شيئاً.

القسم الثاني: عدم مغيًّا بغاية، كما قال الله جل وعلا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فنقول: نعم أتى عليه دهور كثيرة لم يكن موجوداً، ولكنه عدم مقيد، فهو موجود بعلم الله، أما في الخارج، فهو عدم حتى أوجده الله جل وعلا.

فيمتنع أن يوجد معدومٌ بلا موجد، والله أوجد الأشياء من غير مثال سابق لها، وأخبرنا ربنا جل وعلا أنه خلق الأشياء من مادة، وأخبرنا أنه خلق السماوات من دخان، وخلق آدم من تراب، وخلق الشياطين من مارج من نار ـ أي لهب النار ـ، وخلق الملائكة من نور، وهكذا المخلوقات التي أخبرنا ربنا جل وعلا أنه خلقها من مادة موجودة وهو قادر على أن يخلق بدون مادة، يقول جل وعلا في زكريا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، يعني لم يكن لك وجود، فخلقه الله جل وعلا.

ولوجوب وجوده بنفسه سبحانه.

ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو وصف به رسوله ﷺ، فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العلا ويحرفون الكلم عن مواضعه ويلحدون في أسماء الله وآياته.

قوله: «**ولوجوب وجوده بنفسه**» وجوب الوجود هنا اصطلاحي، وهو الغنى، فالغنى عبَّر عنه بالوجوب، يعني أنه غني بنفسه عن كل ما سواه، فأوجد الأشياء مع افتقارها إليه وغناه عنها تعالى وتقدس، وهذا معنى قوله جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

قوله: «**ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل**» مقصوده بهذا أنهم لا يعطلون الرب جل وعلا من أوصافه وأسمائه، ولا يمثلون كالمشبهة، بل يسلكون هذا المسلك، فيصفون الله بأوصافه التي اتصف بها ووصفه بها رسوله، وكذلك يسمونه بأسمائه ويعلمون أنها تخصه، وأنها لا تماثل صفة المخلوقين ولا أسماء المخلوقين.

قوله: «**ويلحدون**» الإلحاد: الميل والعدول عن السمت المقصود، وقد قال الله جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهذا تهديد لهم أن أمرهم سيكون إلى الله ويعاقبهم به، فالإلحاد: الميل بها وبمعانيها عن مراد المتكلم.

والإلحاد أقسام(١):

القسم الأول: أن يشتق منها أسماء للمخلوقات أو للمعبودات الباطلة،

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم (١/ ٢٩٧).

....

كفعل قريش حينما سموا الشجر بـ«اللات» أخذاً من اسم: الله، فالله هو الإله وهو اللات!! والعجب أنهم أنثوها، والتأنيث معروف يدل على الرخاوة واللين الضعف، فالمذكر عادةً ـ كما هو معروف ـ أقوى من المؤنث.

وعلى قراءة التخفيف ﴿ٱللَّٰتَ﴾، أما على قراءة التشديد ﴿اللاتّ﴾، فهو أخذاً من اللتِّ وهو فعل، وذلك أنهم يقولون: أنه كان رجلاً صالحا، وكان إذا أتى إليه آتٍ قدم له سويقاً مخلوطاً بالسمن أو بالعسل أو بالزيت أو ما أشبه ذلك، فسموه لاتّاً؛ لأنه يلتُّ هذا بهذا، ثم لما مات ودفنوه تحت صخرة، فصاروا يطوفون على الصخرة، وصارت الصخرة فيما بعد هي المعبود.

وكذلك «مناة» أخذوها من المنان، أو من كثرة إراقة الدماء عندها من الإمناء، وهو: إراقة الدماء.

وعلى كل حال؛ سموا هذه الحجارة إلهاً، وهذا كذب وإلحاد، الإله هو الله جل وعلا، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]، يعني مجرد تسمية، وليس لها من الحقيقة شيء.

القسم الثاني: أن يوصف الله بما يتقدس عنه، كوصف اليهود بأنه فقير، وبأن يده مغلولة تعالى الله وتقدس، فهذا إلحاد في أسمائه وصفاته.

ومنه: وصفهم إياه بأنه تعب لما خلق السماوات، فاستراح في اليوم السابع، فأنزل الله جل وعلا قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨][1]، يعني ما مسنا من إعياء أو

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٦٦)، «أسباب النزول» للواحدي (ص٣٩٧).

وكل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل، فهو جامع بين التعطيل والتمثيل.

أما المعطلون؛ فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل، مثلوا أولاً وعطلوا آخراً، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله ﷻ.

تعب؛ لأنه جل وعلا يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وإن أخبرنا بأنه خلق السماوات في يومين والأرض في أربعة أيام؛ فهذا لحكمة أرادها جل وعلا، وإلا لو شاء لخلقها بلحظة كلها.

القسم الثالث: تحريف الأسماء عما وضعت له، وهذا كثير جداً، ومضى بعض شيء منه.

القسم الرابع: وصفه بما لم يصف به نفسه، أو بما لم يصفه به رسوله ﷺ مطلقاً.

وقوله: «**وكل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل**» يعني أن هؤلاء الذين سلكوا مسالك الباطل وجانبوا الحق جمعوا بين التعطيل والتمثيل.

والتمثيل يقصد به التشبيه، ولا يلزم أنهم قالوا: إنه يشبه كذا وكذا، بل هذا أمر استكن في أذهانهم، ومعنى ذلك: أنهم لم يفهموا من «اليد» إلا ما يفهمون من أنفسهم، فلما استقر هذا في أذهانهم نفوا اليد عن الله جل وعلا.

وكذلك لم يعرفوا من «الرحمة» إلا ما يعرفون من أنفسهم، فقالوا:

فإنه إذا قال القائل: لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش، أو أصغر، أو مساوياً، وكل ذلك محال. ونحو ذلك من الكلام.

فإنه لم يَفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأي جسم كان على أي جسم كان، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم.

الرحمة رقة تكون في القلب تدعو إلى الميل إلى المرحوم، فيحدث الإحسان إليه، فهذه هي رحمة المخلوق؛ ولهذا نفوا الرحمة عن الله خوفاً من التشبيه.

وكذلك قالوا في «الغضب» أنه غليان دم القلب ثم طلب الانتقام، فنفوه عن الله لأجل ذلك.

وهذا يقال في جميع الصفات، فهم جمعوا بين التشبيه وبين التعطيل، شبهوا أولاً، ثم بناءً على هذا التشبيه المستكن في نفوسهم عطلوا الله جل وعلا من أوصافه وأسمائه، فصار الباطل مركباً من باطلين، وهذا غاية البعد عن الحق، نسأل الله العافية.

قوله: «**لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش، أو أصغر، أو مساوياً..**» يعني أنهم يقولون: لو كان كذا لكان كذا، فهم لم يفهموا من صفات الله إلا ما يعرفون من الأجسام التي يشاهدونها أنه أكبر من العرش أو مساوٍ له، أو أقل منه، فمعنى ذلك أنه يكون جسماً، فإذاً لا نصفه بالاستواء!!

والله جل وعلا أخبر أنه أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وليس معنى ذلك أنه لما خلق العرش كان محتاجاً إليه، فيكون أكبر أو أصغر، فهو أكبر من كل شيء جل وعلا، وهو خلق العرش واستوى عليه لحكمة أرادها سواء أخبر بها عباده أو كتم عن عباده، وهناك من الأخبار ما يبتلي الله به

أما استواء يليق بجلال الله ويختص به، فلا يلزمه شيء من اللوازم الباطلة التي يجب نفيها.

وصار هذا مثل قول الممثل: إذا كان للعالم صانع............

عباده، هل يؤمنون بها، أم يقولون كما قال هؤلاء الملاحدة الذين كفروا بأوصاف الله جل وعلا، ولم يعرفوا منها إلا ما يعرفونه من أنفسهم.

ولهذا قالوا: الاستواء يقتضي أن يكون جسماً مماثلاً للعرش، أو أكبر منه، أو أصغر! وهكذا قالوا في بقية الصفات، فهذا يجمع بين التشبيه والتعطيل؛ لأن التعطيل أخيراً أنتجه التشبيه المستكن في نفوسهم.

قوله: «**يليق بجلال الله ويختص به..**»؛ لأنه خاصٌّ به لا يشاركه أي جسم أو أي مخلوق، فهو من خصائصه، وهذا مثل ما سبق في النزول والاستواء وغيره، فهو أمر لا يجوز أن تقيسه بالشيء الذي تعهده، فإنه على خلاف ذلك؛ لأنه خاص به، وكونه خاص به معناه: أنه لا يشبهه شيء من المخلوقات.

قوله: «**صار هذا مثل قول الممثل: إذا كان للعالم صانع**»، الصانع يطلقه المتكلمون كثيراً، ومرادهم به الله ﷻ، ولم يأتِ في أسماء الله جل وعلا أنه صانع، ومقصودهم به: الخالق.

ومخاطبة الإنسان باصطلاحه لا مانع منه، وليس معنى ذلك أن يوصف الله بالصانع، بل هو خبر من الأخبار، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، ونحن لا نسمي الله «شيئاً»، فليس من أسمائه، ولكن يُذكر به عند الإخبار وعند السؤال نطلق عليه ذلك[1]، ومثل ذلك: الصانع.

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم (١/ ٢٨٠).

فإما أن يكون جوهراً أو عرضاً وكلاهما محال؛ إذ لا يعقل موجود إلا هذان، أو قوله: إذا كان مستوياً على العرش، فهو مماثل لاستواء الإنسان على السرير أو الفلك؛ إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا، فإن كلاهما مَثَّل، وكلاهما عطَّل حقيقة ما وصف الله به نفسه، وامتاز الأول بتعطيل كل مسمًّى للاستواء الحقيقي، وامتاز الثاني بإثبات استواءٍ هو من خصائص المخلوقين.

والقول الفاصل: هو ما عليه أمة الوسط، من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك.

وقولهم: «**إما أن يكون جوهراً أو عَرَضاً**»، وهذا كثيراً ما يتكلمون به؛ لأنهم يقولون: كل موجود إما جوهر وإما عرض:

فالجوهر هو الذي يقوم بنفسه، مثل: الحجر والإنسان والخشب، فكل شيء يقوم بنفسه ويشغل مكاناً ويُلمس؛ فهو جوهر.

أما العَرَض؛ فهو الشيء الذي لا يقوم إلا بغيره، مثل: اللون والعلم والمرض والصحة وما أشبه ذلك، فلا تجده قائماً بنفسه، بل لابد أن يقوم بشيء آخر.

وهذه هي المخلوقات التي يشاهدونها، وهذا كله تعطيلٌ وتشبيهٌ له تعالى الله وتقدس.

فنقول: إن الله لا يماثله شيء، وأوصافه وذاته وأفعاله خاصة به ولا يشاركه أحد فيها، والمسلم ليس بحاجة إلى هذه الفلسفة وإلى هذه الأمور، ولكن بُلينا بهذا الشيء، ولابد أن نُبين الحق في ذلك ونبطل الباطل.

وقوله: «**إذا كان مستوياً على العرش، فهو مماثل لاستواء الإنسان على السرير أو الفلك**» يعني وهل يلزم أن يكون استواءُ الله كاستواء الإنسان؟ إذا

ولا يجوز أن يثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي كعلم المخلوقين وقدرتهم، فكذلك هو ﷻ فوق العرش، ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق وملزوماتها.

واعلم أن ليس في العقل الصريح ولا في النقل الصحيح ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلاً، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة على الحق، ....

كان مثل الإنسان، ولكنه ليس كمثل الإنسان، فاستواؤه يليق به وبعظمته، فكل التمثيل والقياسات باطلة بالنسبة لله جل وعلا.

قوله: «**ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق وملزوماتها**» يعني أن خصائص المخلوق معلومة، فالإنسان لو كان في السطح ثم نزل، فاللازم من ذلك أن السطح يكون فوقه، أما رب العالمين جل وعلا فهو ينزل إلى الأرض وإلى سماء الدنيا كل ليلة وهو عالٍ على كل شيء وفوقه، فلا يجوز أن نقيس أفعاله أو صفاته بالصفات التي نشاهدها والأفعال التي نشاهدها؛ لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا في ذاته ولا في أفعاله ولا في أوصافه.

فكل هذا الذي يقوله هؤلاء وبنوا عليه نفي صفات الله لأنهم لم يعرفوا من صفات الله إلا ما عرفوه من أنفسهم، وما عرفوه من المخلوقات، فحملهم هذا على التعطيل، فيكون الحاملُ لهم على تعطيل الله جل وعلا من أوصافه هو التشبيهَ الذي استكن في أنفسهم.

ولهذا هم ما عرفوا الله تعالى وتقدس، وبذلك لازمهم الشرك، وهذا أمر كبير؛ لأنهم اعتقدوا أن صفات الله وأفعاله كصفاتهم، ثم هذا الشرك حداهم إلى أن يعطلوا الله من جميع صفاته وأفعاله، فصاروا بين رجلين:

الأول: رجل صار ملحداً لا يؤمن بوجود الله، وإنما يقول: إن الله ليس

فمن كان في قلبه شبهة وأحب حلها فذلك يسير.

ثم المخالفون للكتاب والسنة وسلف الأمة من المتأولين لهذا الباب في أمر مريج، فإن من ينكر الرؤية يزعم أن العقل يحيلها، وأنه مضطر فيها إلى التأويل.

فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا داخل العالم ولا خارج العالم، ولا تجوز إليه الإشارة، ولا يأتي عليه وقت ولا زمان ولا غير ذلك، وهذا العدم المحض!!

والثاني: من يعبد كل شيء، ويرى أن الله موجود في كل شيء، وكل هذا كفر بالله جل وعلا.

ومعنى ذلك أن الباطل يدعو إلى ما هو أبطل منه وأخبث، بخلاف الذي يؤمن بأوصاف الله وبأسمائه كما أخبر، فإنه يسلم من الباطل والشرك والانحراف، ويعرف ربه كما عرف الله جل وعلا نفسه له، ولكن الهداية بيد الله جل وعلا.

وقوله: «**فمن كان في قلبه شبهة وأحب حلها فذلك يسير**» أي يسير على المؤلف، ويدعو إلى سؤاله، فيقول: من كان عنده شبهة يريد أن يحلها فليسأل عنها، فحلها يسير.

قوله: «**يزعم أن العقل يحيلها**» الزعم أكذب الحديث، وهم فسدت عقولهم وأفكارهم وتصوراتهم، ففسدت أقوالهم ونتائج أفكارهم لهذا الأمر، فمنكر الرؤية يقول: لوكان يُرى لكان جسماً، فالعقل يحيل أنه يُرى، وهذا كذب، فالله جل وعلا يُرى، وهو أكبر من كل شيء، وفوق كل شيء.

ورؤيته ـ كما أخبر بها الرسول ﷺ ـ تكون واضحة جلية كما سبق، وقد قال أحد المسلمين من العرب لما ذكر الرسول ﷺ الرؤية قال: كيف نراه وهو شخص واحد ونحن كثيرون جداً؟ فقال: «**ألا أخبركم بآية من خلق الله**

ومن يحيل أن لله علماً وقدرة، وأن يكون كلامه غير مخلوق ونحو ذلك، يقول: إن العقل أحال ذلك، فاضطر إلى التأويل. بل من ينكر حقيقة حشر الأجساد، والأكل والشرب الحقيقي في الجنة يزعم أن العقل أحال ذلك، وأنه مضطر إلى التأويل. ومن زعم أن الله ليس فوق العرش يزعم أن العقل أحال ذلك، وأنه مضطر إلى التأويل.

ويكفيك دليلاً على فساد قول هؤلاء أن ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل، بل منهم من يزعم أن العقل جوز أو أوجب بما يدعي الآخر أن العقل أحاله.

صغيرة؟ هذا القمر كل واحد منكم يراه خالياً به، فالله أكبر وأعظم»(١)، وهذا تقريب للفهم فقط، وإلا لا يجوز أن يقاس ربنا جل وعلا بشيء، والله جل وعلا يُرى ولا أحد يحيط به، والرؤية التي تكون للمؤمنين في الجنة هي رؤية وجهه الكريم تعالى وتقدس، وهي أتم النعيم وأكمله. وهؤلاء خليقون بأنهم يحرمون ذلك؛ لأنهم ينكرونه.

يقول: «**ومن يحيل أن لله علماً وقدرة.. فاضطر إلى التأويل**»؛ لأنهم يقولون: العلم عرض، والعرض يقبل الحدث، وكل ما قبل الحدث فهو محدث، فهذا وجه أن العقل يحيلها، وكل هذه أمور باطلة أصلها القياس على المشاهد الذي يرونه.

وهكذا البقية على هذا المنوال، والعقل لا يحيل ذلك إلا عقلاً فاسداً، فالله جل وعلا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وله الكمال المطلق جل وعلا، ولكن هؤلاء حرموا الإيمان وحرموا العلم النافع، جزاءً لكونهم تركوا كتاب الله وسنة رسوله، فحصل فساد عقولهم وفساد تصوراتهم وفساد دينهم، فلم يعرفوا ربهم، وبقي من

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨٠)، من حديث أبي رزين رضي الله عنه.

فيا ليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة، فرضي الله عن الإمام مالك بن أنس حيث قال: «أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ لجدل هؤلاء!»[١].

وكل من هؤلاء مخصوم بما خُصِم به الآخر، ....

بقي منهم حائراً تائهاً لا يدري ماذا يعتقد؟ ومنهم من ألحد، ومنهم من بقي متشككاً! وهذا جزاء من ترك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

«**الإمام مالك**» قد دخل عليه رجل من هؤلاء فقال: أريد أن أناظرك، قال: «أنا ما عندي شك في ديني، أما أنت اذهب إلى من يشك فناظره»[٢]، قال: أناظر بالعقل. قال: العقل!! ما عندنا دين يعني يحتاج النظر في العقل؟ ونترك ما جاءنا به محمد ﷺ نحن في غنية عن ذلك، فأمر به أن يخرج. وهكذا يجب أن يقال لهؤلاء الذين عندهم الشكوك ويريدون أن يلصقوها بغيرهم، أو يجعلوهم مثلهم.

يقول رحمه الله: «**وكل من هؤلاء مخصوم بما خصم به الآخر**» يعني أن هذه الجماعات المتفرقة ـ كالجهمية والمعتزلة والأشعرية والكلابية والسالمية وما أشبه ذلك ـ مختلفون فيما بينهم، وكل واحد منهم يحتج على الآخر بالعقل، ويبطل دليله بالعقل، فهذا مقصوده، يقول: «**مخصوم بما خصم به الآخر**» يعني ما دام هذا يبطل ما عند هذا بالعقل، والآخر يبطل ما عند هذا بالعقل، فمعناه أن كلها باطلة؛ لأن الحق لا يتناقض ولا يتعدد.

ثم الحق الذي جاء به المصطفى ﷺ ما وكلنا فيه إلى عقولنا ولا إلى عقول أناس معينين، بل يجب أن يكون العقل منقاداً لما جاء به الرسول

---

(١) أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٦٧٠)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٥٠٧)، واللالكائي في «الاعتقاد» (١/ ١٦٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٤)، وابن بطة في «الإبانة» (١/ ٤٠٤).

وهو من وجوه:

أحدها: بيان أن العقل لا يحيل ذلك.

الثاني: أن النصوص الواردة لا تحتمل التأويل.

الثالث: أن عامة هذه الأمور قد علم أن الرسول ﷺ جاء بها بالاضطرار، ....

ﷺ، وإلا حكمنا بأنه منحرف، فلا عبرة فيه.

ثم قال: «**وهو من وجوه: أحدها: بيان أن العقل لا يحيل ذلك**»، كيف يحيل العقل أن الله فوق السماوات، كيف يحيل أن لله يدين، وله سمع، وله بصر، وله علم وإرادة، ورحمة وغير ذلك؟ هذه دعوى باطلة، فالعقل لا يحيلها، بل العقل يوافق.

قال: «**الثاني: أن النصوص الواردة لا تحتمل التاويل**» يعني أنها نصوص في كون الله فوق، وكون الله له صفات، فتأويلها يكون تحريفاً، بل سماه بعض العلماء تلاعباً بكتاب الله وسنة رسوله وليس مجرد تحريف؛ لأن التحريف قد يكون له وجه بعيد، وهذا لا وجه له.

قال: «**الثالث: أن عامة هذه الأمور**» يعني التي أشكلت عليهم «**قد علم أن الرسول ﷺ جاء بها بالاضطرار**» والاضطرار: هو الذي لا يحتاج إلى استدلال، فهذه أمور لا تحتاج إلى استدلال؛ لكونها أموراً ثابتة لا تصح المناقشة فيها، ولكن هؤلاء لا يبالون بالأمور الثابتة، حتى إنهم يقولون في القرآن الذي لا حيلة لهم في رد لفظه: القرآن وإن كان ثبوته قطعياً متواتراً إلا أن دلالاته ظنية! وماذا نستفيد إذا كانت ألفاظه قطعية ودلالاته ظنية؟

بل إذا كانت ألفاظه قطعية؛ فكذلك دلالته قطعية؛ لأن الكلام اسم للفظ والمعنى معاً، فلا يجوز أن يقال مثل هذا، وهذا الذي يقصده الشيخ رحمه الله.

كما علم أنه جاء بالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان، فالتأويل الذي يحيلها عن هذا بمنزلة تأويلات القرامطة والباطنية في الحج والصوم والصلاة وسائر ما جاءت به النبوات.

الرابع: أن يبيِّن أن العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص، وإن كان في النصوص من تفصيل ما يعجز العقل عن درك تفصيله...

قال: «**كما علم أن الرسول ﷺ جاء بها بالاضطرار..**» يعني الذي يذكره الشيخ أعظم من تواتر الصلوات الخمس، فالإيمان بالله أعظم من الصلوات الخمس، ونقله وتواتره أعظم من الصلوات الخمس التي يصليها المسلمون كل يوم، ولا يشك فيها شاك؛ لأن الصلوات داخلة في الإيمان، والإيمان هو أول ما يجب أن يتحلى به العبد، وإلا فصلاته لا تصلح، وكذلك الأركان التي تتبعها كالزكاة والصوم والحج.

يقول: «**فالتأويل الذي يحيلها عن هذا بمنزلة تأويلات القرامطة**»، وتأويل القرامطة هو قولهم: إن الصلوات معناها قصد الأئمة والحج إلى قبورهم! وأن الصوم كتم الأسرار! والحج تقصد الأئمة![1] فتأويل هؤلاء مثل تأويل هؤلاء الذين أرادوا إبطال الإسلام، «**وسائر ما جاءت به النبوات**» فتأولوا هذا التأويل الباطل الذي لا يقبله عاقل أصلاً، فضلاً عمن عنده شيء من العلم.

قوله: «**الرابع: أن يبين أن العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص**»، وقد كتب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الجملة مؤلفاً كبيراً ـ كما هو معروف ـ يتكون من تسعة مجلدات سماه «درء تعارض النقل مع النقل»، ورد على هذه الدعوى الباطلة: أن العقل يعارض النقل، ويقول: إن هذا سهل بيانه على أهل العلم الذين عرفوا مراد هؤلاء وأقوالهم.

ثم قال: «**وإن كان في النصوص من التفصيل ما يعجز العقل عن درك**

---

(١) انظر: «الافتخار» للداعي الإسماعيلي إسحاق السجستاني (ص٢٣٢).

. . . .

تفصيله»؛ لأن الرسل جاؤوا بمحارات العقول ولم يأتوا بشيء يخالف العقل[١]، يعني أنهم ما جاؤوا بشيء تنكره العقول، بل بما تحار فيه ولا تدركه، فالعقل لا يدرك الحياة البرزخية التي يكون فيها الميت ولا ما في الجنة والنار والوقوف الطويل بلا أكل وشرب ولا صوت، وأن الناس يقفون خمسين ألف سنة، وأن العرق يبلغ لأحدهم إلى أذنيه، وأن العرق يأخذ بالأرض سبعين ذراعاً، فهذه الأشياء لا يستطيع العقل أن يستوعبها، وهذه أمور يفعلها الناس، وأمور مخلوقة، فكيف بصفات الله جل وعلا؟ هذه فوق هذا بآلاف الأشياء التي لا يمكن أن يدركها العقل.

واستدل أحد العلماء على هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾[٢] [النجم: ٤٢]، يقول: عقلك له ما بين السماء والأرض، فدعه يجول فيها ويفكر، أما إذا ذهبت تنظر في ذات الله أو في أسمائه وصفاته، فيجب أن تقول له: قفي ليس هذا عشك فادرجي، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ فتنتهي هنا، وإن كانت الآية نصاً في أن مرجع الخلق كلهم إليه فيحاسبهم، ولكن يُفهم ذلك منها أيضاً؛ لأن كلام الله معانيه لا تنتهي عند معنىً واحد.

فعلى كل حال؛ نقول: إن هؤلاء مبطلون، ودعواهم أن العقل يخالف النقل دعوى غيرُ مقبولة وفاسدة وغير صحيحة؛ لأن أكثر العقلاء يخالفونهم في هذا، ويقولون: إن الرسل ما جاءت بمخالفة العقل، ولكن جاءت بأشياء لا تدركها العقول، والأمثلة على هذا كثيرة.

---

(١) انظر: «درء تعارض العقل» (٧/ ٣٢٧)، «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (٢/ ٦٠٩).

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٧/ ٤١٧)، «تفسير السمعاني» (٥/ ٣٠١)، «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٦).

وإنما عَقَله مجملاً.

إلى غير ذلك من الوجوه، على أن الأساطين من هؤلاء والفحول معترفون بأن العقل لا سبيل له إلى اليقين في عامة المطالب الإلهية، وإذا كان هكذا، فالواجب تلقي علم ذلك من النبوات على ما هو عليه.

قوله: «**وإنما عَقَله مجملاً**» يعني أن العقل أدركه بالإجمال، فهو موافق له.

يقول: «**وإذا كان هكذا؛ فالواجب تلقي علم ذلك من النبوات**» يعني أن تلقي حقائق صفة الله جل وعلا، وما يتصف به، وبالإخبار عن ذاته؛ إنما يكون من النبوة لا من العقول؛ لأنها لا تدرك هذا ولا تستطيعه، «**على ما هو عليه**» أي على ما جاء به رسولنا ﷺ، وهذا لا إشكال فيه، وكل من كان عقله سليماً لم ينحرف فإنه يقبله بسهولة ولا يجد في ذلك صعوبة، أما كونه يريد أن يبحث عن الحقائق، فحقائق صفات الله تعالى لا يدركها أحدٌ من الخلق، ولهذا حتى المخلوقات التي في الآخرة لا ندرك حقيقتها، كما يقول ابن عباس رضي الله عنه: «ليس عندكم في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»[(1)]، ومعلوم الفرق الكبير بين الله تعالى وبين خلقه.

فيها عنب، وفيها فاكهة، وفيها زوجات، وفيها خمر، وفيها ماء، كيف تدرك أن هناك أنهاراً من لبن؟! وعهدنا أن اللبن يخرج من الحيوان، وكيف تدرك أن هناك أنهاراً من عسل مُصَفّى، وأنهاراً من خمر، أنهار من أين تأتي؟ هل هي معصورة من العنب أو التمر؟! أبداً.

ولهذا يقول الله جل وعلا فيها: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وقوله: ﴿نَفْسٌ﴾ هنا منكرة، يدل على العموم، فلا نفس ملك

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٦).

ومن المعلوم للمؤمنين أن الله بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، وأنه بين للناس ما أخبرهم به من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر.

والإيمان بالله واليوم الآخر، يتضمن الإيمان بالمبدأ والميعاد، وهو الإيمان بالخلق والبعث، كما جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

ولا نبي ولا غيرهما تعلمه، وإنما يعلمه إذا رآه.

أما الأخبار التي جاءتنا في مثل هذا فهي تقريبية، والله خاطبنا على حسب عقولنا وما ندركه رحمةً منه جل وعلا، فكيف يلتفت إلى كلام هؤلاء المبطلين، ولكن انطلى هذا الكلام على بعض الذين لا يعرفون الأمور على وجهها.

قوله: «**ومن المعلوم للمؤمنين أن الله بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق**» المراد بهذا أن يُبين أن الكتاب والسنة جاءا بأمور واضحة جلية، وهذه لا يجوز أن يقبل فيها كلام أحد من الناس غير كلام رسول الله ﷺ؛ لأن من عقيدتنا أن كلام الله معصوم عن الخطأ، وكذلك كلام رسوله معصوم عن الخطأ، ويضاف إلى هذا أن الله جل وعلا أقدرُ من الخلق على البيان، وأعلمُ من الخلق بنفسه وبغيره، وأنه جل وعلا أراد من ذلك هداية الناس، وليست الإرادة إرادةً كونيةً وإنما هي إرادة دينية، يعني إرادة أن يمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه، وهذا يقتضي أن يوضح لهم الأمر إيضاحاً جلياً، وقد فعل.

وكذلك الرسول ﷺ أعطي الفصاحةَ والبلاغة وأعطي النصحَ والأمانة، والمقدرةَ على ما يتكلم فيه، فليس أحدٌ أقدرَ من الرسول في البيان، فإذاً

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، وقد بين الله تعالى على لسان رسوله ﷺ من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ما هدى الله به عباده وكشف به مراده.

ومعلوم للمؤمنين أن رسول الله ﷺ أعلمُ بذلك من غيره، وأنصحُ للأمة من غيره، وأفصحُ من غيره عبارةً وبياناً، بل هو أعلمُ الخلق بذلك، وأنصحُ للخلق للأمة وأفصحُهم، وقد اجتمع في حقه ﷺ كمال العلم والقدرة والإرادة.

من يقول: إن معنى كلامه كذا وكذا، ويحرفه عن ظاهره؛ فإنه يجعل نفسه فوق الرسول، ويجعل نفسه مستدركاً على رسول الله ﷺ، ولكن قد لا يشعر بهذا، فلا استدراك على رسول الله ﷺ، وكذلك لا استدراك على ربنا جل وعلا، وإن كنا لا نحتاج إلى مثل هذا، غير أنه قد بُلي الناس بأناس يعظمون أصحاب الانحرافات وأصحاب الكلام ويتبعونهم، فلا بد من بيان ذلك وإيضاحه.

وإذا كان من مقتضى شهادة «أن محمداً رسول الله» أن تعلم أنه بلَّغ، كيف يكون بلَّغ وهو ويقول: إن هذه النصوص لم يُرَدْ ظاهرها؟ هل يكون هذا شاهداً له بالبلاغ؟! أبداً لم يشهد له بالبلاغ.

فالرسول ﷺ أحرصُ الناس على هداية الناس، وأكملهم في النطق والبيان، والبلاغة، وهو أعلمهم بالله وبشرع الله، فلا استدراك عليه صلوات الله وسلامه عليه، ولا بد للمسلم أن يشهد بهذا، وإلا تكون شهادته مشكوكاً فيها ومدخولة، وهذا أصل دين الإسلام.

ثم قال: **«ومعلوم للمؤمنين أن رسول الله ﷺ أعلم بذلك من غيره، وأنصحُ للأمة من غيره وأفصح..»** ومعلوم أن رسولنا ﷺ أُعطي جوامعَ الكلم، وأُعطي البيانَ والفصاحة، وأعطي النصحَ، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

ومعلوم أن المتكلم والفاعل إذا كمل علمه وقدرته وإرادته كمل كلامه وفعله، ....

أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي على إيمانكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فإذا كانت هذه أوصافه؛ فلا بد أن يبين الحق ويفصله، ويوضح الباطل ويبينه.

وقد فعل ذلك ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وكان يقول لأصحابه في المجامع: «إنكم مسؤولون عني، فماذا أنتم قائلون؟» فيشهدون بصراحة: نشهد أنك بلغت(١)، أي بلغت البلاغ المبين، وأديت الرسالة، ونصحت الأمة، فهذه صفته ﷺ، ولم يتوفاه الله جل وعلا إلا بعد كمال الدين وتمام النعمة، قال الله جل وعلا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ومعلوم أن هذه الآية نزلت في آخر حياته ﷺ، وهو واقف في عرفات، في حجة الوداع.

وقد قال يهودي لأمير المؤمنين عمر ﷺ: إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو نزلت علينا معشر اليهود؛ لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال له: وأي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. فقال: إني أعلم في أي يوم نزلت، وفي أي مكان نزلت، نزلت في يوم عيد وهو يوم عرفة، فنحن متخذوه عيداً(٢)، أي عيداً شرعياً من عند الله جل وعلا.

قوله: **«ومعلوم أن المتكلم والفاعل إذا كمل علمه وقدرته وإرادته»** يعني إرادة البيان؛ لأنه قد يكون قديراً على الكلام ولا يريد، ويكون عالماً ولكن لا يريد أن يذكر علمه، فل ابد أن يكون كمل علمه.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧)، من حديث طارق بن شهاب.

وإنما يدخل النقص إما من نقص علمه، وإما من عجزه عن بيان علمه، وإما لعدم إرادته البيان.

والرسول ﷺ هو الغاية في كمال العلم، والغاية في كمال إرادة البلاغ المبين، والغاية في القدرة على البلاغ المبين، ومع وجود

ولكن ما هو علمه بكل شيء إذا أردنا آحاد الناس، أما ربنا جل وعلا فعلمه كامل في كل شيء، هو الذي يخاطبنا عن نفسه، ولا يمكن أن أحداً يبتدئ اموراً جديدة يتصف الله جل وعلا بها، ويأتي ببيان ذلك وإيضاحها، هذا مستحيل ممتنع شرعاً وعقلاً؛ لأن الكلام في الله جل وعلا وصفاته مبني على أنه يؤخذ من الوحي لأمرين:

الأمر الأول: أنه غيب، والغيب لا مجال في كون الإنسان يعرفه إلا عن طريق الخبر.

والثاني: أن الله لا نظير له، ولا شبيه له حتى يقاس عليه.

معنى ذلك: أن العقل لا دخل له، والقياس لا دخل له، ولا بد أن نقف مع الوحي، الفعل غير الكلام؛ لأن الكلام في مسألة الكلام، ولكن عطف عليها «**وفعله**»، لأن الفعل تبع الكلام.

قوله: «**وإنما يدخل النقص**» وهذا يكون في المخلوق، «**إما من نقص علمه**» فكثير من الناس عنده بيان ولكنه ناقص العلم، فيتكلم ببعض الأشياء التي تكون جهلاً، «**وإما من عجزه عن بيان علمه**» فبعض الناس يصير عنده علم ولكن ما عنده مقدرة على البيان، وهذا من النقص، «**وإما لعدم إرادته البيان**» فقد يكون عنده علم ومقدرة على البيان، ولكن لا يريد النصح، ولا يريد الخير للناس فيسكت، وهذه كلها خلاف وصف الرسول ﷺ.

قوله: «**والرسول ﷺ هو الغاية في كمال العلم..**» هذا كلام واضح لا إشكال فيه، ويجب أن يكون عقيدة كل مسلم، أن الرسول ﷺ بيّن غاية

القدرة التامة والإرادة الجازمة يجب وجود المراد، فعلم قطعاً أن ما بينه من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر حصل به مراده من البيان، وما أراده من البيان هو مطابق لعلمه، وعلمه بذلك هو أكمل العلوم، فكل من ظن أن غير الرسول ﷺ أعلم بهذه منه، أو أكمل بياناً منه، أو أحرص على هدي الخلق منه، فهو من الملحدين لا من المؤمنين، والصحابة والتابعون لهم بإحسان ومن سلك سبيل السلف هم في هذا الباب على سبيل الاستقامة.

وأما المنحرفون عن طريقهم فهم ثلاث طوائف: أهل التخييل، ..

البيان، وأن بيانه عن قدرة، وعن إرادةٍ لهداية الناس.

وأما كلام المتكلمين؛ فعلى خلاف هذا كما سبق، فهم جعلوا ظواهر النصوص غير مرادة، يعني أن الرسول غشنا! أعوذ بالله من أن يتكلم بشيء ظاهره باطل! ولو طُبق هذا الأمر على قائل هذا، ماذا يكون حكمه؟ يكون مسلماً؟ بل غير مسلم؛ لأن مقتضى ذلك أن الرسول غشَّ الأمة! هذا معناه أنه مكذب بكتاب الله جل وعلا، ومكذب للواقع الذي شهدت به الأمة كلها، فكيف ينطلي مثل هذا على بعض الناس، لولا الجهل بمراد الذين يقولون هذا القول وبما جاء به الرسول ﷺ، وعند الجهل يأتي كل بلاء.

قوله: «**أهل التخييل**»، هم الفلاسفة الذين يجعلون النبوة مكتسبة[1]، فيمكن أن تكون نبياً إذا توفرت فيك ثلاث صفات!! قوة الحدْس، وقوة التخيل والقدرة على بيان ذلك الشيء؛ لأنهم أصلاً لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر، فهم يقولون: الرسول ﷺ خيل للناس أن بعد هذه

---

(١) انظر: «شرح الأصفهانية» لأبي العباس ابن تيمية (ص٥٧٣)، «الصفدية» (ص٥)، «درء التعارض» (٥/ ٣٥٥)، «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٢٩). وانظر: «النجاة» لابن سينا (ص١٦٦).

وأهل التأويل، وأهل التجهيل.

فأهل التخييل هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف، فإنهم يقولون: إن ما ذكره الرسول ﷺ من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور، لا أنه بين به الحق، ولا هدى به الخلق، ولا أوضح الحقائق.

الحياة موتاً، ثم بعد الموت حياة، أمور تخييلية لا حقيقة لها، ثم خيل لهم أن هناك جنة عظيمة فيها نعيم عظيم ونساء.

وكل هذا لأجل إصلاح الناس، وإلا فهو كذب، فهل مثل هذا يكون مسلماً أو قريباً من الإسلام؟ وابن سينا هذا الذي يعظمه كثير من الناس، هذا مذهبه، ولهذا كان ينتظر أن يكون نبياً، وكان يقول لما قيل له: إن الرسول ﷺ يقول: «لا نبي بعدي»[١]: لقد تحجر ابن آمنة واسعاً[٢]. هذا يقوله مسلم! ومع ذلك الناس يجهلون حال هذا الرجل، لكنه أراد أن يجمع بين قول الفلاسفة وبين قول الرسول حتى يصانع المسلمين، ويكون معهم وإلا فهو في الحقيقة إسماعيلي من الاسماعيلية التي هي أبعد الطوائف عن الإسلام.

وأما «**التأويل**»؛ فمعروف أنه المعتمد عند أكثر المتكلمين.

وأما «**التجهيل**»؛ فهم أهل التفويض، والتجهيل: هو التفويض.

قوله: «**الجمهور**» يعني غيرهم؛ لأن جمهور الناس ما وصلوا إلى الفلسفة التي أدركوا بها الحقائق، فلا بد من الكذب حتى تصلح أحوالهم، إذا قيل: إنه ما بعد الموت حياة ولا فيه عذاب، ولا فيه نعيم، انفلتوا،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩٣).

(٢) المشهور أن هذه مقولة ابن سبعين. انظر: «فوات الوفيات» لابن شاكر (٢/ ٢٥٣)، «لسان الميزان» لابن حجر (٥/ ٦٣)، «المنهل الصافي» لابن تغري بردي (٧/ ١٥٤).

ثم هم على قسمين: منهم من يقول إن الرسول ﷺ لم يعلم الحقائق على ما هي عليه. ويقولون: إن من الفلاسفة الإلهية من علمها.

وكذلك من الأشخاص الذين يسمونهم أولياء من علمها، ويزعمون أن من الفلاسفة أو الأولياء من هو أعلم بالله. ويزعمون أن من الفلاسفة أو الأولياء من هو أعلم بالله واليوم الآخر من المرسلين، وهذه مقالة غلاة الملحدين، من الفلاسفة والباطنية؛ باطنية الشيعة، وباطنية الصوفية.

صار كل يعمل ما يريد، فلا بد من الكذب عندهم، وإلا فهذا الذي أتى به الرسول لا وجود له!

قوله: «**الفلاسفة الإلهية**»، هم الذين لهم شيء من العبادة، أو الذين يرون أن هناك معبوداً يمكن أن يُعبد، أو الذين قد يؤمنون بالله ولكنهم بعيدون كل البعد عن طرق الرسل.

أما غير الإلهيين؛ فهم الملاحدة الزنادقة الذين يقولون: ما هي إلا هذه الحياة، وهذا الكون كون أزلي؛ لم يزل هكذا ولا يزال هكذا، فهؤلاء الذين يقولون بقدم العالم، وهذا أمر مشهور، ومعلوم بطلان هذا القول، والمؤلف أراد أن يحصر أهل الباطل ليبين الحق.

قوله: «**وكذلك من الأشخاص الذين يسمونهم أولياء من علمها، ويزعمون أن من الفلاسفة أو الأولياء من هو أعلم بالله**» يعني: أن الحقائق من الأولياء من علمها، ولا يعلمها الرسول ﷺ، كما يقول ابن عربي: إن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء[1]؛ لأن الولي يأخذ علمه بلا واسطة، والنبي يأخذه بواسطة جبريل عليه السلام.

---

(١) انظر: «فصوص الحكم» لابن عربي (ص٦٢).

ومنهم من يقول: بل الرسول علمها لكن لم يبينها وإنما تكلم بما يناقضها، وأراد من الخلق فهم ما يناقضها لأن مصلحة الخلق في هذه الاعتقادات التي لا تطابق الحق.

ويقول هؤلاء: يجب على الرسول أن يدعو الناس إلى اعتقاد التجسيم مع أنه باطل. وإلى اعتقاد معاد الأبدان مع أنه باطل.

ويخبرهم بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون مع أن ذلك باطل؛ لأنه لا يمكن دعوة الخلق إلا بهذا الطريق التي تتضمن الكذب ولمصلحة العباد، فهذا قول هؤلاء في نصوص الإيمان بالله واليوم الآخر.

وأما الأعمال، فمنهم من يقرها، ومنهم من يجريها هذا المجرى،

وقوله: «**الباطنية**» وهم الذين قالوا: إن الأمور لها باطن غير الظاهر، والباطن هو لباب الأشياء وأصلها، والظاهر: القشور، وهي لعامة الناس، فعامة الناس عندهم مثل البهائم، لك أن تتصرف فيهم، أما الباطن، فهو الذي يدركه هؤلاء الخلاصة، يسمون أنفسهم: الخلاصة، وهم أكفر خلق الله، أكفر من اليهود والنصارى.

قوله: «**ويخبرهم بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون مع أن ذلك باطل**»؛ لأنه لا حياة بعد الموت ولا جنة ولا نار عندهم، هذه هي عقيدتهم الفاسدة، يريدون أن تكون هي الحق وأن توافق قول الرسول في الظاهر فقط؛ لأن الرسول جاء بهذه الأشياء التي يقولون: إنها تخييلية، وهذا معنى التخييل.

وقوله: «**لأنه لا يمكن دعوة الخلق إلا بهذا الطريق التي تتضمن الكذب ولمصلحة العباد**» هذا قول الأولين الذين يقولون: إنه لا بد من الكذب، وإلا ليس هناك بعثٌ ولا جنة ولا نار، وإنما هذا تصوير حتى يصلح الناس، وتصلح حياتهم الدنيا فقط.

قوله: «**وأما الأعمال**» مثل الصلاة والصوم والحج؛ فمنهم من يأمر الناس

ويقول: إنما يؤمر بها بعض الناس دون بعض، ويؤمر بها العامة دون الخاصة، وهذه طريقة الباطنية الملاحدة والإسماعيلية ونحوهم.

حتى يتهذبوا ويستقيموا، ومنهم من يقول: ليس لها معنى، وإنما يفسرها بأشياء أخرى كما مضى.

قوله: «**ونحوهم**»، يعني بعض الصوفية الذين يقولون: إنك إذا وصلت إلى الحقيقة زال عنك التكليف، ويتأولون قول الله جل وعلا: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، فإذا جاءك اليقين زالت العبادة عنك.

ومنهم من تأوّل أن الإنسان إذا وصل إلى الحقيقة فلا شيء يحرم عليه أو يحل، فكل الأمور تساوت عنده، مثل العفيف التلمساني وابن سبعين اللذَيْن يعظمها الصوفية، ولابن الفارض النظم المعروف الذي يسمونه «نظم السلوك» وشيخ الإسلام يسميه «نظم الشكوك»[1]، فلا فرق عنده بين الزوجة والأم، ولا بين الماء والخمر، ولهذا لما قيل له ـ وهو يقرر شيء من ذلك ـ: معنى هذا أن الأم ليست حراماً والخمر ليس حراماً! قال: وهو كذلك، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا: إنه حرام فقلنا: عليكم!! فهل مثل هذا يكون مسلماً فضلاً عن أن يكون عارفاً كما يسمونه؟!

وكذلك ابن عربي يجعل الولي فوق النبي، ويسمي نفسه خاتم الأولياء! ويقول: إنه يأخذ من المشكاة التي يأخذ منها جبريل، فالذي يأتي النبي منها خبر بالواسطة، وأنا آخذ بدون واسطة![2] وعنده كفريات كثيرة غير هذا.

ثم بالنسبة لرب العالمين فإنه يجعله الكون كله، ويقول: إن فرعون صدق حينما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، والمشركون كذلك، ولكن أخطؤوا حينما خصوا العبادة بالأصنام فقط، ولو عبدوا كل شيء لكانوا صادقين.

حتى آل به الأمر إلى أن يتكلم على موسى عليه السلام ويقول: إنه ضاق عطنه

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/٤٨).

(٢) انظر: «فصوص الحكم» (ص٦٢).

وأما أهل التأويل فيقولون: إن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول ﷺ أن يعتقد الناس الباطل ولكن قصد بها معاني، ولم يبين لهم تلك المعاني ولا دلهم عليها، ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها، ومقصوده امتحانهم وتكليفهم وإتعاب أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوا كلامه عن مدلوله ومقتضاه، ويعرفوا الحق من غير جهته. وهذا قول المتكلمة والمعتزلة ومن دخل معهم في شيء من ذلك.

والذين قصدنا الرد عليهم في هذه الفتيا هم هؤلاء؛ إذ كان نفور

لما قال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وإلا ففرعون صادق، ثم يقول أيضاً: إن النار تكون على أهلها نعيماً وعذباً، فعذابها عذب، ثم مع هذا يسمونه خاتم الأولياء!! ومحيي الدين! والولي الأكبر! إلى غير ذلك، وكل هذا دليل على جهل المسلمين بدينهم، وللأسف.

قوله: «**ومقصوده امتحانهم وتكليفهم وإتعاب أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوا كلامه عن مدلوله**» يعني أن هذا مقتضى مذهبهم؛ لأنهم يقولون: ظاهر ما جاء به الرسول باطل، ولا يجوز أن يعتقد، وصعب عليهم أن يقولوا: إن الرسول كذاب، أو أنه ما جاء بالحق، فقالوا هذا القول المتأول: إنه أراد كثرة الأجور لأن يتعبوا أذهانهم ويكدوها حتى تكثر أجورهم، وهذه مصانعة، وإلا فالمقصود غير هذا، نسأل الله العافية.

ومعنى ذلك أن الناس كلهم أو أكثرهم إلا هؤلاء الشرذمة الشاذة على باطل! لأنهم يعتقدون أن ظاهر النصوص حق، وأن الرسول أرادها تماماً، وعندهم أن هذا كفر وباطل، فهم ليسوا على الحق، ويكفينا من بطلان الكلام هذا المعنى فقط.

قوله: «**والذين قصدنا الرد عليهم**» يعني هؤلاء الذين دخل فيهم

الناس عن الأولين مشهوراً، بخلاف هؤلاء، فإنهم تظاهروا بنصر السنة في مواضع كثيرة، وهم في الحقيقة لا للإسلام نصروا، ولا للفلاسفة كسروا .

ولكن أولئك الفلاسفة ألزموهم في نصوص المعاد نظير ما ادعوه في نصوص الصفات فقالوا لهم: نحن نعلم بالاضطرار أن الرسل جاءت بمعاد الأبدان وقد علمنا الشبه المانعة منه.

الأشاعرة، فهم هذا مذهبهم.

قوله: «**لا للإسلام نصروا، ولا للفلاسفة كسروا**» الفلاسفة الذين يقولون: إن الرسول جاء بأمور تخييلية؛ لم يستطع هؤلاء أن يردوا عليهم، وسيأتي بيان ذلك.

قوله: «**الشبه المانعة منه**» كقولهم: كيف يكون الإنسان تراباً ثم يحيا؟ فهذا لا يمكن؛ لأنهم نظروا في عقولهم فقط، وما نظروا إلى المبدأ، فالأصل أنه كان من تراب، والله جل وعلا ذكر أن الإعادة أهون من الابتداء.

وكذلك يقولون: إن الميت في القبر لا يعذب ولا ينعم ولا يحيا، ويقولون: نعرف أن لو وضعنا ميتاً في قبره على ظهره، ثم وضعنا على عينيه زئبقاً، ثم فتحناه فيما بعد؛ لوجدناه لم يتغير، والزئبق في مكانه.

ويقولون كذلك: إنا نكشف القبور ونشاهدها فلا نرى فيها أثر النار ولا أثر الجنة ولا أثر النعيم ولا غير ذلك، بل تكون تراباً وعظاماً وهكذا.

فكل هذه دعاوى باطلة؛ لأنها خلاف ما أخبر به الرسول ﷺ، أما هذه المشاهدات، فنقول: قدرة الله فوق هذا، فهذا التراب الذي تشاهده يجعله الله ناراً لا تطاق على من أراد، وكذلك هذا القبر الذي تشاهده يجعله الله جل وعلا روضةً لِمَنْ فيه، وقد أظهر الله جل وعلا شيئاً من ذلك

وأهل السنة يقولون لهؤلاء: ونحن نعلم بالاضطرار أن الرسل جاءت بإثبات الصفات، ونصوص الصفات في الكتب الإلهية أكثر وأعظم من نصوص المعاد.

ويقولون لهم: معلوم أن مشركي العرب وغيرهم كانوا ينكرون المعاد، وقد أنكروه على الرسول وناظروه عليه، بخلاف الصفات، فإنه لم ينكر شيئاً منها أحد من العرب.

لمن يشاء، ولكنْ هؤلاء المكابرون يُوكَلون على نظرهم وإلى عقولهم.

فالمقصود أن الأشاعرة عجَزوا عن الرد عليهم في نفي المعاد، وأن الفلاسفة قالوا لهم: أنتم تأولتم آيات الصفات ونصوصها وهي أكثر مما ذكر في المعاد، فكيف تنكرون علينا تأويل المعاد، وأنتم تتأولون الصفات؟! ما الفرق؟ فإن أنتم أوجبتم التأويل في الصفات؛ فنحن نقول بالتأويل في المعاد، فرد عليهم أهل السنة الذين التزموا ما جاء به رسول الله ﷺ.

قوله: «**الرسل جاءت بإثبات الصفات.. الخ**» يرد على هذا قوله جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الرعد: ٣٠]، وكذلك قوله في آية أخرى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

فالجواب أن هذا من باب عنادهم، فهم ردوا ذلك معاندة، وإلا فمعروف كلامهم، ولهذا ذكر الله عنهم في مكان آخر: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهم ردوا ذلك على رسول الله ﷺ عناداً، وقالوا: أنت تقول: اعبدوا الله وحده، وأنت تدعو إلهين تقول: يا الله، يا رحمن! فأنزل الله جل وعلا: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠][1]، فكلها معاندة.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٢٣).

فعُلِمَ أن إقرار العقول بالصفات أعظمُ من إقرارها بالمعاد، وأن إنكار المَعاد أعظمُ من إنكار الصفات، ....

وكذلك كلام سهيل بن عمرو المفاوض عن المشركين في يوم الحديبية ـ وقد أسلم فيما بعد وحسن إسلامه ـ لما قال الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**». قال سهيل: لا تكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)، ما نعرف الرحمن، ولكن اكتب كما كنا نكتب: باسمك اللهم. قال الرسول ﷺ: «**اكتب كما كانوا يكتبون**». فلما قال: «**اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله**» قال: لا تكتب محمد رسول الله، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. قال: «**امْحُ محمد رسول الله**»[1] إلى آخره، وكل هذا معاندة ومكابرة؛ لأنه رأى نفسه في موقف الذي يملي وينتصر، وهو ليس كذلك.

فالمقصود أن هؤلاء ما عرف عنهم أحد أنكر صفة الله، وإنما كان شركهم في دعوة بعض المخلوقات أن تتوسط لهم عند الله، ويقولون: إن هذا يُنْبئ عن تعظيم الله، ما نقصد بذلك تنقص رب العالمين؛ لأننا نرى عظماء الناس لا يؤتى إليهم رأساً، بل لابد أن تأتي بواسطة، فإتيان الواسطة من التعظيم، وهي واسطة مقربة من الله، أو أنها لا ذنوب لها، فتدعو لنا، فشرك المشركين كلهم من هذا الوجه، أما أنهم ينكرون أسماء الله أو ينكرون أفعاله فلم يعرف، وإنما أنكر ذلك هؤلاء المبتدعة الذين يتسترون بالتأويل أوالتفويض، أو يردون صراحةً، كالمعتزلة ونحوهم.

قوله: « **فعلم أن إقرار العقول بالصفات أعظم من إقرارها بالمعاد، وأن إنكار المعاد أعظم من إنكار الصفات**» هذا خطأ وعكس المعنى، والصواب أن يقال: «إنكار الصفات أعظم من إنكار المعاد»، فيجب أن تصلح هذه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧١٢، ٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة.

وكيف يجوز مع هذا أن يكون ما أخبر به من الصفات ليس كما أخبر به، وما أخبر به من المعاد هو على ما أخبر به.

وأيضاً فقد علم أنه ﷺ قد ذم أهل الكتاب على ما حرفوه وبدلوه، ومعلوم أن التوراة مملوءة من ذكر الصفات، فلو كان هذا مما حرف وبدل لكان إنكار ذلك عليهم أولى. فكيف وكانوا إذا ذكروا بين يديه الصفات يضحك تعجباً منهم وتصديقاً، ....

العبارة؛ لأن هذا تناقض، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يقل هذا، وإنما هذا وقع من النساخ.

ثم وجدت هذا صريحاً واضحاً في كتابه «درء التعارض»[1]، حيث قال: «بل إنكار صفات الله أعظم إلحاداً في دين الرسل من إنكار معاد الأبدان، فإن إثبات الصفات لله أخبرت به الرسل أعظم مما أخبرت بمعاد الأبدان، ولهذا كانت التوراة مملوءةً من إثبات صفات الله، وأما ذكر المعاد؛ فليس هو فيها كذلك» اهـ، وبهذا اتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن تلك العبارة مقلوبة من النساخ.

قوله: «**وكيف يجوز مع هذا أن يكون ما أخبر به من الصفات ليس كما أخبر به، وما أخبر به من المعاد هو على ما أخبر به**» هذا يدلك على أن العبارة السابقة خطأ، فهي عكس الأولى، وهذا يظهر أنه من النساخ، لكن الغريب أن مثل هذا الخطأ يمر على المحقق والمناقش، ولا يتنبه له.

قوله: «**وكانوا إذا ذكروا بين يديه الصفات يضحك تعجباً منهم وتصديقاً**» يشير إلى حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه لما جاء الحبر يقول: إن الله يضع السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع.. إلى آخره، يقول: فضحك

---

(١) (٥/٣٠٩ ـ ٣١٠).

ولم يَعِبْهم قط بما تَعيب به النفاةُ أهلَ الإثبات، مثل لفظ التجسيم والتشبيه ونحو ذلك، بل عابهم بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

حتى بدت نواجذه تصديقاً لما قال[(١)]، يعني أنه صدقه في قوله؛ لأن هذا اتفق مع ما جاء به، وكان ﷺ يعجبه إذا جاء اليهود بشيء متفق مع ما جاء به؛ لأنه تقوية لما عنده، ولأنه قد يدعوهم إلى الإيمان.

ولكن بعض الذين ما راقهم الأمر جاؤوا بكلام فيه جرأة عظيمة، كما عند بعض شراح البخاري من هؤلاء المعتزلة والأشاعرة، فإنهم قالوا: إن ضحك الرسول ﷺ تعجباً من جرأة اليهودي على التشبيه[(٢)]. فهل يضحك الرسول من الكفر!

وإن قيل لهم: إن ابن مسعود فهم غير هذا فقال: تصديقاً لما قال. فقالوا: الأمر سهل، نقول: إن هذا ظنٌّ وحسبانٌ من ابن مسعود، وإلا فهذا خلاف الواقع، فهذا قدر الصحابة عند هؤلاء.

يقول: «**ولم يعبهم قط بما تعيب به النفاة لأهل الإثبات**» بإثبات اليدين والرحمة والغضب والعلو وسائر الصفات، ويقولون: الصفات سبع فقط: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، والبقية يجب أن تُؤوّل، وإذا حقق عليهم السمع والبصر، فلا يؤمنون بحقيقته!

وكذلك الإرادة، يقولون: هي إرادة واحدة لكل المرادات، وهذا كلام باطل، وكذلك يقولون: الكلام معنىً واحد قام بذاته، وهو عبارة عن الخبر والاستفهام والأمر والكتب المنزلة على الرسل، كلها تعود إلى هذا.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) انظر: «الأعلام» للخطابي (٣/ ١٩٠٠)، «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٣٩٨).

وقولهم: استراح لما خلق السماوات والأرض، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. والتوراة مملوءة من الصفات المطابقة للصفات المذكورة في القرآن والحديث. وليس فيها تصريح بالمعاد كما في القرآن، فإذا جاز أن نتأول الصفات التي اتفق عليها الكتابان، فتأويل المعاد الذي تفرد به أحدهما أولى.

والثاني: مما يعلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أنه باطل، فالأول أولى بالبطلان.

وأما الصنف الثالث وهم أهل التجهيل؛ فهم كثير من المنتسبين إلى السنة وأتباع السلف، يقولون: إن الرسول ﷺ لم يكن يعرف

وقولهم: «**استراح لما خلق السماوات والأرض**» هذا كلام اليهود الذين هم من أشر خلق الله في رب العالمين، ولكن عبد الله بن المبارك ونحوه من العلماء الكبار يقول: إننا لنحكي كلام اليهود في الله ولا نستطيع أن نحكي كلام هؤلاء في الله[١]؛ لفظاعته وبعده عن الحق، ومخالفته لما جاءت به الرسل والعقل.

قوله: «**فإذا جاز أن نتأول الصفات التي اتفق عليها الكتابان فتأويل المعا الذي انفرد به أحدهما أولى**» يعني: أسهل، هذا يدلك على أن العبارة السابقة معكوسة.

قوله: «**الصنف الثالث، وهم أهل التجهيل**»، ويسمون أهل التفويض، ومعنى التفويض، أنهم يقولون: يفوض معناه إلى الله، ولا يعلم تأويله أحد

---

(١) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص١٥)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢١٦)، والخلال في «السنة» (٥/ ٨٥).

معاني ما أنزل الله عليه من آيات الصفات، ولا جبريل يعرف معاني تلك الآيات، ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك.

وكذلك قولهم في أحاديث الصفات: إن معناها لا يعلمه إلى الله، مع أن الرسول ﷺ تكلم بها ابتداء، فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه، ....

إلا الله، فإذا كانوا يقولون: إن الرسول لا يعرفه، فكيف بالسابقين الأولين ومن بعدهم؟ ولكن الإنسان لو نظر بمجرد عقله؛ ما الفائدة في أن الله جل وعلا يخاطبنا بشيء لا نعرف معناه؟! ولكن بعض الناس ـ نسأل الله العافية ـ قد لا يعقل ما يخرج من رأسه.

وهذا من أدلة قدرة الله العظيمة وآياته، أناس عقلاء ويتعلمون، ثم يصدر منهم هذا الكلام! وما ينبغي للإنسان أن يقول هذا من باب التهكم، أو من باب الازدراء والشماتة، بل يجب أن يكون من باب الاعتبار والاتعاظ والخوف؛ لأن الله قد يحول بين الإنسان وبين فهمه وعقله، ثم يتكلم بمثل هذه الأشياء نسأل الله العافية.

فإذا كان هذا المقصود من الشرع؛ فما من داع لخطاب الناس، بل تركهم على ما هم عليه أحسن من أن يخاطبوا بشيء لا يُفهم معناه، ولا يُدرى ما هو، وأدنى عاقل يتأمل هذا الكلام يعلم أنه من أبطل الباطل، وهذا القول أشر وأخبث من القول الذي قبله؛ وهو قول التأويل. وكل ما خالف الوحي شر لا يؤدي إلا إلى فساد العقول، وفساد الأديان، وفساد السلوك، وأخشى أن تكون عاقبة من يعيش على هذه العقيدة أن يقول مثلما يقول أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، أي: لا عقل ولا سماع يفيدهم.

ثم إنهم تأولوا هذه الآية ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهذا التأويل من

وهؤلاء يظنون أنهم اتبعوا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فإنه وقف كثير من السلف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهو وقف صحيح. لكن لم يفرقوا بين معنى الكلام وتفسيره، وبين التأويل الذي انفرد الله تعالى بعلمه. وظنوا أن التأويل المذكور في كلام الله هو التأويل المذكور في كلام المتأخرين، وغلطوا في ذلك.

أبعد ما يكون، غير أنه قد يقضى على الإنسان أيام محنته، فيرى حسناً ما ليس بحسن، نسأل الله العافية. وهذا يدل على أنهم لم يتلقوا العلم من مصدر يمكن أن يفيدهم، وإنما أخذوا العلم بعضهم عن بعض، وهذا الذي يؤدي إلى الجهل كما هو الواقع اليوم لكثير من الشباب وللأسف؛ يتعلمون على الإنترنت أو على بعضهم، فيقعون في أخطاء فظيعة، ثم يدعوهم هذا إلى انتقاد الناس، وانتقاد طلبة العلم، وأنهم خالفوا، وأنهم كذا وكذا.

فيجب على الإنسان أن يحرص أن تكون علومه على أصول ثابتة، يأخذها من مصدر ثابت ويتأكد من ذلك؛ لأنه أمر خطير، فلسنا أفضل من بعض هؤلاء، ولكن التوفيق بيد الله جل وعلا، وإذا قضى الله جل وعلا على إنسان بالانحراف أو بعدم الفهم؛ فلا حيلة فيه إلا أن يلجأ إلى ربه جل وعلا، ويسأله أن يعلمه كما علم آدم وإبراهيم وأولياءه، فيقول: يا معلم إبراهيم علمني، بصدق وإخلاص، فمن كان كذلك، فلابد أن يوفق بإذن الله تعالى.

يقول: «**وهؤلاء يظنون أنهم اتبعوا قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾**» يعني أنهم ظنوا أن هذا هو معنى الآية، والتأويل ثلاثة أقسام:

الأول: تأويل يقصد به حقائق الأشياء، هذا هو المراد بهذه الآية: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو الذي نقول فيه: الكيفية لا يعلمها إلا الله، فهذا هو المقصود بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي كيفيات

فإن التأويل يراد به ثلاث معاني:

فالتأويل في اصطلاح كثير من المتأخرين هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح، لدليل يقترن بذلك.

فلا يكون معنى اللفظ الموافق لدلالة ظاهره تأويلاً على اصطلاح هؤلاء وظنوا أن مراد الله بلفظ التأويل ذلك، وأن للنصوص تأويلاً مخالفاً لمدلولها لا يعلمه إلا الله، أو يعلمه المتأولون.

وحقائق ما يخبر عنه، فهذه إذا جاءت وعايشها الإنسان عرف تأويلها، مثل ما مر معنا أن الجنة فيها أشياء ما يدرى ما هي، فإذا دخلها الإنسان وصار يتنعم بها هناك؛ فإنه يعرف التأويل الذي أخبر الله جل وعلا به، ولهذا أخبر جل وعلا أن الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، يعترفون بأنهم مجرمون.

وأخبر جل وعلا أنه قد أتاهم بكتابهم لو تأملوه لاعتبروا، ثم يعترفون: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وأنهم يطلبون الرجوع أو يطلبون الشفاعة؛ لأنهم رأوا تأويله، وهو ما أخبر الله جل وعلا به.

ومن ذلك: ما أخبر الله جل وعلا عن يوسف وأبويه وإخوته، في نهاية القصة: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، يعني هذه حقيقة الرؤيا التي رآها.

والثاني: التأويل يطلق على الحقيقة كما أنه يطلق على التفسير، وهذان الإطلاقان معروفان في لسان السلف، أما **الثالث** فسيأتي.

قوله: «**التأويل يراد به ثلاث معاني**» فيجب أن نفهم معناه.

قوله: «**فالتأويل في اصطلاح كثير من المتأخرين**» هؤلاء هم أصحاب التجهيل، وهذه ظنون، فهو اصطلاح حادث، أما المتقدمون فلا يعرفون هذا، وليس هذا عندهم، ولا يسمونه تأويلاً، بل تحريفاً، كما حرف اليهود التوراة.

....

وقيد هذا بأنه: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح المتبادر إلى معنى لا يدل عليه إلا بقرينة دليل آخر، والدليل الآخر إذا جاء من الكتاب والسنة فله وجه يُقبل، وإلا فلا لا يجوز أن نقبله؛ لأن معناه أننا نرجع كتاب الله وسنة رسوله إلى عقولنا! وهذا لا يجوز، وهو الذي يفعله الآن المتأولة. فيقولون: إن القرائن العقلية دلَّت على أن الله ليس بجسم، وأن الله ليس له جوارح، ويسمون اليدين جارحة، والعين جارحة، وأن الله جل وعلا لا تقوم به الأعراض، وأن الله جل وعلا لا يكون أبعاضاً، وما أشبه ذلك، فهذه هي أدلتهم العقلية التي يرجعون إليها، كلام استنتجوه من عقائدهم الفاسدة، فجعلوه صارفاً لكلام الله جل وعلا عما دل عليه، فهم يدورون في الباطل حتى يكون كتاب الله متفقاً مع عقائدهم الفاسدة.

ونفس هذا الذي يقولونه أصله مردود وباطل، وكونه جل وعلا مستوياً على العرش لا يقتضي أنه جسم، ولكن هذا مثل ما مضى أنه قال: ارتسم التشبيه في أذهانهم أولاً، فظنوا أن هذه النصوص تدل على هذه التشبيه، فاجتهدوا في صرفها بهذه التأويلات الباطلة، أما إذا دلَّ عليه دليلٌ شرعي، وأظنه عسر جداً أن يأتي نص من الرسول ﷺ لا يدل على ظاهر اللفظ إلا بدليل آخر.

وقد ذكر الفقهاء مثالاً له، وهو قوله ﷺ: «**الجار أحق بصقبه**»[(١)]، فهذا يدل على أن الشفعة تجوز للجار، فجاء الدليل الذي يصرف هذا عن ظاهره، وهو قوله: «**إذا وقعت الحدود وصرفت الطرق؛ فلا شفعة**»[(٢)]، فدل على أن قوله: «**الجار**» يعني: الشريك، وليس الجار الذي محله جوار

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٧٧)، من حديث أبي رافع رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢١٣)، ومسلم (١٦٠٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

ثم كثير من هؤلاء يقولون: تجرى على ظاهرها، فظاهرها مراد. مع قولهم: إن لها تأويلاً بهذا المعنى لا يعلمه إلا الله، وهذا تناقض وقع فيه كثير من هؤلاء المنتسبين إلى السنة من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم.

والمعنى الثاني: أن التأويل هو: تفسير الكلام سواء وافق ظاهره أو لم يوافقه، وهذا هو التأويل في اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم، وهذا التأويل يعلمه الراسخون في العلم وهو موافق لوقف من وقف من السلف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

الثاني، فهذا الذي جعلوه مثالاً لهذا، وفي صفات الله لا يوجد مثل هذا.

يقول: «**تجرى على ظاهرها فظاهرها مراد، ثم يقولون: لا يعلم تأويلها إلا الله**» فما الفائدة من إجرائها على ظاهرها، مع أنه ليس لها معنىً؟ ومعنى ذلك أننا خوطبنا بألفاظ ما نعرف معناها.

ولكن لا نستطيع أن نمثل بمثل قوله: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿حمٓ﴾، ﴿نٓ﴾ وما أشبه ذلك؛ لأن هذه الحروف تكلم عليها العلماء وبينوا لها معاني، لكن هذا لا يستحق أن تأتي له بمثال أبداً؛ لأنه باطل.

يقول: «**وهذا تناقض**» أي هذا الكلام يناقض بعضه بعضاً.

قوله: «**وهو موافق لوقف من وقف من السلف**» يعني الوقوف على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، فيكون الوقف هنا، وكلاهما قال به بعض القراء.

والوقوف جاءت معينة؛ لأن الوقف يعينه المعنى، فإذا كان معنى الكلام الذي تقف عليه لا يرتبط بالأول؛ فهنا نقول: الوقف يجب، وإذا كان الكلام مرتبطاً بما بعده وله صلة به فلا يلزم الوقف، وهذا يعرفه أهل اللغة، وأهل التفسير، فمثلاً قول الله جل وعلا: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ

كما نقل ذلك عن ابن عباس ومجاهد ومحمد بن جعفر بن الزبير، ومحمد بن إسحاق، وابن قتيبة وغيرهم.

والمعنى الثالث: أن التأويل هي الحقيقة التي يؤول الكلام إليها، وإن وافقت ظاهره. فتأويل ما أخبر به في الجنة من الأكل والشرب واللباس والنكاح وقيام الساعة وغير ذلك، هو الحقائق الموجودة أنفسها، لا ما يتصور من معانيها في الأذهان ويعبر عنه باللسان، وهذا هو التأويل في لغة القرآن كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]، هل يجوز أن تقول: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾؟ أو تقف على ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾؟ لأن التسبيح لله جل وعلا، وليس للرسول، ولكن فهم هذا فيه احتمال.

ولهذا قال بعض العلماء: الوقف التام على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾. وبعضهم قال: الوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، يعني أنهم يعرفون تأويله.

أما القراءة بالوقف الأول؛ فإنه يبتدئ من قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، وكلاهما حق؛ لأننا إذا اعتبرنا الوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ جعلنا التأويل هذا، هو الحقائق التي يخبر الله جل وعلا عنها.

أما إذا كان الوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فمعنى ذلك أن المقصود بالتأويل التفسير، فالراسخون في العلم يعلمون التفسير، فيصبح كلا المعنيين صحيحاً، وقفت على هذا أو هذا.

قوله: «**كما نقل ذلك عن ابن عباس...**» يعني أنهم قالوا: نحن من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله، يعني التفسير، وكذلك الذين عطف عليه، وكلا القولين حق باعتبار، كما قد بسطناه في مواضع أخر،

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله.

فتأويل الصفات هو الحقيقة التي انفرد الله بعلمها، وهو الكيف المجهول الذي قال فيه السلف كمالك وغيره: «الاستواء معلوم والكيف مجهول»[١].

فالاستواء معلوم يعلم معناه وتفسيره ويترجم بلغة أخرى، وأما كيفية ذلك الاستواء فهو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه ما ذكره عبد الرزاق وغيره في تفسيرهم عنه أنه قال: «تفسير القرآن على أربعة أوجه: ....

ولهذا نُقل عن ابن عباس هذا وهذا، وكلاهما حق[٢].

قوله: «**ذلك خير وأحسن تأويلاً**» يعني أحسن عاقبة على هذا القول.

قوله: «**وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله**» حقيقة الشيء المخبر عنه لا يعلم حقيقته إلا الله، ومن ذلك: لا يعلم مجيء الساعة إلا الله، ومثل ذلك: الحياة البرزخية، فلا يدرى متى تأتي وما حقيقتها إلا الله، ثم الذي يعايشها، ولكن نحن الآن نقول: ما يعلم تأويله إلا الله.

وقول ابن عباس «**تفسير القرآن على أربعة أوجه**» يعني: أن هذه الأمور على حسب ما خوطبنا به والذي يعرفه أهل اللغة، فكل من عرف اللغة،

---

(١) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٠٤)، واللالكائي في «أصول الاعتقاد» (٦٦٣).
(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٢١٧)، «تفسير السمعاني» (١/ ٢٩٥).

تفسير تعرفه العرب من كلامها، ....

يعرف معنى ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، ويعرف معنى ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ ويعرف معنى ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وهذا ظاهر.

فالذي لا يعذر أحد بجهله، فهي الأمور التي وجبت عليك، فيجب أن تعرف معنى إقامة الصلاة، وكيف تؤدي الزكاة، وكيف تتطهر، كما في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، إلى آخره، على حسب ما بينه الرسول ﷺ.

وهكذا الأحكام أيضاً، فتعرف كيف تبيع وتشتري بالأمر السليم الذي ليس فيه حرام؛ لأنك مكلف بهذا. وكذلك الأمور التي تلزمك في جميع الأحكام، مثلاً إذا أردت أن تتزوج فيجب أن تعرف أحكام الزواج، وأحكام الطلاق، وأحكام الرجعة، فلا تنظر الناس ماذا يصنعون فتصنع مثلهم.

ولما أُخِلَّ بهذا كثيراً أصبحت مشاكل في الواقع، فتجد الإنسان ـ وهذا وقع كثيراً وللأسف من طلبة العلم ـ إذا حدثت مشكلة بينه وبين زوجته قال: أنت طالق. ثم قال لها: اذهبي لأهلك، فكل هذا حرام لا يجوز، وخلاف أمر الله جل وعلا، فإذا أراد أن يطلق يجب أن يتثبت، ويجب أن يكون طلاقه في طهر لم يمسها فيه، فلا يجوز أن يطلقها في طهر قد قاربها فيه، ثم إذا أراد أن يطلق يجب أن تكون تطليقة واحدة، فلا يقول: أنت طالق كذا وكذا، ثم إذا طلقها يجب أن تبقى في بيتها ولا تخرج منه، فكل هذه مخالفات للنصوص من كتاب الله، والسبب: أنهم لا يعرفون الأحكام ولا يتعلمونها ولا يهتمون بها.

وللأسف أمور الحج كلها بهذه الطريقة، بعضهم ينظر لبعض، ويصنع كما يصنع، فتقع أخطاء عظيمة، ولهذا تقع مشاكل الله أعلم بها.

فالمقصود أن كلام ابن عباس هذا يقول: «**تعرفه العرب من كلامها**» يعني

وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله ﷻ، من ادعى علمه فهو كاذب»[(١)].

وهذا كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال النبي ﷺ: «**يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[(٢)].

وكذلك علم الساعة ونحو ذلك، فهذا من التأويل الذي لا يعلمه

يعرفه أهل الخطاب واللغة من القرآن.

وكذلك «**تفسير لا يعذر أحد بجهالته**»، يعني: تفسير الأمور التي وجبت علينا، وخوطبنا بها، فيجب أن نعرفها.

ثم «**تفسير يعرفه العلماء**» وهذه هي التي يتفاوت العلماء فيها في استنتاج الأحكام والمعاني الدقيقة التي يكون بعضهم مبرزاً فيها وبعضهم قد وصل الغاية وبعضهم أقل.

قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ دخل في ذلك الملائكة والرسل وغيرهم، فإذا كان هذا في شيء مخلوق؛ فكيف بما هو من صفات الله تعالى.

وقوله: «**لا عين رأت، ولا أذن سمعت**» يعني مما يتنعم به أهل الجنة من المرئي والمسموع والمطعوم والمشروب أعظم وألذ عدا رؤية الله تبارك وتعالى نسأل الله من فضله.

قوله: «**وكذلك علم الساعة**» يعني لا يعلمها إلا الله، والمقصود بعلم الساعة هو معرفة وقت مجيئها، والساعة هي النفخ في الصور، وقد سبق أن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٢٥٣)، والطبري (١/ ٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إلا الله وإن كنا نفهم معاني ما خوطبنا به ونفهم من الكلام ما قصد إفهامنا إياه كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، فأمر بتدبر القرآن كله لا بتدبر بعضه.

النفخ في الصور ـ على القول الصحيح ـ مرتان، وقال كثير من العلماء: إنه ثلاث مرات، والله أعلم.

فإذا نفخ في الصور فإن الخلق كله يموت، وتفنى الحيوانات كلها، وهذا الكون يتغير، ولهذا أكثر جل وعلا من ذكر ذلك فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٦].

وقال: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ١ ـ ٥]، العهن هو القطن المنتفش، ثم تذهب هباءً لا وجود لها، وهذا من شدة اضطراب الأرض العظيم، فلا يمكن أن يبقى عليها حي.

وبعد ذلك تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، ويبرز الخلق كلهم لله جل وعلا، والأرض تمد كما قال الرسول ﷺ مد الأديم[1]، والأديم هو الجلد المدبوغ، قد يكون فيه مثاني، فيتقابل عليه اثنان ويمدونه حتى يتسع، فالأرض هكذا، تتوسع حتى تتسع للخلق كلهم، فيقفون عليها.

والمقصود أن الحقائق نفسها، كالوقوف ما ندري متى يكون، وكذا مجيء الساعة.

أما المعاني؛ فهي معروفة، فالجنة اسم للنعيم الذي يكون فيها، والنار اسم لكل بلاء وكل عذاب نسأل الله العافية، ومع ذلك أخبرنا أن فيها سلاسل وأغلالاً، وأن فيها مقامع من حديد، نسأل الله العافية، وفيها زبانية

---

(١) أخرجه أحمد (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٤٠٨١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يُقرِئون القرآن؛ عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً[١].

يعذبون الناس، ولها أبواب، وعليها أعمدة مؤصدة وممددة، يعني أنها مغلقة والأعمدة عليها من الداخل، يشاهدونها، هل يمكن أن يخرجوا؟ ولكن هذا تنكيل لهم حتى يكون التعذيب للبدن وللنفس، والعمود لو اجتمع عليه الثقلان ما أزالوه، فالمقصود أن المعاني معلومة لنا، أما حقيقتها فستأتي وستشاهد.

قوله: «**فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً**» يعني ما كان همهم أن يحفظوا ويجمعوا المعلومات فقط، فهذه لا تفيد وحدها شيئاً، بل قد تكون وبالاً، فهم إنما كان همهم العمل. مع أنهم أهل اللسان، وهم الذين تربوا على يدي رسول الله ﷺ، وتلقوا الإيمان منه والعلم فزكوا، ولذلك كان الرجل يسمع الكلمة من رسول الله ﷺ فتتغير حاله كلها، فتصير حاله غير الأولى بكلمة واحدة، فأثرُ تعليمه وتربيته لا يمكن أن يكون لأحد من الخلق غيره، ومع ذلك عندهم الحرص على العمل وطلب الخير.

فهذا عبد الله بن عمر بقي يتعلم سورة البقرة سبع سنوات[٢]، والآن نحفظها في أسبوع، بل صاروا يحفظون القرآن في أقل من شهر! أيفيدنا هذا بدون عمل وبدون معرفة! فمجرد الحفظ فقط إنما هو عبارة عن نسخة من المصحف.

ومثل ذلك: الحديث، فكوننا نحفظ الكتاب بدون فقه فلا فائدة في ذلك، ولهذا لما أخبر الرسول ﷺ عن رفع العلم قال: «إن العلم يرفع في

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٧٤).
(٢) أخرج مالك في «الموطأ» بلاغاً (٥٤٦).

وقال مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس رضي الله عنهما من فاتحته إلى خاتمته، أقف عند كل آية أسأله عنها»[١].

وقال الشعبي: «ما ابتدع أحد بدعة وإلا وفي كتاب الله بيانها».

وقال مسروق: «ما قال أصحاب محمد ﷺ عن شيء إلا وعلمه في القرآن، ولكن علمنا قَصَر عنه»[٢].

آخر الزمان». فقال رجل من الصحابة: كيف يا رسول الله، نحن تعلمنا العلم وسنعلمه أبناءنا، وأبناؤنا يعلمون أبناءهم وهكذا. فقال: «**كنت أظن أنك من أفقه الناس! هذا كتاب الله عند اليهود، نفعهم؟**»[٣]، فمجرد الحفظ لا ينفع، بل الفقه والعمل، والعلم إنما نزل للعمل.

قول مجاهد: «**عرضت المصحف..**» جاء أنه عرضه ثلاث مرات من أوله إلى آخره، يسأله عن كل آية، ولهذا اعتمد البخاري في صحيحه على تفسير مجاهد؛ لأن الرسول ﷺ قال لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»[٤]، ومجاهد أخذ التأويل عن ابن عباس، فهذا الذي قصده البخاري، والمقصود بهذا حرصهم على المعرفة وعلى العمل والعلم، فمجاهد أخذ العلم من كتاب الله، لا من الفلسفة، ولا من العقول، ولا من غيرها، وهكذا السلف.

قول مسروق: «**ما قال أصحاب محمد ﷺ عن شيء إلا وعلمه في القرآن**» يعني أن الأقوال التي يقولها الصحابة، والأحكام التي يذكرونها؛ إنما أخذوها من القرآن، «**ولكن علمنا قَصَر عنه**» أي أننا لا ندرك ذلك، فهم

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٢٨٧)، والدارمي (١١٦٠).

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٩٩٠)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (١/ ٧٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٩٠٩)، من حديث عوف بن مالك.

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٩٧).

وهذا باب واسع قد بسط في موضعه.

والمقصود هنا التنبيه على أصول المقالات الفاسدة التي أوجبت الضلالة في باب العلم والإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وأن من جعل الرسولَ غيرَ عالم بمعاني القرآن الذي أنزل إليه، ولا جبريل جعله غير عالم بالسمعيات، لم يجعل القرآن هدى ولا بياناً الناس.

ثم هؤلاء ينكرون العقليات في هذا الباب بالكلية، فلا يجعلون عند الرسول ﷺ وأمته في باب معرفة الله ﷻ لا علوماً عقلية ولا سمعية. وهم قد شاركوا في هذا الملاحدة من وجوه متعددة، وهم مخطئون فيما نسبوه إلى الرسول ﷺ وإلى السلف من الجهل، كما أخطأ في ذلك أهل التحريف والتأويلات الفاسدة وسائر أصناف الملاحدة.

أعلم الأمة بكتاب الله، وهم أيضاً أعقل الأمة وأعمقها عقولاً وأقلها تكلفاً كما هو معلوم، وأن الله اختارهم لصحبة رسوله ﷺ، فجعلهم الواسطة بينه وبين الأمة في نقل الشرع وتبليغه.

قوله: «**من جعل الرسول غير عالم بمعاني القرآن الذي أنزل إليه**» وهذا خلاف ما أخبر الله جل وعلا به، وهذا يجعل الإنسان متيقناً بأن ما يقولونه باطل، وهو كذلك، فالرسول ﷺ يقول الله تعالى عنه: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠] فإذا كانت هداية الرسول ﷺ بالوحي؛ فكذلك غيره لا يهتدي إلا بما أوحاه الله تعالى إليه.

قوله: «**هؤلاء ينكرون العقليات**» قد يقول قائل: نحن لسنا بحاجة إلى هؤلاء وذكر مذاهبهم؛ لأننا ـ والحمد لله ـ نؤمن بكتاب الله على أنه هدى ونور وحق وأن العلم فيه، وأن من اتبعه فإنه على الحق بلا شك، فما الفائدة من ذكر ذلك؟

ونحن نذكر من ألفاظ السلف بأعيانها وألفاظ من نقل مذهبهم بحسب ما يحتمل هذا الموضع ما يعلم به مذهبهم.

روى أبو بكر البيهقي في الأسماء والصفات[١] بإسناد صحيح، عن الأوزاعي قال: كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله ـ تعالى ذِكرُه ـ فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته.

فقد حكى الأوزاعي ـ وهو أحد الأئمة الأربعة في عصر تابعي التابعين، الذين هم مالك إمام أهل الحجاز، والأوزاعي إمام أهل الشام، والليث إمام أهل مصر، والثوري إمام أهل العراق ـ حكى شهرة القول في زمن التابعين بالإيمان بأن الله فوق العرش، وبصفاته السمعية.

وروى أبو بكر الخلال في «كتاب السنة» عن الأوزاعي قال:

نقول: في وقت المؤلف رَحِمَهُ اللهُ كان اتباع مثل هؤلاء هو السائدَ عند الناس، وهذا من أغرب ما يكون، فكاد أن يقضى على الحق الذي هو مذهب السلف من الصحابة والتابعين، وصار السائد في الناس هو مذهبَ التأويل، أو مذهب التجهيل، وهذا الذي دعاه إلى هذا الكلام والتفصيل فيه.

والأمور تحسنت ـ والحمد لله ـ في وقتنا أكثر من ذلك الوقت، غير أن العلماء قلوا، ولا تزال الانحرافات ونبذ كتاب الله وراء الظهر، والاعتياض عنه بالقوانين الوضعية ومناهج المنحرفين.

قوله: **«ونحن نذكر من ألفاظ السلف بأعيانها وألفاظ من نقل مذهبهم»** الآن يبدأ بالنقول عنهم وقد أطال فيها، حتى أنه يذكر جملاً من كتب طويلة،

---

(١) (٢/ ٣٠٤) رقم (٨٦٥).

سُئل مكحول والزهري عن تفسير الأحاديث، فقالا: أَمِرُّوها كما جاءت[1].

ورُوي أيضاً عن الوليد بن مسلم أنه قال: سألتُ مالكَ بن أنس، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي عن الأخبار التي جاءت في الصفات فقالوا: أمِرُّوها كما جاءت. وفي رواية: فقالوا: أمِرَّها كما جاءت بلا كيف.

فقولهم ﷺ: أمِرُّوها كما جاءت. ردٌّ على المعطلة، وقولهم: بلا كيف. رد على الممثلة. والزهري ومكحول هما أعلم التابعين في زمانهم، والأربعة الباقون هم أئمة الدنيا في عصر تابعي التابعين.

وهذه النقول تنوعت عنده؛ نقل عن المتكلمين، وعن الصوفية، وعن المفسرين، وعن الفقهاء وغيرهم؛ ليدلل على أن إثبات الصفات أمرٌ مجمعٌ عليه سابقاً ولا خلاف فيه، وإن كان بعض الألفاظ التي في هذه النقول لا يوافق عليها؛ لأن فيها باطلاً، وفيها أشياء ليست على المنهج الصحيح، فإذا مرَّت معنا سنبينها إن شاء الله. ولكن لا نقف عند هذه النقول، حتى نأتي إلى آخر الكتاب الذي هو: النتيجة التي أرادها المؤلف.

قوله: «**أمروها كما جاءت**» معناها لا تتأولوها، فهي واضحة ولا تحتاج إلى تفسير، هذا معنى «**أمروها كما جاءت**» وسيأتي في بعضها: «لا تفسر»[2]، أي لا يجوز أن تُؤول، لا أن نمسك عن بيان معناها.

فقولهم: «**أمروها كما جاءت**» تدل أيضاً على أن المقصود بها ظاهر وبيّن

---

(١) انظر: «الأسماء و الصفات» للبيهقي (٢/ ٣٧٧).

(٢) انظر: «الشريعة» للآجري (٣/ ١١٤٦)، و«الإبانة» لابن بطة (٧/ ٢٤١)، وجاء بيانها من طرق أخرى بلفظ: الكيفية، انظر: «الاعتقاد» للالكائي (٣/ ٥٨٢)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ٣٧٧).

وإنما قال الأوزاعي هذا بعد ظهور أمر جهم المنكِر لكون الله فوق عرشه، والنافي لصفاته، ليعرف الناس أن مذهب السلف كان خلاف ذلك.

ومن طبقتهم حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وأمثالهما.

روى أبوالقاسم الأزجي بإسناده عن مطرِّف بن عبد الله، قال: سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول: قال عمر بن عبد العزيز: سَنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سنناً، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد من خلق الله تغييرها ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتدٍ، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولَّاه الله ما تولَّى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً[1].

وروى الخلال بإسناد كلهم أئمة ثقات عن سفيان بن عيينة، قال: «سُئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟ قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ المبين، وعلينا التصديق».

ولا يحتاج إلى تفسير ولا يحتاج إلى تكلف، وإلا كيف تمر؟ تمر شيئاً لا يفهم! هذا لا يمكن! ومعنى ذلك أنها على ظاهرها، ويجب أن تقفوا على الظاهر، وتعتقدوه وتؤمنوا به، هذا معنى «بلا كيف»، أي هذا يدل عليه كلامه ظاهراً.

---

(١) «الشريعة» للآجري (١/٤٠٧).

وهذا الكلام مروي عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة من غير وجه.

منها: ما رواه أبو الشيخ الأصبهاني، وأبو بكر البيهقي، عن يحيى بن يحيى قال: كنا عند مالك بن أنس، فجاء رجل، فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى؟، فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرُّحَضَاء، ثم قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً، ثم أمر به أن يُخرج» اهـ[١].

فقول ربيعة ومالك: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول» موافقٌ لقول الباقين: أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف. فإنما نفوا علم الكيفية، ولم ينفوا حقيقة الصفة.

ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله، لما قالوا: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول»، ولما قالوا: أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف، فإن الاستواء حينئذٍ لا يكون معلوماً، بل مجهولاً بمنزلة حروف المعجم.

وأيضاً: فإنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية، إذا لم يفهم من اللفظ معنى، وإنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات.

وأيضاً: فإن من ينفي الصفات الخبرية أو الصفات مطلقاً لا يحتاج أن يقول: بلا كيف. فمن قال: إن الله تبارك وتعالى ليس على العرش. لا يحتاج أن يقول: بلا كيف، فلو كان من مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا: بلا كيف.

....

(١) «الرد على الجهمية» للدارمي (١٠٤)، «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي (٦٦٤).

وأيضاً: فقولهم: «أمِرُّوها كما جاءت» يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه، فإنها جاءت ألفاظاً دالة على معاني، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال: أمِرُّوا ألفاظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد، أو أمِرُّوا ألفاظها مع اعتقاد أن الله لا يُوصف بما دلت عليه حقيقة، وحينئذ فلا تكون قد أُمِرّت كما جاءت، ولا يقال حينئذ: بلا كيف. إذ نفي الكيفية عما ليس بثابت لغو من القول.

وروى الأثرم في السنة وأبو عبد الله بن بطة في الإبانة[١]، وأبو عمر الطلمنكي وغيرهم، بإسناد صحيح، عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون ـ وهو أحد أئمة المدينة الثلاثة الذين هم مالك بن أنس، وابن الماجشون، وابن أبي ذئب ـ وقد سئل فيما جحدت به الجهمية:

«أما بعد: فقد فهمتُ ما سألتَ عنه فيما تتايعت الجهمية ومن خلفها في صفة الرب العظيم الذي فاقت عظمته الوصف والتقدير وكَلَّت الألسن عن تفسير صفته، وانحسرت العقول دون معرفة قدره، ردت عظمته العقول فلم تجد مساغاً فرجعت خاسئة وهي حسيرة، وإنما أُمروا بالنظر والتفكر فيما خلق بالتقدير، وإنما يقال: كيف؟ لمن لم يكن ثم كان.

قوله: **«وإنما أُمروا بالنظر والتفكر فيما خلق بالتقدير»** يعني المخلوقات فهي التي يطلب كيفيتها، أما صفات الله جل وعلا؛ فلا يجوز أن تطلب كيفيتها؛ لأنه لا يمكن أن يطلع عليها.

مثل الذرة كيف تعرف لها أمعاء؟ كيف تعرف لها سمعاً؟ كيف تعرف لها بصراً؟ وهي مخلوق صغير، فهذا يدل على ضعفنا وضعف إدراكنا،

---

(١) «الإبانة» (٧/ ٦٣).

فأما الذي لا يحول ولا يزول، ولم يَزَلْ، وليس له مِثل، فإنه لا يَعلم كيف هو إلا هو، وكيف يُعرف قدر من لم يبْدُ ومن لم يمت، ولا يبلى، وكيف يكون لصفة شيء منه حد أو منتهى؟ يعرفه عارف أو يحد قدره واصف على أنه الحق المبين، لا حق أحق منه، ولا شيء، أبين منه. الدليل على عجز العقول في تحقيق صفته، عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه، لا تكاد تراه صغراً يحول ويزول، ولا يرى له سمع ولا بصر. لما يتقلب به ويحتال من عقله، أعضل بك وأخفى عليك مما ظهر من سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين، وخالقهم وسيد السادات، وربهم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

اعرف ـ رحمك الله ـ غناك عن تَكلُّف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها، إذا لم تعرف قدر ما وصف، فما تكلفك علم ما لم يصف، هل تستدل بذلك على شيء من طاعته، أو تنزجر به عن شيء من معصيته؟

فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقاً وتكلفاً فقد ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١]، فصار يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن قال: لا بد إن كان له كذا من أن يكون له كذا، فَعَمي عن البيِّن بالخفي، وجحد ما سمى الرب من نفسه بصمت الرب عما لم يسم منها، فلم يزل يملي

وهكذا يكون في الإنسان المرض وما يدري أين هو؟ ولا كيف يعالجه؟

بل إن روحك التي بين جنبيك ما تدري أيش حقيقتها التي هي الحياة، وقد أخبر عنها أنها تصعد وتأتي وتفارق وأنها تعلم وتنعم وهكذا، فكيف يطمع المخلوق الضعيف بأن يدرك شيئاً من حقائق صفات الله.

له الشيطان حتى جحد قول الرب ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. فقال: لا يراه أحد يوم القيامة. فجحد والله أفضلَ كرامة الله التي أكرم بها أولياءه يوم القيامة من النظر إلى وجهه، ونضرته إياهم: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]،

قوله: «**جحد قول الرب** ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾»، يعني: جحد رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

وقوله: «**ناضرة**» بالضاد، وهي من النّضرة والنعيم والبهاء، فتنعموا في الجنة فأصبحت نضرتهم من أحسن ما يكون من جراء النعيم الذي يتنعمون به.

وأما «**ناظرة**» فهي من النظر؛ تنظر بأعينها إلى ربها، وهذا يدلنا على أن النظر إلى الله أعلى ما يتنعمون به، وهو كذلك كما قال جل وعلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، ومحمد بن إسحاق. وفي المسند عن صهيب أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار؛ نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم**» ورواه مسلم وغيره»[١].

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه.

وقد قضى أنهم لا يموتون، فهم بالنظر إليه يُنَظَّرون.

إلى أن قال: وإنما جحد رؤية الله يوم القيامة إقامة للحجة الضالة المضلة؛ لأنه قد عرف أنه إذا تجلى لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين، وكان له جاحداً.

وقال المسلمون: يا رسول الله، هل نرى ربنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تُضَارُّون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟**». قالوا: لا. قال: «**فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟**» قالوا: لا. قال: «**فإنكم ترون ربكم كذلك**»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**لا تمتلئ النار حتى يضع الجبار فيها قدمه، فتقول: قط قط، وينزوي بعضها إلى بعض**»[(٢)].

وقال لثابت بن قيس رضي الله عنه: «**لقد ضحك الله مما فعلت بضيفك البارحة**»[(٣)].

قوله: «**وقد قضى أنهم لا يموتون، فهم بالنظر إليه يُنَظَّرون**» يعني ينعمون.

قوله: «**قط قط**»، يعني اكتفيتُ، حسبي، ليس فيَّ متسع، أي: أنها امتلأت، فهي تتضايق على أهلها، فيصبح ليس فيها مكان لغير من فيها، وهذا جاء تفصيله في حديث رسول الله ﷺ.

وحديث ثابت بن قيس فيه أن الرسول ﷺ أضاف رجلاً، فأرسل إلى إحدى أمهات المؤمنين: هل عندكم شيء؟ فقالوا: ليس عندنا شيء، وهكذا أرسل للبقية، كل زوجات الرسول ﷺ تقول: ليس عندنا شيء، فقال ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٤٥٨١)، (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٨)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٨٩)، وأخرجه مسلم (٢٠٥٤) من غير ذكر «الضحك».

وقال فيما بلغنا: «**إن الله ليضحك من أزلكم وقنوطكم وسرعة إجابتكم**» فقال له رجل من العرب: إن ربنا ليضحك؟ قال: «**نعم**». قال: «**لا نعدم من رب يضحك خيراً**»[1]، في أشباه لهذا مما لم نحصه.

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، ....

«**من يضيف ضيف رسول الله؟**». فقال ثابت بن قيس: أنا. فأخذه فذهب به إلى بيته، فقال لزوجته: هل عندك شيء؟ قالت: ليس عندي إلا عشاء الصبيان. فقال: نقدمه للضيف، ثم إذا قُدم سأذهب إلى السراج كأني أصلحه، فأطفئه، ثم أجلس معه كأني آكل، ولن آكل شيئاً، أما الصبيان فنوميهم، وفي الصباح يأتي الله بالخير، ففعلوا هذا، فلما قدم الطعام، ذهب وأطفأ السراج، ثم جلس معه يحدثه ويوهمه أنه يأكل في الظلام حتى شبع الضيف، وأكل الطعام. فجاء الوحي إلى رسول الله بهذا الصنيع فقال ﷺ: «**عجب الله من صنيعك في ضيفك البارحة**»، والشيء الذي يعجب ربنا جل وعلا يعني يرضيه، فهذا من حرصهم على الخير، وعلى رضا رسول الله ﷺ.

وقوله ﷺ: «**إن الله ليضحك**» فالله يوصف بالضحك والعجب، وليس كضحك المخلوق، ولا عجبه كعجب المخلوق، فهو ـ جل وعلا ـ ليس كمثله شيء، وكذلك صفاته تخصه ولا يشاركه فيها مخلوق، تعالى ربنا وتقدس.

قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي أن من صفات الله العينين، وهي جاءت مجموعة، كما جاءت مفردة في القرآن. والسبب في هذا: أن الفصحى من لغة العرب أن المثنى إذا أضيف إلى نون الجمع فإنه يجمع، وإذا أضيف إلى ياء المتكلم فإنه يفرد، ففي القرآن جاءت «العين» بهذه الطريقة، إما أن تضاف إلى ضمير الجمع «نا» فتجمع، وإما أن تضاف إلى ياء المتكلم فتفرد.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦١٨٧)، وابن ماجه (١٨١)، من حديث أبي رزين العقيلي ﷺ.

وقال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. فوالله ما دلَّهم على عِظَم ما وصف من نفسه، وما تحيط به قبضته إلا صغر نظيرها منهم عندهم، إن ذلك الذي أُلقي في روعهم، وخُلق على معرفة قلوبهم، فما وصف الله من نفسه فسماه على لسان رسوله ﷺ سميناه كما أسماه ولم نتكلف منه صفة ما سواه لا هذا ولا هذا، لا نجحد ما وصف، ولا نتكلف معرفة ما لا يصف.

اعلم ـ رحمك الله ـ أن العصمة في الدين أن تنتهي في الدين حيث انتهى بك، ولا تجاوز ما قد حد لك، فإن من قِوام الدين معرفة المعروف وإنكار المنكر، فما بسطت عليه المعرفة، وسكنت إليه الأفئدة وذكر أصله في الكتاب والسنة، وتوارث علمه الأمة، فلا تخافن في ذكره وصفته من ربك ما وصفه من نفسه عيباً، ولا تكلفن لما وصف لك من ذلك قدراً.

وما أنكرته نفسك، ولم تجد ذكره في كتاب ربك، ولا في الحديث عن نبيك من ذكر ربك، فلا تتكلفن علمه بعقلك، ولا تصفه بلسانك، واصمت عنه كما صمت الرب عنه من نفسه، فإن تكلفك معرفة ما لم يصف من نفسه كإنكار ما وصف منها، فكما أعظمت ما جحد الجاحدون مما وصف من نفسه؛ فكذلك أعظمُ التكلف ما وصف الواصفون مما لم يصف منها.

فقد ـ والله ـ عز المسلمون الذين يعرفون المعروف وبمعرفتهم يعرف، وينكرون المنكر وبإنكارهم ينكر، يسمعون ما وصف الله به

....

نفسه من هذا في كتابه، وما يبلغهم مثلهم عن نبيه، فما مرض من ذكر هذا وتسمية قلب مسلم ولا تكلف صفة قدره ولا تسميته غيره من الرب مؤمن. وما ذكر عن الرسول ﷺ أنه سماه من صفة ربه فهو بمنزلة ما سمى وما وصف الرب من نفسه.

والراسخون في العلم الواقفون حيث انتهى علمهم، الواصفون لربهم بما وصف من نفسه، التاركون لما ترك من ذكرها لا ينكرون صفة ما سمى منها جحداً، ولا يتكلّفون وصفه بما لم يُسم تعمُّقاً، لأن الحقَّ تركُ ما ترك وتسميةُ ما سمَّى، ومن يتبع ﴿غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وَهَبَ اللهُ لنا ولكم حُكْماً، وألحَقَنا بالصالحين» اهـ.

وهذا كله كلام ابن الماجشون الإمام فتدبره، وانظر كيف أثبت الصفات ونفى علم الكيفية موافقة لغيره من الأئمة. وكيف أنكر على من نفى الصفات بأنه يلزم من إثباتها كذا وكذا كما تقوله الجهمية: أنه يلزم أن يكون جسماً أو عَرَضاً فيكون محدثاً.

وفي كتاب «الفقه الأكبر» المشهور عند أصحاب أبي حنيفة الذي رووه بالإسناد عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي أنه قال: سألت أبا حنيفة عن الفقه الأكبر؟ فقال: «لا تكفرن أحداً بذنب، ولا تنفِ أحداً به من الإيمان، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر،

هذا الذي ذكره ابن الماجشون هو قول السلف، حيث تقيدوا بكتاب الله وسنة رسوله، لا يتجاوزونهما، وكما أن هذا هو الواجب على كل مسلم، فالعقل أيضاً يقتضيه؛ لأن الله تعالى لا يجوز عليه القياس، وهو تعالى غيب، فلا بد من الوقوف مع خبره تعالى عن نفسه، وخبر رسوله، ومن تعدى ذلك ضلّ ولا بد، وبهذا يُعلم أن مذهب أهل السنة هو الحق المتعين اتباعه، ومن حاد عنه فهو ضال تائه.

وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولا تتبرأ من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا توالي أحداً دون أحد، وأن ترد أمر عثمان وعليّ إلى الله ﷻ».

قال أبو حنيفة: «الفقه الأكبر في الدين خير من الفقه في العلم، ولأن يفقه الرجل كيف يعبد ربه خير من أن يجمع العلم الكثير» اهـ.

قال أبو مطيع: قلت: أخبرني عن أفضل الفقه؟ قال: «تعلم الرجل الإيمان والشرائع والسنن، والحدود، واختلاف الأئمة، وذكر مسائل الإيمان، ثم ذكر مسائل القدر، والرد على القدرية بكلام حسن ليس هذا موضعه».

ثم قال: قلت: فما تقول فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فيتبعه على ذلك أناس، فيخرج على الجماعة: هل ترى ذلك؟ قال: «لا». قلت: ولِمَ؟ وقد أمر الله ورسوله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو فريضة واجبة؟ قال: «كذلك، ولكن ما يفسدون أكثر مما يصلحون، من سفك الدماء واستحلال الحرام».

قال: وذكر الكلام في قتال الخوارج والبغاة، إلى أن قال: قال أبو حنيفة عمن قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض: فقد كفر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وعرشه فوق سبع سماوات.

قلت: فإن قال: إنه على العرش استوى، ولكنه يقول: لا أدري العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر. لأنه أنكر أن يكون في السماء، لأنه تعالى في أعلى عليين، وأنه يدعى من أعلى

....

لا من أسفل، وفي لفظ سألت أبا حنيفة عمن يقول: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض. قال: قد كفر. لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ وعرشه فوق سبع سماوات، قال: فإنه يقول: ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ولكن لا يدري العرش في الأرض أو في السماء. قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر.

ففي هذا الكلام المشهور عن أبي حنيفة عند أصحابه أنه كَفَّر الواقف الذي يقول: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض. فكيف يكون الجاحد النافي الذي يقول: ليس في السماء أو ليس في الأرض ولا في السماء؟ واحتج على كفره بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ قال: وعرشه فوق سبع سماوات.

وبَيَّنَ بهذا أن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ يبين أن الله فوق السماوات، فوق العرش، وأن الاستواء على العرش دل على أن الله نفسه فوق العرش، ثم أردف ذلك بتكفير من قال: إنه على العرش استوى. ولكن توقف في كون العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: لأنه أنكر أنه في السماء، لأن الله في أعلى عليين، وأنه يُدعَى من أعلى لا من أسفل، وهذا تصريح من أبي حنيفة بتكفير من أنكر أن يكون الله في السماء، واحتج على ذلك بأن الله تعالى في أعلى عليين، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل.

وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية، فإن القلوب مفطورة على الإقرار بأن الله في العلو، وعلى أنه يدعى من أعلى لا من أسفل، وقد جاء اللفظ الآخر صريحاً عنه بذلك، فقال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر.

. . . .

وروى هذا اللفظ عنه بالإسناد شيخُ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري الهروي بإسناده في كتاب «الفاروق».

وروى هو أيضاً وابنُ أبي حاتم أن هشام بن عبيد الله الرازي صاحب محمد بن الحسن، قاضي الرَّي حبس رجلاً في التجهم، فتاب فجيء به إلى هشام ليطلقه، فقال: الحمد لله على التوبة. فامتحنه هشام، فقال: أتشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه؟ فقال: أشهد أن الله على عرشه، ولا أدري ما بائن من خلقه. فقال: ردوه إلى الحبس، فإنه لم يتب.

وروى أيضاً عن يحيى بن معاذ الرازي أنه قال: إن الله على العرش بائن من الخلق، وقد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً. لا يشك في هذه المقالة إلا جهمي رديء ضِلّيل، وهالك مرتاب، يمزج اللهَ بخلقه، ويخلط منه الذات بالأقذار والأنتان.

وروى أيضاً عن ابن المديني لما سُئل: ما قول أهل الجماعة؟ قال: «يؤمنون بالرؤية والكلام، وأن الله فوق السماوات على العرش استوى». فسئل عن قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، فقال: اقرأ ما قبلها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وروى أيضاً عن أبي عيسى الترمذي أنه قال: «هو على العرش كما وصف في كتابه، وعلمه وقدرته وسلطانه في كل مكان».

وروى عن أبي زُرْعَة الرازي أنه سئل عن تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] فقال: «تفسيره كما تقرأ، هو على العرش، وعلمه في كل مكان، من قال غير هذا فعليه لعنة الله».

. . . .

وروى أبو القاسم اللالكائي صاحب أبي حامد الإسفراييني في «أصول السنة»[١] بإسناده عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة قال: «اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب ﷻ من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئاً من ذلك، فقد خرج عما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا، فمن قال بقول جَهْم فقد فارق الجماعة، فإنه قد وصفه بصفة لا شيء» اهـ

محمد بن الحسن أخذ عن أبي حنيفة ومالك وطبقتهما من العلماء، وقد حكى على هذا الإجماع، وأخبر أن الجهمية تصفه بالأمور السلبية غالباً، أو دائماً.

وقوله: «من غير تفسير» أراد به تفسير الجهمية المعطلة الذين ابتدعوا تفسير الصفات بخلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون من الإثبات.

قول اللالكائي: «من غير تفسير ولا وصف..» أي الوصف الزائد الذي يأتون به تفسيراً من عندهم، أما وصف الله جل وعلا، فيجب أن يؤمن به ويثبت، ولكن مقصوده بـ«**الوصف**» هو الشيء الزائد الذي يزيدونه على النصوص، فالنص لا يوصف، يعني لا يؤتى بكلام يكون وصفاً له، والكلام الذي يكون وصفاً قد يكون تفسيراً وقد يكون فيه كلام آخر.

فالمعنى أن هذا ظاهر يُكتفى بقراءته لظهوره ووضوحه، ولسنا بحاجة إلى أن نأتي بشيء يكون الوصف مفسراً له، ولا أن نفسر الوصف نفسه.

---

(١) «شرح أصول الاعتقاد» (٧٤٠).

وروى البيهقي وغيره بأسانيد صحيحة عن أبي عبيد القاسم بن سلّام قال: «هذه الأحاديث التي يقول فيها: «ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَره» «وأن جهنم لا تمتلئ حتى يضع ربك قدمه فيها»[١]، «والكرسي موضع القدمين»[٢].

وهذه الأحاديث في الرؤية هي عندنا حق حملها الثقات بعضهم عن بعض، غير أنّا إذا سُئلنا عن تفسيرها لا نفسرها، وما أدركنا أحداً يفسرها» اهـ.

أبو عبيد أحد الأئمة الأربعة الذين هم: الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو عبيد. وله من المعرفة بالفقه واللغة والتأويل ما هو أشهر من أن يوصف، وقد كان في الزمان الذي ظهرت فيه الفتن والأهواء، وقد أخبر أنه ما أدرك أحداً من العلماء يفسرها. أي تفسير الجهمية.

وروى اللالكائي والبيهقي عن عبد الله بن المبارك أن رجلاً قال له: يا أبا عبد الرحمن إني أكره الصفة. يعنى صفة الرب، فقال له عبد الله بن المبارك: «أنا أشد الناس كراهة لذلك، ولكن إذا نطق الكتاب بشيء

قوله: **«والكرسي موضع القدمين»** هذا قول ابن عباس فيما نعلم أنه موقوف عليه، وليس حديثاً عن النبي ﷺ، ولكن له حكم الرفع.

قوله: **«ولكن إذا نطق الكتاب»** استدراكاً، وليس معناه أن هذا الوصف الذي يكره هو ما ينطق الكتاب به، بل المعنى أننا نعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا نأتي بشيء من عند أنفسنا.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه موقوفاً على ابن عباس عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٠٣٠)، وابن جرير (٤/ ٥٣٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وأخرجه الدارقطني في «الصفات» (٣٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً.

قلنا به، وإذا جاءت الآثار بشيء جسرنا عليه»[١] ونحو هذا.

أراد ابن المبارك: أنا نكره أن نبتدئ بوصف الله من ذات أنفسنا حتى يجيء به الكتاب والآثار.

وروى عبد الله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن ابن المبارك أنه قيل له: بماذا نعرف ربنا؟ قال: «بأنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه، ولا نقول كما تقول الجهمية: إنه ههنا في الأرض»[٢] وهكذا قال الإمام أحمد وغيره.

وقول ابن المبارك: «بائن من خلقه» أي أنه جل وعلا غير مختلط بالخلق، فالخلق كلهم تحته وهو فوقهم جل وعلا، والبينونة هي الارتفاع والعلو، والله جل وعلا وصفه دائماً بالعلو، والعلو من صفات الذات، ولهذا نقول: إنه ينزل إلى سماء الدنيا وهو على عرشه فوق خلقه، ومستحيل أن يكون شيءٌ فوقه؛ لأنه أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء، كيف يقبض الأشياء بيده وتكون صغيرة، ثم تكون فوقه جل وعلا!! ولكن أكثرهم لم يقدر الله حق قدره ولا عرفه، ويتصور أنه كالمخلوق الذي يكون فوق الشيء، فإذا نزل عنه صار ذلك الشيء فوقه، تعالى الله وتقدس.

والذي حملهم على هذا هو حملهم النزول والصفات على ما يعرفونه من أنفسهم وهو الذي قلنا: إنه أصل التشبيه، شبهوا أولاً ثم عطلوا بناءً على هذا التشبيه، فهذا هو الضلال، وهذا لا ينفكون عنه، وإن كانوا يزعمون أنهم هم المنزهون وبعيدون عن التشبيه، ولكن الواقع خلاف هذا؛ لأن أفعالهم وأقوالهم تدل على ذلك، هذا إذا أُحسِن الظن فيهم، أما كثيرٌ

---

(١) «الاعتقاد» (٣/ ٤٧٨)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ١٥٨).

(٢) «السنة» لعبد الله (١/ ١١١).

وروى بإسناد صحيح عن سليمان بن حرب ـ الإمام ـ: سمعت حماد بن زيد وذكر هؤلاء الجهمية، فقال: «إنما يحاولون أن يقولوا: ليس في السماء شيء»[١].

منهم فهم يقولون ذلك قصداً لإبطال عقيدة المسلمين والقدح فيها.

الآن نعرف كيف يعمل الكفار الذين يسمونهم المستشرقين وغيرهم يتلمسون مواطن الضعف، والمواطن التي يمكن فيها تشكيك للمسلمين، فيركزون عليها وينشرونها، ويجعلون فيها الشُّبَه التي تلبس على الناس وتفسد عقائدهم، وهم أعداؤنا، والعدو حريص على البلبلة وتخليط الحق بالباطل وإخراج أهل الحق من الحق إلى الباطل، إذا أمكن ذلك.

ومن ذلك: ما كانوا ينادون به حتى أثر في المسلمين من تباكيهم على ذهاب كتب المعتزلة، كانوا يقولون: هؤلاء هم أهل المدرسة الحرة، كيف تُترك؟ كيف تُهمل؟ والذين تأثروا بهم من أبناء جلدتنا أخذوا كلامهم على القبول، فصاروا يبحثون عن كتب المعتزلة، وإذا وجدوا منها شيئا حققوه ونشروه، فصار لها أثر في أوساط المسلمين، بل في خاصتهم من المتعلمين، حتى اعتنق هذا المذهب من اعتنقه من بعض المدرسين وغيرهم بهذا السبب، فهذا ديدنهم دائماً.

فهم يكونون في مواضع كثيرة أعلم من كثير ممن يغتر بكلامهم بأن هذا باطل؛ لأنهم عرفوا أن مذهب المعتزلة لا يمكن أن يقوم عليه اجتماع أو يقوم عليه دين، فإنه كله مبني على الأفكار الفاسدة، وكل واحد يأتي بفكر غير فكر الآخر، وديننا ليس فكراً، بل هو وحي نتلقاه عن ربنا وعن نبينا ﷺ.

قول حماد بن زيد: «إنهم يحاولون أن يقولوا: ليس في السماء شيء»،

---

(١) أخرجه عبد الله في زوائد «المسند» (٢٧٥٨٦)، و«السنة» (٤٠).

وروى ابن أبي حاتم في كتاب «الرد على الجهمية» عن سعيد بن عامر الضبعي إمام أهل البصرة علماً وديناً، من شيوخ أحمد أنه ذكر عنده الجهمية فقال: «هم شرٌّ قولاً من اليهود والنصارى، وقد اجتمع اليهود والنصارى وأهل الأديان مع المسلمين على أن الله على العرش. وقالوا هم: ليس عليه شيء»(١).

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة إمام الأئمة: «من لم يقل: إن الله فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه، وجب أن يُستتاب، فإن تاب وإلا ضُربت عنقه ثم أُلقي على مزبلة، لئلا يتأذى بنتن ريحه أهل القبلة، ولا أهل الذمة» ذكره عنه الحاكم بإسناد صحيح(٢).

وقد روى عبد الله بن أحمد، عن عباد بن العوام الواسطي إمام أهل واسط، من طبقة شيوخ الشافعي وأحمد قال: «كلمت بشراً المريسي وأصحاب بشر، فرأيت آخر كلامهم ينتهي إلى أن يقولوا: ليس في السماء شيء»(٣).

هؤلاء الذين نقول: إنهم يريدون إفساد العقائد، ولا يريدون الحق، يحاولون أن يقولوا: «**ليس في السماء إله**»، فإذا لم يكن في السماء فليس في الأرض!

فيدعون إلى الإلحاد، وهذا إما أن يكون حسداً للمسلمين أو أن يكون هذا دينهم الذي اعتقدوه، ومعروف أن كل إنسان يريد أن يوافقه غيره في عقيدته.

---

(١) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (١٨).
(٢) أخرجه الحاكم في «معرفة علوم الحديث» (١٨٧).
(٣) «السنة» لعبد الله (٦٥)، و«السنة» لأبي بكر الخلال (١٧٥٣).

وعن عبد الرحمن بن مهدي الإمام المشهور أنه قال: «ليس في أصحاب الأهواء شر من أصحاب جهم، يدورون على أن يقولوا: ليس في السماء شيء. أرى والله أن لا يناكحوا، ولا يورثوا»[١].

وروى عبد الرحمن بن أبي حاتم في كتاب «الرد على الجهمية» عن عبد الرحمن بن مهدي قال: «أصحاب جهم يريدون أن يقولوا: إن الله لم يكلِّم موسى. ويريدون أن يقولوا: ليس في السماء شيء، وإن الله ليس على العرش، أرى أن يُستتابوا، فإن تابوا وإلا قُتلوا»[٢].

قول عبد الرحمن بن مهدي: «أصحاب جهم يريدون أن يقولوا: إن الله لم يكلِّم موسى» هم قالوا هذا صراحة: إن الله لا يتكلم، وصاروا يشبهون على الضعفاء من المسلمين، ويقولون: الكلام يتعاقب بعضه بعد بعض، ومن الشُّبه التي يلقونها على المسلمين. فإذا قلت مثلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فالباء قبل السين، والسين قبل الميم، فهذه القبلية تقتضي حدثاً! والله لا يكون محلاً للحدث؛ لأن من كان محلاً للحدث فهو حادث؛ فهذا كلام المخلوق، فإذاً الله لا يتكلم عند هؤلاء الضالين.

ثم كذلك يقولون: الكلام يحتاج إلى لسان وشفتين ولهاة وحَنْجَرة وحبال صوتية!! وهذا يدلك على أنهم شبهوا أولاً، ثم صاروا ينفون هذا المفهوم الذي وقع في نفوسهم، فهم لم يفهموا من الصفات إلا ما يفهمون من أنفسهم، وهذا إذا أُحسن الظن فيهم. والظاهر أن فيهم زنادقة كثيرين يريدون أن يبدلوا دين المسلمين بدينهم الذي اخترعوه من عند أنفسهم، حتى يهلكوا ويضلوا. وإن كان هناك من أحسن الظن فيهم واتبعهم على هذا

---

(١) أخرجه بنحوه عبد الله في «السنة» (١٧٤).

(٢) انظر: «الأسماء و الصفات» للبيهقي (٦٠٨/١).

وعن الأصمعي أنه قال: قدمت امرأة جهم فنزلت الدباغين، فقال رجل عندها: الله على عرشه. فقالت: محدود على محدود.

الغي، وقال: إن هذا تنزيه! لأنهم يُبدون أشياء، فالذي لا يعرف كلامهم ولا يعرف أصولهم قد تنطلي عليه، فيقولون: إن الله لا تحلُّ به الحوادث، وإن الله لا يجوز أن يكون جسماً، ولا يجوز أن تكون له أعراض، فإذا سمع الجاهل الذي لا يعرف غور كلامهم يظن هذا تنزيهاً، وهم قصدهم بقولهم: ليس بجسم ليس مستوياً على عرشه، وليس فوق.

وقصدهم بقولهم: «لا تحل فيه الحوادث» أي نفي الكلام، فلا يتكلم ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يرحم.

ومقصودهم بقولهم: «وليس موصوفاً بالأغراض والأعراض»، أنه لا يفعل لحكمة، ولا يأمر لمصلحة العباد أو غير ذلك، ولا أن له وجهاً وعينين أو يدين، وإنما يلبسون، أما إذا خلا بعضهم إلى بعض واجتمعت شياطينهم فإنهم يصرحون بذلك، وهذا يدل على زندقتهم، وعلى أنهم يريدون أن يبطلوا الإسلام.

ومن المعلوم أن الإسلام بُني على عقيدة وصف الله بما وصف به نفسه، فإذا لم تكن العقيدة متينةً وقويةً لها أساس بُنيت على الوحي؛ انهارت وفسدت.

وبعض الناس يقول: هذه أمور كانت فبانت، فلماذا تنبشون القبور وتجيبون عن أشياء لا وجود لها؟ وما يدري أن كثيراً من الناس هذه عقيدتهم، وأنهم الآن ينافحون ويدافعون عن هذا المبدأ، ويرون أنهم هم أهل الحق.

قوله: «**الدباغين**» هو محل في البصرة، وهذه امرأة الجهم، فكيف هو؟

قالت: «**محدود على محدود**» أي أن العرش محدود، والذي يكون عليه

وقال الأصمعي: «كافرة بهذه المقالة»[١].

وعن عاصم بن علي بن عاصم شيخ أحمد والبخاري وطبقتهما قال: «ناظرت جهمياً، فتبَيَّنَ من كلامه أنه لا يؤمن أن في السماء ربّاً»[٢].

وروى الإمام أحمد قال: حدثنا سُرَيْج بن النعمان، قال: سمعت عبد الله بن نافع الصائغ، قال: سمعت مالك بن أنس يقول: «الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو من علمه مكان»[٣].

يكون محدوداً، والله لا يُحدُّ عندها، ومفهوم هذا أن الله يكون في الكون كله لا يُحد، وهذا قول بعض الجهمية، والبعض يعتمد على النفي المطلق.

ولهذا يقولون: ليس فوق وليس تحت، وليس يميناً وليس شمالاً، وليس داخل العالم ولا خارجه، وليس في زمان وليس في مكان، ولا يجري عليه زمان.. إلى آخر النفي الذي يسردونه.

وهذا نفي محض ومعناه: لا وجود له، إنما هو معنى من المعاني الذي يكون في أدمغتهم وأفكارهم فقط. فهل هذا يتفق مع الكتب السماوية ومع فطرة الناس التي فُطروا عليها، ومع ما جاءت به الرسل؟ لم يسبق هذا النفي نظيرٌ في الناس إلا أن يشاء الله.

وقول عاصم ومالك بن أنس والشافعي وزينب ﷺ يدل على أن إجماع المسلمين على أن الله فوق، ووجه ذلك أن هذا يُذكر ولا أحد ينكره، بل يُقِرّونه ويثبتونه، فهم مجمعون عليه.

---

(١) ذكره الذهبي في «العرش» (٢/ ٢٦٥)، و«العلو» (ص١٥٩).
(٢) «السنة» لعبد الله (٢١٣).
(٣) «الشريعة» للآجري (٣/ ١٠٧٦).

وقال الشافعي: «خلافة أبي بكر رضي الله عنه حق قضاها الله في سمائه، وجمع عليه قلوب عباده».

وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «كانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكنَّ أهاليكُن وزوجني الله من فوق سبع سماوات»[١]. وهذا مثل قول الشافعي.

وقصة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة مشهورة في استتابة بشر المريسي حتى هرب منه لما أنكر الصفات وأظهر قول جهم. قد ذكرها ابن أبي حاتم وغيره.

وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين، الإمام المشهور من أئمة المالكية في كتابه الذي صنفه في «أصول السنة»[٢] قال فيه: باب الإيمان بالعرش.

قال: ومن قول أهل السنة: أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق، ثم استوى عليه كيف شاء،

وقصة أبي يوسف وقعت بعدما تولى أبو يوسف القضاء، والقاضي في ذلك الوقت لا يحكم عليه أحد، وهو الذي يحكم، ويكون حكمه نافذاً على كل المجتمع، حتى الخليفة، ولهذا هرب منه لئلا يقتله؛ لأن الاستتابة معناها أن يتوب ويرجع وإلا يقتل، ومعنى هذا أن أبا يوسف يرى أنه قد خرج من دين الإسلام، لكونه ينفي العلو، وينفي الاستواء، وينفي الصفات، وهذا تكذيب لكلام الله، فكتاب الله ذكر الصفات فيه أكثر من ذكر الصلاة والزكاة والصوم والحج، فإذا أنكر مثل هذا؛ فمعنى ذلك أنه لا يؤمن به.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «أصول السنة» (ص٨٨).

كما أخبر عن نفسه في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٤]، فسبحان من بَعُدَ وقَرُبَ بعلمه، فسمع النجوى .

وذكر حديث أبي رَزِين العقيلي: قلت يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: «**في عماء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء**»(١).

قال محمد: العماء: السحاب الكثيف المطبق فيما ذكره الخليل، وذكر آثاراً أُخَر، ثم قال: باب الإيمان بالكرسي.

قال محمد بن عبد الله: «ومن قول أهل السنة: أن الكرسي بين يدي العرش، وأنه موضع القدمين..............................

قوله: «**في عماء**» روي بروايتين: بالمد «عماء»، وروي في «عمًى» يعني مقصور. ولكل رواية معنى:

فإذا كان بالمد فهو كما فسره أنه السحاب الرقيق، وهذا له أصل في كتاب الله ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، يعني هذا يوم القيامة، فإن الله يأتي بالغمام، وهو كذلك قبل خلق السماوات والأرض كان في غمام.

أما رواية القصر «عمًى»؛ فالمعنى أنه في شيء غير معلوم لا علم لأحد فيه، يعني عَميتْ عنه الأفكار والأنظار، أي أنها محدودة ضعيفة لا تدرك البعد الهائل الزمني الذي سبق المخلوقات كلها.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦١٨٨)، والترمذي (٣١٠٩)، وابن ماجه (١٨٢)، من حديث أبي رزين العقيلي ﷺ.

ثم ذكر حديث أنس الذي فيه التجلي يوم الجمعة في الآخرة، وفيه **«فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه، ثم يُحَف بالكرسي على منابر من ذهب مكللة بالجواهر، ثم يجيء النبيون فيجلسون عليها»**[١].

قوله: **«حديث أنس الذي فيه التجلي يوم الجمعة»**، ثم يرون الله جل وعلا يتجلى لهم، يعني منهم من يجلس على كراسي، ومنهم من يجلس على كثبان المسك وغيرها، وهذا خاص بيوم الجمعة، النظر إلى الله جل وعلا في يوم الجمعة، ويظهر أن هذا يعم أهل الجنة، بخلاف الذي مضى في حديث جرير بن عبد الله البجلي فإنه قال: **«فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها فافعلوا»**[٢].

يقول العلماء: هذا إشارة إلى أن من حافظ على هاتين الصلاتين أنه يجزى بالنظر إلى وجه الله جل وعلا في هذين الوقتين، وهذا في كل يوم.

ومعلوم أن أهل الجنة يتفاوتون في النعيم وفي الرفعة تفاوتاً عظيماً حتى قال ﷺ: **«إن أهل الجنة يتراءون أصحاب الغرف كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء»**. قالوا: أولئك منازل الأنبياء! قال: **«لا، بل منازل قوم آمنوا بالله وصدقوا ما جاءت به الرسل»**[٣]، فهم يتفاوتون تفاوتاً عظيماً، كيف بُعد الكوكب التي نشاهده عن يميننا وعن شمالنا في السماء؟ بُعد هائل جداً.

وكذلك الجنة جنان وليست جنة واحدة، ولهذا ثبت في الصحيح قوله ﷺ: **«إن في الجنة مئة درجة، ما بين درجة وأخرى كما بين السماء والأرض، أعدتْ للمجاهدين في سبيل الله»**[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٥١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٥٥)، (٦٥٥٦)، ومسلم (٢٨٣٠، ٢٨٣١)، من حديث سهل بن سعد وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

. . . .

فالدرجة هنا جنة، لا الدرجة التي نصعد بها في الدرج، بل تكون مسكونة منزولة، لها عمّار وسكّان، وفوقها درجة وهكذا، وأيضاً هي خاصة، يقول: «**أعدت للمجاهدين في سبيل الله**» فقط، وهناك من هو أعلى من المجاهدين، كالصديقين الذين صدقوا ما جاء عن الله جل وعلا، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

فجعل بعد الأنبياء الصديقين، ثم يليهم الشهداء، ثم الصالحين، والصالح فسر بأنه الذي يفعل الواجب ويترك المحرم، أما الصديقون فالذين يتقربون بالنوافل بعد أداء الفرائض، فهم يسبقون هؤلاء في هذا.

وكذلك قول الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]، فجعل هؤلاء ثلاثة أقسام:

قسم ظالم، ومع ذلك يكون من أهل الجنة، ولا يلزم أنه لا يناله عذاب، بل قد يناله عذاب وتطهير، ولكنه يكون من أهل الجنة، والظالم لنفسه الذي لم يأتِ بكل الواجبات، ولم يترك جميع المحرمات، أخذ من هذا ومن هذا.

والمقتصد أفضل منه، وهو الذي فعل الواجبات وترك المحرمات.

أما السابق بالخيرات؛ فهو الذي تقرب إلى الله جل وعلا بالنوافل بعد أداء الفرائض، فلا تكون منزلة هذا بمنزلة هذا.

وكذلك إذا قرأنا سورة الرحمن وسورة الواقعة وغيرها، يقول: ﴿فَبِأَيِّ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾ [الرحمن: ٤٦ ـ ٤٨]، شيء ما يُعرف، ويعلمه الله جل وعلا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾ [الرحمن: ٤٩ ـ ٥٠].

وفي القسم الآخر يقول: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ [الرحمن: ٦٦]، فالجري غير النضخ، فالنضخ ضعيف .

ثم يقول: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٤]، ما يحتاج أن يقوم ويمشي، بل عنده قريبة، والجنى: كثير جداً لا نعلمه ولا نعرفه، ثم الأزواج يقول: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وفي تلك يقول: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الرحمن: ٧٠]، ففرق بين هذا وهذا، وهذا كثير في كتاب الله جل وعلا لمن تأمله وعرفه.

فالمقصود أن الجنان مختلفة بعضها فوق بعض، وفي الحديث الصحيح: «**إذا سألتم الله جل وعلا الجنة فاسألوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة ووسطها، ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفه عرش الرحمن**»، وهذا يعني أنها مقببة، وواسعة جداً.

وقوله: «**ومنه تفجر أنهار الجنة**» العادة التي عرفناها أنها تكون من أعلى لأسفل، أما في الجنة فينشئه من أسفل إلى أعلى، وليس هذا بعجيب على قدرة الله جل وعلا، فالله على كل شيء قدير.

والجنان لها أسماء كثيرة، ولما قُتل شاب من شباب الأنصار في غزوة بدر وكانت أمّه تحبه كثيراً، فجاءت إلى النبي ﷺ قالت: يا رسول الله أخبرني عن ابني أين هو؟ إن كان في الجنة وإلا سترى ماذا أصنع؟ فقال: «**أَهَبِلْتِ أنت؟ أجنة هي؟ بل جنان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى منها**»[1]، فالجنان وارتفاع المنازل بحسب العمل، والله جل وعلا أعدَّ لكل

....

من يسكنها منزلة بما فيه، فتصور الرفعة.

جاء في الحديث ـ وهو حديث ثابت ـ: **«من صلى لله جل وعلا في كل يوم اثنتي عشر ركعة نفلاً؛ بنى له الله جل وعلا بيتاً في الجنة»**[1]، معنى هذا أن كل من صلى اثنتي عشر ركعة يُبنى له قصر في الجنة، وإذا كان قد صلى مئات الأيام، فمعنى ذلك أنه يُبنى له قصور كثيرة، فالسعة هائلة.

ومع هذا كله يبقى في الجنة فضل مساكن لا تسكن، والله جل وعلا وعد أنه يملأ الجنة بخلقه، فإذا انتهى كلُّ مَن يستحق دخول الجنة حتى الذين دخلوا النار من أهل التوحيد يُخرجون ويُدخلون الجنة، حتى إذا ما بقي أحد فإنه يُنشئ خلقاً جديد فيسكنهم فضل الجنة.

وقد أخبر الرسول ﷺ عن آخر من يخرج من النار، فقال: **«آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة»** والنار ليس فيها شجر، فيقول: **«يا رب، أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله ﷻ: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا، يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها، قال: وربه ﷻ يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها»**، وهو يقول ذلك ومقتنع، وبزعمه أنه ما يسأل ليكتفي بهذه الشجرة.

ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٩)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٧٢٨) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

. . . .

الشجرة لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها.

ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة، وهي أحسن من الأُولَيَيْنِ، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى، يا رب لا أسألك غيرها ـ وربه ﷻ يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول: أي رب أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني منك، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟». فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ. فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ فقال: «مِنْ ضحك رب العالمين، حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر»[1]، هذا أدنى أهل الجنة منزلةً، أما أعلاهم فلا أحد يعرفه.

ثم انظر إلى هذه المحاورة، كيف يقولون: إن الله لا يتكلم؟ من الذي يكلمه ويحاوره؟ وما الذي أضحكه؟ كذلك محاسبة الخلق من الذي يحاسبهم؟ أمور عجيبة. وكثير من هؤلاء تولوا تصحيح الكتب ـ زعموا ـ مثل البخاري ومسلم والسنن، على هذا المذهب الفاسد، فغيروا بعض الألفاظ بناءً على هذا المذهب، إذا جاء: «فكلم الله»، قالوا: «فيُكَلم»،

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٧)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

. . . .

وإذا جاء «ينادي» قالوا: «فينادَى»، لئلا يكون مبطلاً لمذهبهم، وهذا مذهب سرى في دمائهم وعروقهم حتى تجرؤوا إلى هذا الفعل.

وجاء في قراءة آية الفجر: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿وجيء ربك﴾ فرحوا بهذه القراءة، قالوا: هذا دليل على أن نحمل الباقي على هذه القراءة، أنه يجاء إليه وما يجيء.

وكذلك قال الله جل وعلا في آخر سورة الأنعام: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، هذا التقسيم يستحيل معه أن يكون هناك تأويل فيه، فلما جاء قول الله جل وعلا في سورة النحل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ﴾ [النحل: ٣٣]، فرحوا بهذا، قالوا: نحمل تلك على هذه! وهكذا يصنعون في آيات الله جل وعلا وفي أحاديث رسوله، ولكن هذا لا يجدي شيئاً ولا يثبت.

وعلى كل حال؛ نقول: إن صفات الله جل وعلا يجب أن يُؤمن بها، والإيمان الصحيح مبنيٌّ على ذلك، وإذا لم يؤمن العبد بها؛ فإن إيمانه ليس صحيحاً، وليس معنى هذا أن نحكم عليه بالكفر؛ لأن هناك موانع من التكفير يجب أن تزول، وقبل الزوال لا يُحكم، ولكن كما قال بعض العلماء: إن الله جل وعلا سيحاسبهم ولن يتركهم، فلو كان الأمر بينهم وبين الله كان الأمر سهلاً، ولكن أضلوا عباداً لله كثيرين، فهذه مصيبة، وفي الحديث: **«من دعا إلى ضلالة فعليه من الإثم مثل آثام من اتبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيء»**[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وذكر ما ذكره يحيى بن سلام صاحب التفسير المشهور: حدثني المعلى بن هلال، عن عمار الدهني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إن الكرسي الذي وسع السماوات والأرض لموضع القدمين، ولا يعلم قدر العرش إلا الذي خلقه»[١].

وذكر حديث أسد بن موسى قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمئة عام، وبين كل سماء خمسمئة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمئة عام، وبين الكرسي والماء مسيرة خمسمئة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه»[٢].

ثم قال: باب الإيمان بالحُجُب.

قال: ومن قول أهل السنة أن الله بائن من خلقه يحتجب عنهم بالحجب، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وذكر آثاراً في الحجب ثم قال في باب الإيمان بالنزول. قال: ومن قول أهل السنة إن الله ينزل إلى السماء الدنيا، ....

قوله: «الحُجُب» جمع حجاب، وهذا لا يؤمن به أهل الكلام من الأشاعرة وغيرهم، يقولون: الله ليس له حجب، ولا يحتجب؛ لأن مقتضى مذهبهم أن الحجاب يمنع الرؤية، وأن الحجاب شيء محسوس، والمحجوب كذلك محسوس، فهم لا يؤمنون بهذا.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ٢٠٢).

ويؤمنون بذلك من غير أن يَحُدُّوا فيه حَدّاً. وذكر الحديث من طريق مالك وغيره.

إلى أن قال: وأخبرنا وهب عن ابن وضاح عن زهير بن عباد قال: من أدركت من المشايخ: مالك، وسفيان الثوري، وفُضَيْل بن عياض، وعيسى، وابن المبارك، ووَكِيع كانوا يقولون: النزول حق.

قوله: «**من غير أن يحدوا فيه حداً**» الحد أنهم يصفونه بشيء محدود، فيكون في كذا وكذا، والله لا يُحَدّ، وجاء عن بعض السلف أن الله فوق عرشه بحد، فجاء النفي وجاء الإثبات في هذه الكلمة، بعض أهل السنة يقول: «بلا حد». وبعضهم يقول: «بحد». فهذا قد يبدو أن فيه تناقضاً وليس كذلك؛ لأن الذي قال: «بحد» يعني عنده البينونة فهو ليس مختلطاً بخلقه تعالى وتقدس، وبذلك فسره الإمام أحمد لما بلغه كلام ابن المبارك: «نعرف ربنا فوق عرشه بحد، ولا نقول كما قالت الجهمية»، وأشار بيده إلى الأرض[1].

قال الإمام أحمد: «هكذا هو عندنا»[2]، وذكر الآية التي فيها الاستواء.

أما الذي يقول: «بلا حد»؛ ففُسِّر بأنه بلا حد يعلمه الخلق، فالنفي هو علم الخلق وإلا فهو جل وعلا فوق عرشه وفوق سماواته غير مختلط بخلقه[3].

---

(١) «السنة» لعبد الله بن أحمد (٢١٦).

(٢) «خلق أفعال العباد» (ص١١)، «الرد على الجهمية» للدارمي (٦٧)، «الأسماء والصفات» للبيهقي (٩٠٢).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان مقولة من ينفي الحد من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، قال: «وكذلك إذا قالوا: إن الله منزّه عن الحدود والأحياز والجهات؛ أوهموا الناس بأن مقصودهم بذلك أنه لا تحصره المخلوقات، ولا تحوزه المصنوعات، وهذا المعنى صحيح، ومقصودهم: أنه ليس مبايناً للخلق، ولا منفصلاً عنه، وأنه ليس فوق =

قال ابن وَضَّاح: «سألت يوسف بن عَدِيّ عن النزول، قال: نعم أؤمن به ولا أحِدّ فيه حداً. وسألت عنه ابن معين فقال: «أُقرُّ به ولا أحِدّ فيه حداً».

قال محمد: وهذا الحديث يُبيِّن أن الله ﷻ على عرشه في السماء دون الأرض.

قوله: «**أقر به، ولا أحد فيه حداً**» يعني: لا أفسره بشيء يُعلم، وهذا يدلنا على أن النزول خاص بالله جل وعلا وغير معروف لنا، فنزوله جل وعلا من عرشه إلى سماء الدنيا نزولٌ خاصٌّ به لا يمكن أن يُقاس على ما نعرفه من النزول، وهذا معنى: «**لا أحد فيه حداً**».

وقد مضى الكلام في هذا، وأنه يجب أن يكون خاصاً بالله جل وعلا، وهو بالنسبة لله لا يتعدد، ولكنه بالنسبة للخلق في الأرض متعدد، يعني النزول عندنا غير النزول عند من قبلنا ومن بعدنا وهكذا؛ لأنّ هذا يكون في الأرض كلِّها.

أما معنى «**النزول**» في اللغة فهو معروف، ولكن نزول الله كسائر صفاته لا تعلم كيفيته.

ومع ذلك فهذا النزول ليس كالنزول المعهود لنا أنه إذا نزل المعتلي على الشيء يكون ذلك الشيء فوقه، فالله ينزل وهو فوق كل شيء، ومثل ذلك: مجيئه يوم القيامة، فهو يجيء إلى الأرض لفصل القضاء بين خلقه وهو على عرشه فوق كل شيء وفوق سماواته.

وقد يبدو لبعض الناس في فكره: هل إذا نزل يخلو العرش أو لا

= السماوات رب وعلى العرش إله، وأن محمداً ﷺ لم يعرج به إليه.. ولا ترفع إليه الأيدي بالدعاء ولا غيره، ونحو ذلك من معاني الجهمية». «درء التعارض» (١/ ٢٤١)، وانظر تفصيل ذلك في «بيان تلبيس الجهمية» (٣/ ٤٣ ـ ٤٥).

وهو أيضاً بَيِّنٌ في كتاب الله وفي غير ما حديث عن رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة: ٥].

وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٧]. وقال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ [النساء: ١٥٨].

وذكر من طريق مالك قول النبي ﷺ للجارية: «أين الله؟». قالت: في السماء. قال: «من أنا؟». قالت: أنت رسول الله. قال: «فأعتقها،

يخلو؟ فهذا لا داعي له؛ لأن هذا ما جاءنا فيه شيء، وإذا لزم الأمر نقول إنه ينزل ولا يخلو منه العرش، فهو ينزل وهو على عرشه تعالى وتقدس، وهذا هو ظاهر القول. أما كونه يخلو؛ فهذا ليس له دليل.

قوله: «وهو أيضاً بيِّن»، يعني العلو؛ لأن العروج هو الصعود إلى العلو وليس النزول، والآيات تدل على علو الله جل وعلا، وأنه فوق، ولكن إذا جُمع بينها وبين قول الرسول ﷺ: «ينزل»، يعني أن قول الرسول لا يخالف قول الله جل وعلا، فهو تعالى ينزل وهو فوق جميع خلقه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ العمل الصالح هنا مرفوع، هل هو معطوف أم هذا للاستئناف؟

«الواو» للاستئناف، ﴿وَٱلۡعَمَلُ﴾ مبتدأ، والجملة هنا الخبر، وفاعل ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾ الله، والله تعالى هو الذي يرفع الكلم الطيب والعمل الصالح، ومن معاني ذلك: القبول.

فإنها مؤمنة»[١].

والأحاديث مثل هذه كثيرة جداً، فسبحان من عِلْمُه بما في السماء كعِلْمِه بما في الأرض لا إله إلا هو العلي العظيم.

وقال قبل ذلك: باب في الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه: واعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به تعالى عن نفسه علماً، والعجز عما لم يدع إليه إيماناً، وأنهم إنما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه إلى حيث انتهى في كتابه على لسان نبيه.

وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

في قوله: «يرون الجهل بما لم يخبر به تعالى عن نفسه علماً»، المقصود بالجهل هنا الوقوف والسكوت وليس عدم العلم، يعني أنك تقف حيث أوقفك الله جل وعلا، فهذا علم في الواقع؛ لأن هذا امتثال لأمر الله جل وعلا، أما البحث في ذلك والتكلف فيه؛ فهو ضلال وخلاف العلم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ فيجوز أن نقول: إن الله «شيء»، فدخل في الخبر بشيء، وهذا في السؤال وفي الخبر فقط، وهو كما قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، فكلمة ﴿شَيْءٍ﴾ دخل الله جل وعلا فيها.

ولكن لا نسميه «شيئاً»، ولا نصفه بأنه «شيء»، وإنما هذا عند الإخبار،

---

(١) تقدم تخريجه.

وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢].

وقال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٩٣].

وقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

فإذا قيل: هل الله شيء؟ نقول: نعم، ولكنه بصفاته وأسمائه جل وعلا.

وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ يعني أن الله وصف نفسه أن له نفساً، والصحيح من أقوال العلماء في هذا أن نفسَه ذاتُه، وإن كان ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثبت لله نفساً غير الذات، ولكن الإمام أحمد والدارمي ونحوهما من كبار العلماء لا يرون هذا، ويقولون: إن النفس هي الذات.

أما قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فالروح هنا الريح، وهذا سر الحياة في بني آدم، هذه النفخة التي لا يعلمها إلا الله جل وعلا.

والمقصود الإيمان بأن الله تعالى نفخ في آدم من روحه على ظاهر الآية، وقد تقدم أن أفعال الله تعالى تخصه ولا يشركه في فعله ووصفه أحد من خلقه تعالى وتقدس.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ الله جل وعلا من أسمائه «النور» على القول الصحيح، وليس معنى ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أنه ـ كما

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

ومثل هذا في القرآن كثير. فهو تبارك وتعالى نور السماوات والأرض كما أخبر عن نفسه، وله وجه ونفس وغير ذلك مما وصف به نفسه، ويسمع ويرى ويتكلم.

الأول لا شيء قبله، والآخر الباقي إلى غير نهاية ولا شيء بعده، والظاهر العالي فوق كل شيء، والباطن بطن علمه بخلقه، فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. حي قيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم.

يقول بعض المفسرين ـ منور السماوات والأرض، بل هو فوق ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، وهذا لا يمكن أن يقول أحد: إن هذا نور مخلوق، فهو صفته جل وعلا، والنور من أسمائه، كما جاء في أحاديث الأسماء.

قوله: «**بطن علمه بخلقه**» هذا تأويل، بل الواجب أن نقول كما قال رسول الله ﷺ كما في «صحيح مسلم» وقد فسر هذه الأسماء الأربعة المتقابلة تفسيراً وجيزاً ظاهراً لا خفاء فيه، فقال: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[(١)] ما قال: علمك، وهذا لا يمكن أن يكون وصفاً لمخلوق أصلاً، فالذي يكون أولَ ما يكون آخِراً، والذي يكون ظاهراً لا يكون باطناً.

والمؤلف رحمه الله في آخر النقول ذكر أنه ما كلُّ ما نقلناه نقول به[(٢)]،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال رحمه الله: «وليس كل من ذكرنا شيئًا من قوله من المتكلمين وغيرهم يقول بجميع ما نقوله في هذا وغيره»، انظر (ص ٣٠٧).

وذكر أحاديث الصفات، ثم قال: فهذه صفات ربنا التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها نبيه، وليس في شيء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. لم تره العيون فتَحُدَّه كيف هو، ولكن رأته القلوب في حقائق الإيمان» اهـ.

وكلام الأئمة في هذا الباب أطول وأكثر من أن تسع هذه الفتيا عُشره، وكذلك كلام الناقلين لمذهبهم مثل ما ذكره أبو سليمان الخطابي في رسالته المشهورة «الغنية عن الكلام وأهله».

وإنما مقصوده من هذه النقول إثبات الصفات في الجملة؛ لأن سائر العلماء يثبتون الصفات احتجاجاً على هؤلاء المبطلين النفاة الذين يزعمون أنهم على مذهب أهل السنة، يعني متأخري الأشاعرة.

ولذلك نقل عن الصوفية وعن الفقهاء وعن المحدثين وعن سائر العلماء؛ حتى يكون ذلك حجةً إجماعيةً على هؤلاء الذين لم يوافقهم أحدٌ على مذهبهم من الأمة التي اتبعت رسول الله ﷺ، هذا هو مقصوده.

أما أفراد الأشياء وأعيانها التي تُنْقل؛ ففيها أشياء لا يقول بها، مثل هذه الجملة.

قوله: «**ولا تقدير**» التقدير قريب من التحديد، يعني أنها لا تُحَد بحد يعلمه الخلق، لا ذاته ولا وصفه جل وعلا، وكذلك التقدير، فلا تقدر بالأقدار التي يعلمونها، فيجب أن تُطلق كما جاءت، مع اعتقاد أنه ليس كمثله شيء جل وعلا، لا في ذاته ولا في وصفه، ولا في فعله، ونزيد أمراً رابعاً: ولا في حقه أيضاً، الحق الذي أوجبه على عباده يجب أن يكون له فقط، ولا يكون لأحد معه فيه شيء، ولهذا يكون العبد عبداً لله خالصاً.

قوله: «**مثل ما ذكره أبو سليمان الخطابي**» الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ له كتب عدة في

قال: «فأما ما سألت عنه من الصفات، وما جاء منها في الكتاب والسنة، فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين، فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، وإنما القصد في السلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين، ودين الله تعالى بين الغالي فيه والمقصر عنه.

هذا الموضوع، له هذا الكتاب «**الغنية عن الكلام وأهله**»، وله كتابان آخران في هذا، ولكن في بعضٍ منها شيء من موافقة المتكلمين، وهذه الكتب لم نطلع عليها، ولكن النقول التي جاءت عنها منها ما هو على مذهب أهل السنة وهو الغالب، ومنها ـ وهو قليل ـ ما خالف فيه مذهب أهل السنة .

وله مذهب خاص به ﵀، وهو أنه لا يثبت الصفات التي جاءت بالأحاديث، فعنده أن الأحاديث لابد أن تكون متواترة وإلا لا يثبت الصفات بها، وهذا عُلم بالتتبع من كلامه، وإلا لم يَنُصَّ عليه.

ولهذا يقول على حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين: «ليس في كتاب الله ذكر لأصابع الله، فنقولَ بها»[1]، فأنكر الأصابع، ومعروف أن هذه طريقة أهل الكلام، وإن كان هو إماماً كبيراً صاحب حديث ولغة، وهو عمدة في الرجوع إليه وفيما يقوله، ولكن العصمة للرسول ﷺ فقط.

وإذا كان الحديث في الصحيحين كيف يرده؟ ما يرده إلا لأن هذا مذهبه، فلا يثبت إلا ما كان متواتراً من الأحاديث، وهذا مذهب اتخذه ورضيه لنفسه، فلا يتابع على ذلك.

قوله: «**فأما ما سألت عنه من الصفات..**» هذه قواعد قال بها أهل السنة، وهذا يدل على رسوخه في العلم ومعرفته، وربما يكون هذا منقولاً عن السلف.

---

(١) انظر: «شرح صحيح البخاري» للخطابي (٣/ ١٨٩٨).

والأصل في هذا: أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذى في ذلك حذوه ومثاله.

فإذا كان معلوماً أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف.

فإذا قلنا: يد وسمع وبصر وما أشبهها. فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه، ولسنا نقول: إن معنى اليد القوة أو النعمة، ولا معنى السمع والبصر العلم، ولا نقول: إنها جوارح. ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إنما وجب إثبات الصفات لأن التوقف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنه لأن الله ليس كمثله شيء، وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات» اهـ، هذا كله كلام الخطابي.

قوله: «**ولا نقول: إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي...**» هذا الكلام فيه نظر، فليس لهذا القول حاجة؛ لأن اليد مفهومة ومعلومة إذا خوطبنا بها، ولا يجوز لنا أن ننفي ونقول: إنها ليست بجارحة، فإن هذا من كلام أهل البدع، لأن ذلك يتبادر إلى أذهانهم أنها مثل جوارحهم، فصاروا ينفون ذلك، فقوله هذا خلاف ما قاله أهل السنة، فأهل السنة يفهمون من اليد أنها على ظاهرها حقيقةً، ولا يحتاجون لأن يقولوا: ليست بجارحة كغيرها من الصفات.

* * *

وهكذا قال أبو بكر الخطيب الحافظ في رسالة له أخبر فيها أن مذهب السلف على ذلك، وهذا الكلام الذي ذكره الخطابي قد نقل نحواً منه من العلماء ما لا يحصى مثل: أبي بكر الإسماعيلي، والإمام يحيى بن عمار السجزي شيخِ شيخِ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري الهروي ومثل: أبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام، وأبي عمر بن عبد البَرّ النَّمَري إمام المغرب وغيرهم.

وقال أبو نعيم الأصبهاني صاحب «الحلية» في عقيدة له في أولها: «طريقتنا طريق المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة»، قال: «فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله يقولون بها ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه، وأن الله بائن من خلقه، والخلق بائنون منه، لا يَحُلُّ فيهم ولا يمتزج بهم، وهو مستوٍ على عرشه في سمائه دون أرضه وخلقه».

وقال الحافظ أبو نعيم في كتاب «محجة الواثقين ومدرجة الوامقين» تأليفه: «وأجمعوا أن الله فوق سماواته، عالٍ على عرشه مستوٍ عليه، لا مستولٍ عليه كما تقول الجهمية إنه بكل مكان، خلافاً لما نزل في كتابه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [الملك: ١٦]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه: ٥]، له العرش المستوي عليه، والكرسي الذي وسع السماوات والأرض، وهو قوله وتعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكرسيه جسم، والسماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي كحلْقة في أرض فلاة، وليس كرسيُّه علمَه كما قالت الجهمية، بل

....

يوضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه، كما قاله النبي ﷺ.

وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفاً صفاً كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، فيغفر لمن يشاء من مذنبي الموحدين، ويعذب من يشاء كما قال تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]» اهـ.

وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني شيخ الصوفية في حدود المئة الرابعة في بلاده قال: «أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر، وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين». قال فيها: «وأن الله استوى على عرشه بلا كيف، ولا تشبيه، ولا تأويل، والاستواء معقول، والكيف فيه مجهول، وأنه ﷻ بائن من خلقه، والخلق منه بائنون بلا حلول ولا ممازجة، ولا اختلاط ولا ملاصقة، لأنه المنفرد البائن من خلقه، الواحد الغني عن الخلق.

قوله: «**بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة.. الخ**»، هذا من كلام أهل البدع، ولا يجوز للإنسان أن يقول مثل هذا وهو يتبع السلف الصالح من الصحابة والتابعين؛ لأننا لسنا بحاجة إليه، وطريقة أهل البدع أنهم يأتون بالنفي بهذه الطريقة، أما أهل السنة؛ فلا يذكرون هذه الأشياء، وليسوا بحاجة إليها؛ لأنهم لا يفهمون من قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أن هناك ملاصقة أو أموراً محذورة، وكذلك في النزول وغيره، أما هذا الكلام فإنه يدل على أن هناك محذوراً في الألفاظ التي جاءت بالكتاب أو السنة، وهذا خطأ لا يجوز أن يقال، فهذا الكلام لا يصلح أن يكون من عقائد أهل السنة، بل هو من كلام المبتدعة، والكلام

وأن الله ﷻ سميع، بصير، عليم، خبير، يتكلم، ويرضى ويسخط، ويضحك، ويعجب، ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكاً، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء فيقول: «**هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر**»(١)، ونزول الرب إلى السماء بلا كيف ولا تشبيه، ولا تأويل، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال، وسائر الصفوة من العارفين على هذا» اهـ.

وقال الشيخ الإمام أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال في كتاب «السنة»: حدثنا أبو بكر الأثرم، حدثنا إبراهيم بن الحارث - يعني العبادي - حدثنا الليث بن يحيى، قال: سمعت إبراهيم بن الأشعث، قال أبو بكر - وهو صاحب الفضيل: سمعت الفضيل بن عياض يقول: ليس لنا أن نتوهم في الله كيف هو؟ لأن الله تعالى وصف نفسه فأبلغ، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الإخلاص]، فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه.

إذا كثر وانتشر في الكتب قد يلتبس على بعض الناس.

قوله: «**العارفين**» يقصد بهم الصوفية، والصوفية لهم مفاهيم تختلف، وهو في ذلك الوقت عبارة عن الزهاد الذين اجتنبوا الدنيا وانقطعوا للعبادات، ويكون منهم العارف المجتهد في معرفة الله ومعرفة دينه، ومنهم المقصر كغيرهم.

أما الصوفية فيما بعد؛ فدخل فيهم عباد القبور والحلولية والاتحادية، والذين خالفوا ما عليه سلف هذه الأمة وأئمتها، ويوجد فيهم من هو على الحق.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكل هذا: النزول، والضحك، وهذه المباهاة، وهذا الاطلاع كما يشاء أن ينزل، وكما يشاء أن يباهي، وكما يشاء أن يضحك، وكما يشاء أن يطلع. فليس لنا أن نتوهَّم كيف وكيف، فإذا قال الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه. فقل: بل أؤمن برب يفعل ما يشاء»[1].

ونقل هذا عن الفضيل جماعة، منهم البخاري في «خلق أفعال العباد»[2]، ونقله شيخ الإسلام بإسناده في كتابه «الفاروق» فقال: حدثني يحيي بن عمار، قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا يوسف بن يعقوب، قال: حدثنا حَرَميّ بن علي البخاري، وهانئ بن النضر عن الفضيل.

وقال عمرو بن المكي في كتابه الذي سماه «التعرف بأحوال العباد والمتعبدين» قال: «ما يجيء به الشيطان للتائبين»، وذكر أنه يوقعهم في القنوط، ثم في الغرور وطول الأمل، ثم في التوحيد،

قوله: «**بل أؤمن بربٍ يفعل ما يشاء**»، وهذا مفهوم واضح.

كتاب «**الفاروق**» هذا لا وجود له فيما نعلم.

وأبو إسماعيل الأنصاري لقي من المحن قريباً مما لقي شيخ الإسلام ابن تيمية لهذا الكتاب وغيره، وقد عدوه من المشبهة، وحكموا على قتله مراراً، ولكنه صبر وصابر في هذا حتى نصره الله جل وعلا، وأخيراً هاجر من تلك الديار التي حكموا عليه بأنه كافر مارق من الدين، وأنه يجب قتله؛ لأنه يقول بظاهر الصفات، فقالوا: إنه مشبه.

---

(١) خلق أفعال العباد (ص٣٣)، «الإبانة» لابن بطة (٧/ ٢٠٤).

(٢) (ص٣٣).

فقال: من أعظم ما يوسوس في التوحيد بالتشكيك أو في صفات الرب بالتمثيل والتشبيه، أو بالجحد لها والتعطيل».

قال بعد ذكر حديث الوسوسة: «واعلم رحمك الله تعالى أن كُلَّ ما توهمه قلبك، أو سَنَح في مجاري فكرك، أو خطر في معارضات قلبك من حسن أو بهاء، أو ضياء أو إشراق، أو جمال، أو شبح مائل، أو شخص متمثل: فالله تعالى بغير ذلك، بل هو تعالى أعظم وأجل وأكبر، ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] أي لا شبيه ولا نظير ولا مساوٍ ولا مثل.

وهذا مما يدل على استحكام مذهب الجهمية عند أولئك، والظاهر أن السبب في فقدان هذا الكتاب هو هذا، يعني كونهم عادوه ورأوا أنه في ضلال، فصاروا يتتبعونه ويحرقونه، ولكن يوجد له كتاب «ذم الكلام وأهله»، وقد حقق في رسالة وطبع.

قوله: «**حديث الوسوسة**» هو حديث أبي هريرة ﷺ الذي في الصحيح، يقول: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: هذا خلق الله فمن خلق الله؟ فإذا وجد ذلك فليقل: آمنت بالله ثم لِيَنْتَهِ**»[١]، فقول الرسول ﷺ: «**ثم لينته**» معناه ليعرض عن ذلك، ولا يفكر فيه، فإن هذا هو العلاج.

والوسوسة تدخل في التوحيد وفي الدين كله كالوضوء والصلاة، وقد يُبلى بعض الناس بالوسوسة، فتجده يجهد بالوضوء ثم يكرر ويكرر، ويجهد أنه يصلي، ثم قد تفوته وقد يزيد، وكلما فكر فيه زاد؛ لأن العلاج في ذلك ـ **أولاً** ـ أن تعرض عنه، ولا تهتم به، وإذا عرض لك شيء فإنك تتعمد بمخالفته، ولا تلتفت إليه، وإذا كنت على هذه الطريقة عرف أنه لا يستطيع عليك

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

أَوَلَمْ تعلم أنه تعالى لما تجلَّى للجبل تدكدك لعظم هيبته، وشامخ سلطانه، فكما لا يتجلى لشيء إلا اندك كذلك لا يتوهمه أحد إلا هلك، فرُدّ بما بيَّن الله في كتابه من نفيه عن نفسه التشبيه والمثل والنظير والكفؤ، إن اعتصمت به وامتنعت منه أتاك من قبل التعطيل لصفات الرب تبارك وتعالى وتقدس في كتابه وسنة رسوله محمد ﷺ فقال لك: إذا كان موصوفاً بكذا أو وصفته أوجب لك التشبيه، فأكذبه لأنه اللعين، إنما يريد أن يستزلك ويُغويك ويدخلك في صفات الملحدين الزائغين الجاحدين لصفة الرب تعالى.

فاعلم ـ رحمك الله تعالى ـ أن الله تعالى واحد لا كالآحاد فرد صمد، ولم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد»، إلى أن قال: «خَلَصَت له الأسماء السَّنِيَّة فكانت واقعة في قديم الأزل بصدق الحقائق، لم يستحدث تعالى صفة كان منها خليّاً، أو اسماً كان منه بَرِيّاً تبارك وتعالى، فكان هادياً سيهدي، وخالقاً سيخلق، ورازقاً سيرزق، وغافراً سيغفر، وفاعلاً سيفعل، لم يحدث له الاستواء إلا وقد كان في صفة أنه سيكون ذلك الفعل فهو يسمى به في جملة فعله كذلك، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢] بمعنى أنه سيجيء، ....

وتركك، أما إذا كنت تلتفت إليه وتصغي إليه، فإنه يفرح ويزيد، وقد يصل الإنسان إلى شبه الهوس والجنون في مثل هذا، وهو مرض عضال، ولكن من لجأ إلى الله واستعاذ به؛ فإن كيد الشيطان ضعيف عند اللجوء إلى الله.

ثانياً: يجب أن يلجأ إلى ربه بالاستعاذة منه، فيستعيذ بالله من الشيطان، ويعيذه الله جل وعلا مع هذا الأمر.

قوله: «**فكان هادياً سيهدي وخالقاً سيخلق.. الخ**» هذا ليس على اتفاق، يقول: إن أسماءه قديمة لأنه سيفعلها، خالق لأنه سيخلق، يعني أنه لم

. . . .

يسبق له خلق إلا هذا الخلق الذي نحن فيه، ورازق سيرزق يعني أنه ما كان يرزق قبل وجود هذه المخلوقات! هذا فيه نظر، فالله جل وعلا لم يزل فعالاً لما يريد، ما كان يسمى مجرد تسمية بدون فعل.

وهذه المسألة تسمى مسألة «التسلسل» كثير من الناس يُضلِّل فيها، والتسلسل في الجملة ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: تسلسل متفق على بطلانه وأنه غير واقع، وهو التسلسل في المحدِثين الفاعلين، فالمحدِث واحد والفاعل واحد وهو الله جل وعلا.

القسم الثاني: التسلسل في الحدث، وهذا الذي فيه الخلاف، وهذا للعلماء فيه ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: أنه جائز وواقع في المستقبل فقط، وممتنع في الماضي، وبعض الناس يزعم أن هذا مذهب أهل السنة، وهو ليس كذلك، وهذا استُئْنِس فيه بما ذكره الله جل وعلا من دوام الجنة والنار وغير ذلك، وأنها تبقى دائماً أبداً، وكلها من خلق الله.

المذهب الثاني: أنه ممنوع في الماضي والمستقبل، وهذا مذهب كثير من المعتزلة وبعض المتكلمين، ويختلفون في هذا، فمنهم من يقول: تنتهي المخلوقات وتفنى، فكل ما له مبدأ فلا بد من أن ينتهي، وبناءً على ذلك قالوا بفناء الجنة والنار، وبعضهم قال بفناء الحركات فقط، أما هم فيبقون، وهذا من العبث، فكيف تفنى حركاتهم ويبقون هم؟ هذا معناه عذاب! ولهذا لما ذكر ذلك ابن القيم في «النونية» تهكم بأصحاب هذا القول، وذكر أن معنى ذلك أن أحدهم يمد يده ليأخذ قطفاً من ثمار الجنة فيبقى ماداً يده أبداً، وأحدهم يفتح فاه ليأكل فيبقى فمه مفتوحاً أبداً.

المذهب الثالث: أن هذا جائز في الماضي والمستقبل، وهذا هو قول

فلم يستحدث الاسم بالمجيء، وتخلف الفعل لوقت المجيء، فهو جاءٍ سيجيء.

ويكون المجيء منه موجوداً بصفة لا تلاحقه الكيفية ولا التشبيه لأن ذلك فعل الربوبية، فتحسر العقول وتنقطع النفس عن إرادة الدخول في تحصيل كيفية المعبود، فلا تذهب في أحد الجانبين لا

أئمة السنة وكبار علماء السلف، مثل الإمام أحمد، والدارمي، والبخاري، وغيرهم، وهذا هو الصحيح الذي دلَّت عليه صفات الله جل وعلا وآياته.

وعلى كل حال؛ الأمور التي ما يستطيع الإنسان أن يستوعبها فكره؛ فيجب أن يقف ويقول: الله أعلم؛ لأن أفكارنا وخلقنا محدود، لا يمكن أننا ندرك أفعال الله جل وعلا وأوصافه على الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ مثل هذا كثير في كتاب الله تعالى، يعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه، ولهذا أخبر أن أهل النار وأهل الجنة يتكلمون، فقال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤]، فهذا سيقع تماماً كما أخبر الله ـ جل وعلا ـ بلا زيادة ولا نقصان على هذا القول، فهو يخبر بالشيء الذي سيأتي؛ لأن وقوعه متحقق كأنه واقع.

فقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ على ظاهره، ولكن هذا يوم القيامة، وأخبرنا به بلفظ الماضي؛ لأنه متحقق الوقوع كغيره مما يخبر عن وقوعه في المستقبل، ولكن ذلك يدل على جنس الفعل وأنه يفعل ما شاء، تعالى الله وتقدس.

قوله: «**فلم يستحدث الاسم بالمجيء**» ما يجوز أن نقول: له اسم المجيء، فنسميه «جائي» أو «يجيء»، فليس هذا من اسم الله، بل هذا من

معطلاً، ولا مشبهاً، وارضَ لله بما رضي به لنفسه، وقِفَ عند خبره لنفسه مسلماً، مستسلماً، مصدقاً بلا مباحثة التنفير ولا مناسبة التنقير.

إلى أن قال: فهو تبارك وتعالى القائل: ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠] لا الشجرة، الجائي قبل أن يكون جائياً لا أمره المتجلي لأوليائه في الميعاد، فتبيَضُّ به وجوههم، وتَفْلُج به على الجاحدين حجتهم، المستوي على عرشه بعظمة جلاله فوق كل مكان تبارك وتعالى، الذي كلم موسى تكليماً، وأراه من آياته، فسمع موسى كلام الله لأنه قَرَّبَه نَجِيّاً، تقدس أن يكون كلامه مخلوقاً أو محدثاً أو مربوباً، والوارث لخلقه، السميع لأصواتهم، الناظر بعينه إلى أجسادهم،

الأمور التي لا نحتاج إليها.

قال: «**وتخلف الفعل لوقت المجيء، فهو جاء سيجيء**»، هذا ـ كما سبق ـ يدل على جنس الفعل مع إثبات ما دل على الظاهر من أنه يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه.

قوله: «**الجائي**» هذا لا ينبغي، فلا نسميه «الجائي»، ولا نأخذ له من الفعل اسماً، وهذا أمر اتفق عليه أهل السنة، ولكن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ـ كما سيأتي ـ يقول: ليس كل ما أذكره أقول به، وهذا من هذه الأشياء، غير أن غرضه إثبات الصفات في الجملة، وإذا قلنا في الجملة؛ فلا يلزم أن يكون كل فرد أو كل مذكور هو المراد.

قوله: «**المستوي**» وهذا مثل ما مضى، فلا نسميه «**المستوي**»، وبعض الناس يأخذ من الأفعال أسماءً، وهذا لا يجوز؛ لأن القاعدة أن الله لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، ولا يُسمى إلا بما سمى به نفسه، ولم يسمِّ نفسه الجائي.

يداه مبسوطتان، وهما غير نعمته خلق آدم، ونفخ فيه من روحه، وهو أمره تعالى وتقدس أن يحل بجسم، أو يمازج بجسم أو يلاصق به تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

الشائي له المشيئة، العالم له العلم، الباسط يديه بالرحمة، النازل كل ليلة إلى سماء الدنيا، ليتقرب إليه خلقُه بالعبادة، وليرغبوا

قوله: «**الناظر بعينه إلى أجسادهم**» مثل قوله: «**الجائي**» وما أشبه ذلك، ولكن إذا حملنا هذا على الخبر؛ فباب الخبر أوسع من باب الوصف، وهذا الحمل وإن كان فيه بُعدٌ إلا أننا نقول: لعله يريد الإخبار، وباب الخبر ليس هو باب الوصف.

وهذا مثل ما مضى، فالله جل وعلا يقال له: «شيء» من باب الخبر، ويقال له: «موجود»، فإذا قيل: هل الله موجود، فنقول: نعم الله موجود، ولكن لا نسميه موجوداً، ولا نصفه بهذا، وإنما يوصف بما وصف به نفسه، غير أن الصفات والأسماء إذا جاءت فيجب أن يُكتفى بها، فلا يحتاج إلى أننا نأخذ من الأفعال أسماءً وصفاتٍ نشتقها منها، فـ«**الناظر**» اشتقاق من نظر الله، وكذلك «**الجائي**» اشتقاق من جاء، فلسنا بحاجة إلى هذا ولا ينبغي.

قوله: «**ونفخ فيه من روحه وهو أمره**» فسر الروح بالأمر، وهذا من التأويل الذي لا يجوز.

وقوله: «**تعالى وتقدس أن يحل بجسم، أو يمازج بجسم أو يلاصق به**» هذا لا ينبغي أن يقال، بل نقول: نفخ فيه من روحه ونسكت، ونقول: إن هذا على ظاهره كسائر الصفات.

قوله: «**الشائي له المشيئة**» هذا مثل ما مضى، لا يُسمى تعالى بـ«الشائي»، ونثبت له المشيئة كما جاء في كتابه تعالى.

إليه بالوسيلة، القريب في قُربه من حبل الوريد، البعيد في علوه من كل مكان بعيد، ولا يُشَبَّه بالناس».

قوله: «**النازل.. القريب.. البعيد**» كل هذه الأسماء التي ذكر ليست على مذهب أهل السنة، بل على مذهب أهل الباطل، والواجب الاكتفاء بما وصف الله جل وعلا به نفسه، أو وصفه به رسوله، وهذا هو السبيل الذي فيه النجاة. أما أن ندخل في مثل هذه، فهي أمور خطرة، بل نقول: إن هذا خروج عن طريق أهل السنة الذين يقولون: إن الأسماء والصفات توقيفية، أي: أن نقف معها على النص فقط، ولا نزيد ولا نشتق هذه الاشتقاقات؛ لأنك إذا قلت: «الشائي» أو «الجائي»؛ فهذا لا يخص الله، ويطلق على كل «جاءٍ» وكل «شاءٍ»، والله جل وعلا أسماؤه وصفاته خصائص.

قوله: «**القريب في قربه من حبل الوريد**» هذا أخذاً من قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وللسلف في هذه الآية خلاف، فكثير منهم يقول: هذا قرب الملائكة الذين أحاطوا به عند الموت، أو الذين يكتبون أعماله، ويقولون: إن العظيم يجوز أن يقول: «نحن»، و«إنا»، و«فعلنا» إذا أمر مَنْ يكون ممتثلاً لأمره مثل الملائكة والرسل.

ومثل هذا: آخر سورة الواقعة عند حضور الملائكة للمحتضر يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾، يقولون: هذه الملائكة، يحيطون به ويقبضون روحه، وأهله محيطون به، ولكن هؤلاء أقرب منهم، فيجوز أن يكون هذا.

أما أن يكون هذا وصفاً لله؛ فيجب أن يكون متفقاً مع الصفات التي مضى ذكر شيء منها، وهي قوله: «**وهو الباطن ليس دونه شيء**»، وكذلك ما مضى أنه يقبض المخلوقات كلها بيده وتكون صغيرة، يعني أنه كبير عظيم.

. . . .

وقد جاء في «الترمذي» حديثٌ فيه ضعف، ولكن الذي فيه ضعف يجوز أن يصح مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «**لو أدْلَيتُم بحبلٍ إلى الأرض لسقط على الله**»(١)، قال الترمذي: «هذا حديث غريب».

وقوله: «**سقط على الله**» يعني على علم الله، وهذا تأويل لا يُقبل، بل يقال: إن الله محيط بكل شيء جل وعلا، فلا يَبْعد عنه شيء، وإحاطته وكبره وعظمه ما نحتاج إلى مثل هذا، مع أن الأحاديث الضعيفة لا تدخل في هذا الباب، ولكن لو قُدِّر أنه صحيح أو احتجَّ به محتجٌّ فنقول: الباب واحد.

وأهل الباطل قد يحتجّون بأشياء، فكما مرَّ معنا أن أهل الزيغ يتبعون ما تشابه منه، فقد يأتيك أحدهم ويقول: أنتم تقولون: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]، أنه مجيء على ظاهره. فنقول: نعم.

فربما يقولون: إذاً كيف تقولون: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾؟ [النحل: ٢٦]، أتقولون: إن الله يأتي من سيسان الحيطان؟ فنقول: لا، الذي أتاهم عذابه، بدليل القرينة ودليل السياق، ونحن ما نأخذ الكلام على وتيرة واحدة في كل مورد، وإنما ننظر إلى مراد المتكلم، فإذا تبين لنا مراد المتكلم فهذا الظاهر والحقيقة.

وهذا كقوله جل وعلا: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢]. يقول: هل تقول: إن هذا أتى الله بنفسه؟ فقد يقول لك مقتضى مذهبك أنك تقول ذلك! نقول: لا، فقد دلَّت القرائن ودل السياق على أن الذي أتاهم جند الله ورسوله وعذابه بذلك، فإذا تبين أن هذا هو

(١) أخرجه أحمد (٨٨٢٨)، والترمذي (٣٢٩٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إلى أن قال: «﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ القائل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٧] تعالى وتقدس أن يكون في الأرض كما في السماء جل عن ذلك علواً كبيراً» اهـ.

وقال الإمام أبو عبد الله الحارث بن إسماعيل بن أسد المحاسبي في كتابه المسمى «فَهْم القرآن»[(١)]، قال في كلامه على الناسخ والمنسوخ وأن النسخ لا يجوز في الأخبار قال: «لا يَحِلُّ لأحد أن يعتقد أن مدح الله وأسمائه وصفاته يجوز أن ينسخ منها شيء».

إلى أن قال: «وكذلك لا يجوز إذا أخبر أن صفاته حسنةٌ عُليا أن يخبر بعد ذلك أنها دَنِيَّة سفلى، فيصف نفسه بأنه جاهل ببعض الغيب بعد أن أخبر أنه عالم بالغيب، وأنه لا يبصر ما قد كان، ولا يسمع الأصوات، ولا قدرة له، ولا يتكلم ولا الكلام كان منه، وأنه تحت الأرض لا على العرش جل وعلا عن ذلك».

المراد؛ نقول: إن هذا هو الظاهر الذي دلت عليه القرائن والسياق وهو المراد، وليس فيه تأويل ولا تناقض.

فنحن ما نأخذ الكلام كله على وتيرة واحدة، وهذا يجب أن يكون معروفاً معلوماً عند طالب العلم؛ لئلا يُلبسَ عليه هؤلاء المشبهة الذين يشبهون الحق بالباطل، ويُلبسون على عباد الله، حتى يكون لهم حجة في مذهبهم الباطل؛ لأن من كان فيه زيغ يفرح بالأمور التي فيها تشكيك.

وقوله: «**المحاسبي**» معروف أن المحاسبي ـ مع أنه من المتقدمين ـ من الكُلابيين أتباع ابن كُلاب، وأتباع ابن كلاب خيرٌ من الأشاعرة وأفضل؛

---

(١) «فهم القرآن» (ص٣٣٢).

فإذا عرفتَ ذلك واستيقنته: علمتَ ما يجوز عليه النسخ وما لا يجوز، فإن تلوت آية في ظاهر تلاوتها تحسب أنها ناسخة لبعض أخباره كقوله عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ﴾ [يونس: ٩٠].

لأنهم يثبتون الصفات، وهو الذي هجره الإمام أحمد، فأصبح لا يكلمه مع تقاه وزهده وعلمه؛ ولكن لقوله هذه الأقوال.

وكتابه «فهم القرآن» مطبوع، وهو جيد لا بأس من الاطلاع عليه وقراءته، غير أن الإنسان يجب أن يعرف مذهبه أنه على مذهب ابن كُلاب في صفات الله جل وعلا، وهذا المذهب اندثر إلا ما شاء الله، فهذا الكتاب وغيره أبقى شيئاً من هذا المذهب، ولكن ليس له مثل الأشاعرة.

وقد قال كثيرٌ من الذين يتكلمون على تراجم الناس أن أبا الحسن الأشعري تحول من الاعتزال إلى الكُلَابية، ثم من الكُلَّابية إلى مذهب أهل السنة، وبقي معه شيء من الرواسب التي لم يَطّلع فيها على الحق بمذهب أهل السنة، وظنَّ أنها مذهب السنة، وهذا يوجد في مثل كتابه «رسائل الثغر» وغيرها، ولكن من آخر ما كتب «الإبانة»، وليس فيها شيء محظور إلا نادراً جداً، فهذا يدل على أنه لما اختلط بأهل السنة عرف الطريق وألّف هذا الكتاب.

أما ما يقال: إن هذه الكتب موضوعة عليه، فهذا يقال تبريراً لاتباع الباطل؛ لأن الأشاعرة المتأخرين لا يريدون أن يكون هذا مذهبه، وهذا من العجائب، المذهب المتفق مع الكتاب والسنة إلا ما شاء الله لا يرضونه ولا يريدونه؛ لأنهم ينتسبون إلى هذا الشخص ويريدون أن يكون على مذهبهم المتأخر!

والحقيقة أن مذهبهم هو مذهب الفخر الرازي، ومذهب الجويني،

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، وقال: قد تأول قوم أن الله عنى أن ينجيه ببدنه من النار إذ قد آمن عند الغرق، وقالوا: إنما ذكر الله قوم فرعون يدخلون النار دونه، وقال: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، وقال: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥]، ولم يقل بفرعون.

وقال: وهكذا الكذب على الله، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات: ٢٥]، ....

والشهرستاني، ونحوهم كما سبق، وليس مذهب أبي الحسن الأشعري.

قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾، نحتاج أن نفهمها، والمقصود هنا حتى يظهر علمنا بالفعل؛ لأن الله جل وعلا لا يأخذ إلا بالعمل، يعني هذا يدلنا على أن الله جل وعلا لا يعذب بعلمه، وقد علم الله جل وعلا قبل وجوده هذا الشيء أنه سيقع، ولكن قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ يعني: حتى يظهر علمنا فيه الذي يستحق به العذاب، ولا يكون له حجة، وهذا جاء في عدة آيات.

وأسلوب المتقدمين قد يكون فيه شيء من عسر الفهم؛ لأننا ابتعدنا عن قراءة كتبهم وترديدها، فإذا قرأ الواحد كتبهم قال: هذا شيء صعب ما نفهمه! والسبب هو عدم القراءة والترديد فيه؛ لأن الإنسان إذا قرأ الكتاب وردد القراءة عرف أسلوبه وعرف مقصوده بالشيء الذي يظهر إليه.

وقوله: «**إنما ذكر الله قوم فرعون يدخلون النار دونه**»، فإنه قال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود: ٩٨]، وهذا الذي ذكره الله جل وعلا في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، وهذا عند الاحتضار ومعاينة الموت، ولا تنفع التوبة حينئذ، فكل أحد إذا عاين الملائكة وجاءه

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [العنكبوت: ٣] فأقر التلاوة على استئناف العلم من الله ﷻ عن أن يستأنف علماً بشيء؛ لأنه من ليس له علم بما يريد أن يصنعه لم يقدر عليه أن يصنعه، نجده ضرورة. قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

قال: وإنما قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ إنما يريد: حتى

الموت آمن، لكن لا يفيده إيمانه كما قال ﷺ: «تقبل التوبة ما لم يُعايِن»[(١)] أي يعاين الملائكة الذين يأتون لقبض روحه.

كذلك قوله: «ما لم يغرغر»[(٢)] يعني تخرج الروح وتصل إلى مكان الغرغرة، فما دام وصل إلى الغرغرة عنده شيء من الإدارك والعقل، إلا أن التوبة لا تقبل إلا إذا كانت الحياة مستقرة في البدن، وإن كان يرى العلامات بالمرض الذي يمكن أن يكون فيه الموت، فهذا تقبل توبته، وليس كالذي يتوب وهو صحيح، فهذا أيضاً ذكره الله جل وعلا في كتابه ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]، إذا جاءهم الموت يعني عاينهم ولا يلتبس عليه، وليس بعد الممات.

قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، يعلم ذلك بظهور العمل الذي يعملونه، وقد علم الله جل وعلا ذلك قبل وجودهم، ولكن الله جل وعلا يجازي بالعمل الذي ظهر وبان، وقد سبق علم الله في ذلك.

قوله: «**إنما يريد حتى نراه**» يعني نرى علمنا بارزاً فيه بالعمل، يظهر عمله الذي عَلِمناه قبل وجوده بارزاً موجوداً، والله لا يأخذ إلا بهذا، لا

---

(١) أخرجه أبو حاتم في الزهد (٥٤)، عن أبي مجلز.

(٢) أخرجه أحمد (٦١٦٠)، والترمذي (٣٥٣٧)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

نراه، فيكون معلوماً موجوداً؛ لأنه لا جائز أن يكون يعلم الشيء معدوماً من قبل أن يكون، ويعلمه موجوداً كان قد كان، فيعلم في وقت واحد معدوماً موجوداً، وإن لم يكن، وهذا المحال.

وذكر كلاماً في هذا في الإرادة.

إلى أن قال: «وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥] ليس معناه أن يحدث له سمعاً، ولا تكلف لسمع ما كان من قولهم، وقد ذهب قومٌ من أهل السنة أن لله استماعاً حادثاً في ذاته، فذهبوا إلى أن ما يعقل من الخلق أنه يحدث منهم علم سمع لما كان من قوله؛ ....

يأخذ بمجرد العلم والكتابة، وهذا سبق الكلام فيه.

قوله: «**فيكون معلوماً موجوداً**» فيعلم في وقت واحد، والمقصود حتى نعلمه ويظهر علمنا، وليس معنى ذلك أنه يعلم الموجود والمعدوم في آن واحد؛ لأن هذا متناقض ومستحيل ممتنع.

قوله: «**لا جائز أن يكون يعلم الشيء معدوماً**» علمه جل وعلا بالمعدوم علم سابق، ولكن المعدوم ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: معدوم لا يوجد، فهذا لا يسمى شيئاً.

القسم الثاني: معدوم إلى غاية مغياة، وفي علم الله أنه سيوجد ولا يتغير علم الله في ذلك، فعلم الله في الأزل والوجود شيء واحد، لا يزيد علماً بوجود الموجودات، بل علمه تام كامل تعالى وتقدس.

قوله: «**وقد ذهب قومٌ من أهل السنة أن لله استماعاً حادثاً في ذاته**» هذا مذهب الكلابية أن سمعه أزلي، يعني يسمع بالأزل والسمع لا يتجدد، وهكذا غير السمع عندهم، وهذا من الباطل، فالله يسمع الصوت إذا حدث

. . . .

كما جاء في قول الله جل وعلا: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، تقول عائشة: سبحان من وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة ـ وهي خولة لما ظاهر منها زوجها ـ إلى النبي ﷺ تستفتيه، تقول: فكنت في طائفة البيت وإنه يخفى علي بعض كلامها، فسمع كلامها رب العالمين من فوق سبع سماوات(١)، فأنزل قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾.

فالمجادِلة لما ذكرت أن زوجها ظاهر منها، والظهار كانت الجاهلية تفعله وهو منكر، كما قال الله جل وعلا: ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ﴾ [المجادلة: ٢]، يعني أن يُشَبّه زوجته بظهر أمه أو بعضو من أعضائها، فيقول: أنت علي كظهر أمي أو كرجل أمي، أو كيَدِ أمي؛ فهذا منكر من القول وزور، ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

ثم أخبر عن المخرج في هذا، فإذا ظاهر فإن عليه أن يُعتق رقبة قبل أن يتماسا، فإن لم يستطع، فيصوم شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فإن لم يستطع فيطعم ستين مسكيناً.

فالمقصود أن هذا يدلنا على أن الله لا يفوته سمع في كل وقت، لا أنه استمع إلى الأشياء في الأزل، كما يفهم من كلام القائل، وأن سمعه شيء واحد، فتعالى الله جل وعلا عن ذلك.

---

(١) ذكره البخاري معلقاً (٩/١١٧)، وأخرجه أحمد (٧٣٢)، والنسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨).

لأن المخلوق إذا سمع حدث له عقد فهم عما أدركته أذنه من الصوت.

وكذلك قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥]، لا يستحدث بصراً محدثاً في ذاته، وإنما يحدث الشيء فيراه مكوناً كما لم يزل يعلم قبل كونه. إلى أن قال: وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، لا يستحدث بصراً محدثاً في ذاته، وإنما يحدث الشيء فيراه مكوناً كما لم يزل يعلم قبل كونه».

فهي كانت تقول في شكواها: إلى الله أشكو صبية إن ضممتهم إلي جاعوا، وإن تركتهم عنده ضاعوا[1]، فأنزل الله جل وعلا المخرج وهو الكفارة، مع أنه جل وعلا سمى هذا منكراً من القول وزوراً، فمعنى منكر من القول أنه حرام، فالمظاهرة لا تجوز، والكفارات التي تأتي في الشرع لأمور محرمة للتخلص من ذلك مع الاستغفار، ليست مجرد تكفير وانتهى، فلا بد أن يتوب من ذلك ويستغفر، والتوبة: أن يقلع عن الذنب وأن يعزم على أن لا يعود إليه مع الندم.

قوله: «**لأن المخلوق إذا سمع حدث له عقد فهم عما أدركته أذنه من الصوت**»، فلا يجوز أن نقيس الرب جل وعلا على المخلوق! تعالى الله وتقدس.

قوله: «**لا يستحدث بصراً محدثاً في ذاته، وإنما يحدث الشيء فيراه مكوناً كما لم يزل يعلم قبل كونه**»، هذا الذي أوجب الإمام أحمد أنه يهجر هذا الرجل ولا يكلمه لمثل هذا الكلام؛ لأنه كلام على خلاف قول أهل السنة، وهو كلام أولئك الذين حكم أهل السنة على أنهم مبتدعة.

وقد يقول قائل: لماذا شيخ الإسلام يذكر هذه الأقوال؟

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٤٧).

إلى أن قال: «وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾. وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقال لعيسى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وذكر الآلهة أن لوكان آلهة لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً إلى طلبه حيث هو، فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

فالجواب: يذكرها لأن هذه فيها إثبات الصفات في الجملة، ولهذا سيأتي تنبيهه على ذلك بقوله: «ليس كل ما ذكرنا نقول به»، فإن مثل هذه الأشياء لا يقول بها لا هو ولا أحد من أهل السنة، وإنما يقول: إن الله يسمع كل صوت يحدث بسمع حقيقي وهو سمع معروف، وهو إدراك المسموعات. كما أن البصر إدراك المبصَرات، فالله جل وعلا لا يفوت سمعَه شيء، وليس معنى ذلك أنه سمع ذلك في الأزل وكتب هذا، ثم يظهر فيما بعد ذلك الذي سمعه، كما يفهم من كلام المحاسبي.

فقوله: «**لا يستحدث بصراً محدثاً في ذاته**»، هذا من المنكر، فهل نحن بحاجة إلى أن نقول مثل هذا؟ نقول: المبصِر يرى المبصَرات، لا نقول: «**يستحدث بصراً**»، ولكن عندهم أن رؤية الشيء حدث، والحادث لا يكون الله تعالى مَحَلّاً له، يعني يسمون إدراك المبصَر وإدراك المسموع حدثاً، والبلاء جاء من هنا، فهذه التسمية تسمية باطلة، وأصل هذا البلاء هو قياس رب العالمين جل وعلا على ما يعرفونه من أنفسهم.

قال أبو عبد الله: «فلن ينسخ ذلك أبداً».

كذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، فليس هذا بناسخ لهذا، ولا هذا ضد لذلك.

واعلم أن هذه الآيات ليس معناها أن الله أراد الكون بذاته فيكون في أسفل الأشياء، أو يتنقل فيها لاستفالها، ويتبعض فيها على أقدارها، ويزول عنها عند فنائها، جل وعز عن ذلك، وقد نزع بذلك بعض أهل الضلال، فزعموا أن الله تعالى في كل شيء بنفسه كائناً، كما هو في العرش، ولا فرق بين ذلك عندهم، ثم أحالوا في النفي بعد تثبيت ما يجوز عليه في قولهم ما نفوه؛ لأن كل من يثبت شيئاً في المعنى ثم نفاه بالقول لم يغنِ عنه نفيه بلسانه، واحتجوا بهذه الآيات أن الله تعالى في كل شيء بنفسه كائناً، ثم نفوا معنى ما أثبتوا، فقالوا: لا كالشيء في الشيء.

قال أبو عبد الله: أما قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١]، ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ و﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ ....

قوله: «**قال أبو عبد الله**» لا يزال في كلام المحاسبي، واللغة التي كان يتكلم بها والأسلوب قد يكون غريباً علينا.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، يعني أنه معبود في الأرض كما أنه معبود في السماء، فهو إله أهل الأرض وهو إله أهل السماء، وكذلك الآيات التي قبلها في هذا المعنى، وليس معنى ذلك أنه موجود في السماء والأرض بذاته تعالى الله وتقدس.

فإنما معناه: حتى يكون الموجود فيعلمه موجوداً، ويسمعه مسموعاً، ويبصره مبصراً، لا على استحداث علم ولا سمع ولا بصر.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ﴾: إذا جاء وقت كون المراد فيه.

وأن قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾، ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ فهذا وغيره مثل قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ هذا منقطع يوجب أنه فوق العرش، فوق الأشياء كلها منزه عن الدخول في خلقه، لا يخفى عليه منهم خافية، لأنه أبان في هذه الآيات أن ذاته بنفسه فوق عباده، لأنه قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، يعني فوق العرش،

ولهذا يقول: «**حتى يكون الموجودُ فيعلمه**»، يعني حتى يوجد، فـ«يكون» هنا تامة ولا تتطلب اسماً ولا خبراً، وهكذا الذي سبق لما ذكره، فيعلمه موجوداً هو يعلمه موجوداً، وهو يعلمه أيضاً معدوماً وهو مكتوب في علمه أنه سيوجد في وقت معين محدد بدون زيادة ولا نقصان؛ لأن كلامه هذا قد يوهم باطلاً وهو غير مراد، أي يوهم أنه لا يعلمه حتى يوجد، وهو ما أراد هذا، وإنما أراد أن يبين أن معناه أنه يراه على ما هو عليه عند وجوده.

ومعنى قوله جل وعلا: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ السين هنا للاستقبال، وهذا يدلنا على أن هذه الرؤية مستقبلةٌ ستأتي، فيكون معنى ذلك يعني عند ظاهر اللفظ الذي لا يلحظ المعنى أنه لا يعلم ذلك حتى يوجد، وقد قال بهذا من قال من أهل الضلال، وهكذا الذي مضى من قوله.

قوله: «**ويبصره مبصراً لا على استحداث علم ولا سمع ولا بصر**»، يعني في ذاته، هذا مقصوده؛ لأن سمعه وعلمه وبصره تام لا يستزيد شيئاً بوجود المخلوق، فهو ـ بصفاته ـ كاملٌ تامٌ تعالى الله وتقدس.

والعرش فوق السماء، لأن من قد كان فوق كل شيء على السماء في السماء، وقد قال مثل ذلك قال: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]، يعني على الأرض، لا يريد الدخول في جوفها.

وكذلك قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ١٧]، يعني: فوقها عليها.

وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ثم فصل فقال: ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ ولم يصل، فلم يكن لذلك معنى إذا فصل بقوله: ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ثم استأنف التخويف بالخسف إلا أنه على عرشه فوق السماء.

وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، وقال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، فبين عروج الأمر وعروج الملائكة، ثم وصف وقت صعودها بالارتفاع صاعدة إليه، فقال: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، فقال: صعودها إليه، وفصله من قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ كقول القائل: اصعد إلى فلان في ليلة أو يوم وذلك أنه في العلو وأن صعودك إليه في يوم، فإذا صعد إلى العرش فقد صعدوا إلى الله ﷻ، وإن كانوا لم يروه ولم يساووه في الارتفاع في علوه فإنهم صعدوا من الأرض وعرجوا بالأمر إلى العلو قال الله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] ولم يقل: عنده.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، ثم استأنف الكلام فقال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، فيما قال لي إن إلهه فوق السموات.

....

فَبَيَّنَ الله سبحانه أن فرعون ظن بموسى أنه كاذب فيما قال، وعمد لطلبه حيث قاله من الظن بموسى إنه كاذب، ولو أن موسى قال: إنه في كل مكان بذاته، لطلبه في بيته أو بدنه، أو حُشِّه، فتعالى الله عن ذلك، ولم يجهد نفسه ببنيان الصرح.

قال أبو عبد الله: وأما الآية التي يزعمون أنها قد وصلها ولم يقطعها كما قطع الكلام الذي أراد به أنه على عرشه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة: ٧]، فأخبر بالعلم، ثم أخبر أنه مع كل مناج ثم ختم الآية بالعلم بقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبدأ بالعلم، وختم بالعلم، فبين أنه أراد أنه يعلمهم حيث كانوا لا يخفون عليه، ولا يخفى عليه مناجاتهم ولو اجتمع القوم في أسفل وناظر إليهم في العلو، فقال: إني لم أزل أراكم، وأعلم مناجاتكم لكان صادقاً ولله المثل الأعلى أن يشبه الخلق فإن أَبَوْا إلا ظاهر التلاوة، وقالوا: هذا منكم دعوى، خرجوا عن قولهم في ظاهر التلاوة لأن من هو مع الاثنين أو أكثر هو معهم لا فيهم، ومن كان مع الشيء فقد خلا منه جسمه وهذا خروج من قولهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، لأن ما قرب من الشيء ليس هو في الشيء، ففي ظاهر التلاوة على دعواهم أنه ليس في حبل الوريد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] لم يقل في السماء، ثم قطع كما قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ثم قطع فقال: ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ إله أهل السماء وإله أهل الأرض.

قوله: «ثم قطع»، أي أنه لم يصله بالمعنى الثاني، فيكون المعنى الذي

وذلك موجود في اللغة تقول: فلان أمير في خراسان، وأمير في بلخ، وأمير في سمرقند، وإنما هو موضع واحد، ويخفى عليه ما وراءه، فكيف العالي فوق الأشياء لا يخفى عليه شيء من الأشياء، فهو إله فيهما إذ كان مدبراً لهما، وهو على عرشه فوق كل شيء، تعالى عن الأمثال» اهـ.

بعده مقطوع عنه ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ثم قطع. فإن قيل: أليس قوله: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ متعلق به؟ إذاً كيف يقول: قطع؟

نقول: ليس هو بمعنى التعلق، فليس المقصود الإخبار بأنه في السماء فقط، ثم ينتهي الكلام حتى يمكن بأن تكون المقصود الإخبار عنه بأنه في السماء أن يكون السماء ظرفاً له، فيكون قوله: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ المراد التخويف، ودل على أنه في السماء يعني في العلو.

وقد مضى الكلام في أن «في» بمعنى «على»، وأن المقصود بالسماء العلو أولى، فلا نحتاج إلى أن نقول: إن «في» بمعنى «على»، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني أأمنتم من في العلو.

وكذلك قول الرسول ﷺ في خطابه للجارية: «**أين الله؟**» فقالت: في السماء[1]. يعني فوق، فلا يقصد أنه في السماء المَبْنِيَّة، فكلُّ ما فوق فهو سماء، مع أن الكلام الذي ذكره صحيح، ولكن هذا أولى؛ لأننا لا نحتاج إلى تقدير، والشيء الذي لا يحتاج إلى تقدير أولى من أمرٍ يحتاج إلى تقدير.

قوله: «**وذلك موجود في اللغة**» هذا تقريب للأذهان، وإلا فالخطاب أوضح من ذلك وأبين.

قوله: «**فهو إله فيهما إذ كان مدبراً لهما، وهو على عرشه فوق كل شيء**

---

(١) تقدم تخريجه ص٦٨.

. . . .

تعالى عن الأمثال» هذا كلام المحاسبي في كتابه «فهم القرآن»، والمؤلف لا يقول بكل ما يقول، وسيأتي التنبيه على هذا بقول المؤلف نفسه، وإنما المقصود بذلك الموافقة في الجملة بإثبات الصفات، وإلا فيه محاذير، ولا نريد أن نقف عند كل لفظة؛ لأن هذا الذي جاء به وذكره سيأتي الكلام فيه، مثل: المعية، وسيأتي ذلك في كلام المؤلف.



وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن خُفَيْف، في كتابه الذي سماه «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات»، قال في آخر خطبته: «فاتفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله ﷻ، ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه قولاً واحداً، وشرعاً ظاهراً، وهم الذين نقلوا عن رسول الله ﷺ ذلك حتى قال: «**عليكم بسنتي**»[١] وذكر الحديث.

قوله: «في كتابه الذي سماه اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات»، هكذا أكثر المؤلفات في ذلك الوقت وفيما بعد؛ يجعلون التوحيد إثبات الأسماء والصفات، ولا ذكر لتوحيد العبادة؛ لأنه لم يحدث فيه الخلاف كما حدث في هذه الأمور؛ وذلك أن توحيد العبادة أمره أوضح وأجلى عند هؤلاء؛ لوجود عبادة المشركين قبل هذا والعلم بها؛ لأن الشيء يُعرف بضده ويتبين بمضاده.

أما هذه فهي أمور استحدثت وما كانت سابقة، فانطلى أمرها على كثير من الناس، وقد سبق السبب في استحداثها وهو قصد إفساد عقائد المسلمين ومحاربتهم في عقيدتهم، حينما عجزوا عن حربهم وجهاً لوجه في السلاح والقوة، فانصرفوا إلى هذا الأمر وقد نجحوا في ذلك، فمزقوا وحدة المسلمين، وصار المسلمون فِرَقاً متناحرة متقاتلة بالكلام والتهاتر.

وإذا وُجد الاختلاف في القول والكلام ضعفَ الناس وذهبت ريحهم، وصار للعدو فيهم مطمع ومدخل، وهذا الذي حصل، ولا يزال الأمر إلى اليوم، فتجد كل فريق عدواً للآخر، ولا يمكن أن يتفق معه، وهكذا كل فرقة معادية للأخرى، بل جعلت الكتب موجهة للرد على هذه الفرقة،

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٤)، من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

وحديث: «**لعن الله من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً**»[1] وقال: فكانت كلمة الصحابة على اتفاق من غير اختلاف، وهم الذين أُمرنا بالأخذ عنهم إذ لم يختلفوا بحمد الله تعالى في أحكام التوحيد وأصول الدين من الأسماء والصفات كما اختلفوا في الفروع، ولو كان منهم في ذلك اختلاف لنُقل إلينا كما نُقل سائر الاختلاف، فاستقر صحة ذلك عن خاصتهم وعامتهم حتى أدوا إلى التابعين لهم بإحسان.

فانشغل بعضهم ببعض، مع البغض والتقاطع. ولا يزال الأعداء يوجهون الحرب إلى المسلمين في عقائدهم، ولما نجحوا في هذا، وجهوا إلى إفساد أخلاقهم وإفساد ما بينهم، والله المستعان.

فالواجب على المسلمين أن يعرفوا أعداءهم من هم؟ ثم هؤلاء الذين نجحوا في إشغال المسلمين في عقائدهم صاروا أعواناً لأعداء المسلمين حيث كفوهم القتال، وكفوهم مهمة إضعاف المسلمين، فقاموا مقامهم!

ولهذا صار التأليف كله في ذلك الوقت وبعده موجهاً لمسائل الأسماء والصفات؛ لأنه إذا حصل التشكيك في الله جل وعلا فكُلُّ غيره أسهل، فالعقيدة مبنية على هذا.

ثم ذكر حديث: «لعن الله من أحدث حدثاً»، والحديث في الصحيح، والمقصود هو الحدث في الدين، وأعظم الحدث فيه تحريفُ صفات الله تعالى وأسمائه والإلحاد فيها، وتعطيل الله تعالى عما وصف به نفسه، وتشكيك المسلمين في فهم كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، فإن في ذلك إضعافاً للمسلمين وإرجاعهم إلى ما كانوا عليه قبل مجيء الرسول إليهم، وهذا من أعظم مقاصد العدو.

---

(١) أخرجه البخاري بنحو منه (١٨٧٠) مع زيادة: «المدينة حرم ما بين عير إلى ثور..» ومسلم (١٩٧٨)، وهذا لفظه، وفيه زيادة في أوله.

فاستقر صحة ذلك عند العلماء المعروفين حتى نقلوا ذلك قرناً بعد قرن، لأن الاختلاف كان عندهم في الأصل كفراً، ولله المنة.

ثم إني قائل وبالله أقول: إنه لما أحدثوا في أحكام التوحيد وذكر الأسماء والصفات على خلاف منهج المتقدمين من الصحابة والتابعين، فخاض في ذلك من لم يُعرَفوا بعلم الآثار، ولم يعقلوا قولهم بذكر الأخبار، وصار مُعَوَّلُهم على أحكام هوى النفوس المستخرجة من سوء الطوية وما وافق على مخالفة السنة، والتعلق منهم بآيات لم يسعدهم فيها ما وافق النفوس، فتأولوا على أهوائهم، وصححوا بذلك مذاهبهم: احتجتُ إلى الكشف عن صفة المتقدمين، ومأخذ المؤمنين ومنهاج الأولين، خوفاً من الوقوع في جملة أقاويلهم التي حذر رسول الله ﷺ أمته ومنع المستجيبين له حتى حذرهم.

ثم ذكر أبو عبد الله خروج النبي ﷺ وهم يتنازعون في القدر وغضبه. وحديث: «**لا أُلفِيَنَّ أَحَدَكم متكئاً على أريكته**»[1]. وحديث: «**ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**» وأن الناجية ما كان عليه هو وأصحابه[2]».

ثم قال: «فلزم الأمةَ قاطبة معرفةُ ما كان عليه الصحابة، ولم يكن الوصول إليه إلا من جهة التابعين لهم بإحسان المعروفين بنقل الأخبار ممن لا يقبل المذاهب المحدثة، فيتصل ذلك قرناً بعد قرن

....

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٧٦)، وأبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه (١٣)، من حديث أبي رافع رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

ممن عُرفوا بالعدالة والأمانة، المحافظين على الأمة ما لهم وما عليهم من إثبات السنة، إلى أن قال: فأول ما نبتدئ به ما أوردنا هذه المسألة من أجلها، ذكر أسماء الله ﷻ وصفاته مما ذكر الله في كتابه، وما بيَّن ﷺ من صفاته في سنته، وما وصف به ﷻ نفسه مما سنذكر قول القائلين بذلك مما لا يجوز لنا في ذلك أن نرده إلى أحكام عقولنا بطلب الكيفية بذلك، ومما قد أمرنا بالاستسلام له».

إلى أن قال: «ثم إن الله تعرف إلينا بعد إثبات الوحدانية وإقرار الألوهية: أن ذكر تعالى في كتابه بعد التحقيق بما بدأ به من أسمائه وصفاته، وأكده عليه السلام بقوله، فقبلوا منه كقبولهم، لأوائل التوحيد من ظاهر قوله لا إله إلا الله.

إلى أن قال بإثبات نفسه بالتفصيل من المجمل، فقال لموسى عليه السلام: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه: ٤١]، ....

قوله: «**ثم إن الله تعرف إلينا..**» معنى هذا الكلام أن الله تعالى ذكر في كتابه أسماءه وصفاته، وكذلك رسوله ﷺ بعدما دعا إلى عبادته وحده وتحقيق ذلك «**بما بدأ به من أسمائه وصفاته وأكده**» يعني أن السُّنة جاءت مبينة للقرآن، فالتأكيد ـ وقصده بذلك البيان ـ أن السنة بينت الكتاب، والرسول أول ما بدأ بالدعوة قال: «**قولوا: لا إله إلا الله**»[1]، فهذه دعوة إلى توحيد الإلهية.

ومعلومٌ أن توحيد الربوبية عندهم أمرٌ مسلم به، ولا خلاف بينهم في ذلك، ولهذا صار دليلاً على وجوب التزام توحيد الإلهية يعني إقرارهم بتوحيد الربوبية صار ملزماً لهم أن يقروا بتوحيد الإلهية، فصار الأصل هو

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد «المسند» (١٦٠٢٣)، من حديث ربيعة بن عباد الديلي رضي الله عنه.

وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ولصحة ذلك، واستقراره ناجاه المسيح عليه السلام فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

وأكد عليه السلام صحة إثبات ذلك في سنته فقال: «**يقول الله عز وجل: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي**»[1].

توحيد الربوبية في هذا، إذ إن الذي يخلق ويرزق ويحيي ويميت هو الذي يجب أن يعبد، والذي يتصرف في الكون كله وأوجده هو الذي يجب أن يتوجه إليه بالعبادة وحده، فلا يستسيغ العاقل أن يتجه بالعبادة لمن هو عاجز لا يستطيع أن يفعل شيئاً فيكون نظيراً له، وقد يكون أقدر منه إذا كان شجرةً أو حجراً أو كان ميتاً، أو كان غائباً وما أشبه ذلك، فهذا الذي قرره القرآن وصار الناس ما يحتاجون إلى ذكر ذلك لظهوره ووضوحه.

ومن هنا قال من قال من العلماء: إنه لا عذر لجاهل في توحيد الله جل وعلا؛ لأن الأدلة فيه ظاهرة جلية، ولكنه عمي ولم يستعمل عقله، فيكون هو الملوم.

قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ سبق الكلام في هذا، والمختار في هذه الصفة أن النفس المقصود بها الذات، هكذا يقوله المفسرون مثل: ابن جرير ونحوه من مفسري السلف، وليس أن هناك صفة يقال لها: نفس الله.

وهكذا قول عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾، وإن كان ابن خزيمة رحمه الله في كتاب التوحيد اختار خلاف هذا وقال: «أول ما نبدأ به ذكر نفس ربنا أن لله نفساً»[2]، فذكر هذه الأدلة، ولكن هذا قول مرجوح، فالأئمة مثل الإمام أحمد والدارمي والبخاري ونحوهم؛ قالوا: إن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) «التوحيد» لابن خزيمة (١/١٣).

وقال ﷺ: «كتب كتاباً بيده على نفسه: إن رحمتي سبقت غضبي»[١]. وقال: «سبحان الله رضا نفسه»[٢]، وقال في محاجّة آدم لموسى: «أنت الذي اصطفاك الله، واصطنعك لنفسه؟»[٣].

فقد صح بظاهر قوله أنه أثبت لنفسه نفساً، وأثبت له الرسول ذلك، فعلى من صدق الله ورسوله اعتقاد ما أخبر الله به عن نفسه. ويكون ذلك مبنياً على ظاهر قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

ثم قال: فعلى المؤمنين خاصتهم وعامتهم قبول كل ما ورد عنه عليه السلام بنقل العدل عن العدل حتى يتصل به عليه السلام، وأن مما قص الله علينا في كتابه، ووصف به نفسه، ووردت السنة بصحة ذلك أن قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال عُقَيبَ ذلك: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، وبذلك دعاه ﷺ: «أنت نور السماوات والأرض»[٤].

ثم ذكر حديث أبي موسى: «حجابه النور ـ أو النار ـ لو كَشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[٥] وقال: سبحات وجهه: جلاله ونوره، نقله عن الخليل وأبي عبيد، وقال:

المقصود بالنفس: الذات، وقد أنكر الإمام أحمد على من قال خلاف هذا.

يقول: «**فقد صح بظاهر قوله أنه أثبت لنفسه نفساً**»، ولكن هذا أمر محتمل، فإذا كان محتملاً فلا يُجزم به، والصحيح خلاف هذا؛ لأن هذا ليس نصاً، وسبق الفرق بين الظاهر والنص.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٦)، من حديث جويرية رضي الله عنها.
(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٠)، وأصله عند البخاري (٤٧٣٦)، ومسلم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) أخرجه مسلم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

قال عبد الله بن مسعود: «نور السماوات من نور وجهه»[(١)].

ثم قال: «ومما ورد به النص أنه حي، وذكر قوله تعالى: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والحديث: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»[(٢)]».

قال: «ومما تعرف الله إلى عباده أن وصف نفسه أن له وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام، فأثبت لنفسه وجهاً»، وذكر الآيات.

ثم ذكر حديث أبي موسى المتقدم، فقال: «في هذا الحديث من أوصاف الله ﷻ «لا ينام» موافق لظاهر الكتاب ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وأن له وجهاً موصوفاً بالأنوار، وأن له بصراً كما أعلمنا في كتابه أنه سميع بصير».

ثم ذكر الأحاديث في إثبات الوجه، وفي إثبات السمع والبصر، والآيات الدالة على ذلك.

ثم قال: «ثم إن الله تعرف إلى عباده المؤمنين، وأنه قال: له يدان قد بسطهما بالرحمة، وذكر الأحاديث في ذلك، ثم ذكر شِعر أمية بن أبي الصلت، ثم ذكر حديث: «يلقى في النار وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رِجله»، وهي رواية البخاري، وفي رواية أخرى: «يضع عليها قدمه»[(٣)].

قوله في الحديث: «رجله.. وقدمه»، يعني لا فرق بين الرجل والقدم، كلاهما واحد.

---

(١) أخرجه أبو داود في «الزهد» (١٥٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٣٣٠)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه (ص٨٥).

ثم ما رواه مسلم البُطين عن ابن عباس: «أن الكرسي موضع القدمين، وأن العرش لا يقدر قدره إلا الله»[(١)] وذكر قول مسلم البُطين نفسه، وقول السدي[(٢)]، وقول وهب بن منبه[(٣)]، وأبي مالك[(٤)]، وبعضهم يقول: «موضع قدميه» وبعضهم يقول: واضع رجليه عليه.

ثم قال: فهذه الروايات قد رويت عن هؤلاء من صدر هذه الأمة موافقاً لقول النبي ﷺ متداولاً في الأقوال، ومحفوظاً في الصدور، لا ينكر خلف عن سلف، ولا ينكر عليهم أحد من نظرائهم، نقلتها الخاصة والعامة مدونة في كتبهم، إلى أن حدث في آخر الأمة من

قوله: «**الكرسي**» بعضهم قال: الكرسي كالمرقاة تحت العرش[(٥)]، وكل هذه تفاسير تبين مرادهم في ذلك، ومعنى «**القدمين**» أي قدمي الرب جل وعلا، وهذا ظاهر، نقول: موضع القدمين ثم نسكت، نقول: قدمي ربنا جل وعلا، فإذاً هم يؤمنون بأن لله قدمين تعالى الله وتقدس.

وكثير من الناس لا يستطيع سماع هذه الآثار وهذه الأحاديث؛ لأن التشبيه مُستكنٌّ في نفسه يفهم من قدميه ما يفهم من قدميه وأمثاله، والله جل وعلا ليس كمثله شيء وهو أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء، وقد يأتي ما هو أبلغ من هذا من الصفات.

قوله: «**مدونة في كتبهم إلى أن حدث في آخر الأمة..**» آخر الأمة بالنسبة إليهم، فهو في القرن الرابع أو الخامس، وحدث بعده أحداث لا تصل إلى تلك الأحداث، بل أعظم.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٦٨).
(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٤/ ٥٣٨).
(٣) انظر: «السنة» لعبد الله(٢/ ٤٧٧)، و«العظمة» لأبي الشيخ (٢/ ٦٢٣).
(٤) انظر: «السنة» لعبدالله (١/ ٣٠٣).
(٥) انظر: «شرح الطحاوية» (ص٢٥٧).

قلل الله عددهم ممن حذرنا رسول الله ﷺ عن مجالستهم ومكالمتهم، وأمرنا ألا نعود مرضاهم، ولا نشيع جنائزهم، فقصد هؤلاء إلى هذه الروايات فضربوها بالتشبيه وعَمَدوا إلى الأخبار، فعملوا في دفعها إلى أحكام المقاييس، وكفَّروا المتقدمين، وأنكروا على الصحابة، وردوا على الأئمة الراشدين، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

ثم ذكر المأثور عن ابن عباس، وجوابه لِنَجْدةَ الحروري، ثم ذكر حديث الصورة، وذكر أنه صنف فيه كتاباً مفرداً واختلاف الناس في تأويله.

ثم قال: وسنذكر أصول السنة وما ورد من الاختلاف فيما نعتقده فيما خالفنا فيه أهل الزيغ، وما وافقنا فيه أصحاب الحديث من المثبتة إن شاء الله.

قوله: «**حديث الصورة**» يعني: صورة الرحمن جل وعلا، كقوله في حديث ابن عمر: «**خلق الله آدم على صورته**»[١]. وفي رواية له: «**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته**»[٢]، ونحو ذلك.

وقد تكلم على هذا الحديث المؤلفُ رَحِمَهُ اللهُ في «نقض التأسيس» بما لو أفرد لصار مجلداً، وردَّ الشبه التي يتعلق بها من أنكر ذلك، وكذلك ردَّ التأويلات الباطلة التي قالها مَنْ تأوله تأويلاً باطلاً، بحيث إذا طالع الإنسان هذا الكلام بتأملٍ وفَهْم اقتنع بذلك تماماً[٣].

قوله: «**المقاييس**» يعني مقاييس العقول، والأمثال التي تضرب.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٨٥).
(٢) أخرجه البخاري (٢٥٥٩)، ومسلم (٢٦١٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) انظر: «نقض التأسيس» (٦/ ٣٥٥).

ثم ذكر الخلاف في الإمامة واحتج عليها، وذكر اتفاق المهاجرين والأنصار على تقديم الصديق ﷺ وأنه أفضل الأمة.

ثم قال: وكان الاختلاف في خلق الأفعال، هل هي مقدرة أم لا؟

قال: وقولنا فيها أن أفعال العباد مقدرة معلومة، وذكر إثبات القدر.

قوله: «**وكان الاختلاف في خلق الأفعال**» الخلاف فقط في أنها مقدرة أم لا؟ ولكن هذا الأصل أنها مقدرة ومخلوقة لله، لو أنها مخلوقة للفاعل فقط؛ لكان خالقاً مع الله، فعلى ذلك يكون الخالقون كثيراً، ولهذا يقول: إن الإنسان يخلق فعله، وأصل هذا الشُّبه التي حدثت لهم، فقالوا: كيف يخلق جل وعلا فعل الإنسان ثم يعاقبه على هذا الفعل الذي خلقه الله؟ هذا ظلم.

هذا مما حداهم إلى إنكار أن يكون الله جل وعلا هو الذي خلق أفعال العباد، فقالوا: العباد يخلقون أفعالهم ويستقلون بذلك، ثم تبع هذا أمور أخرى، مثل الهدى والضلال. قالوا: الله لا يهدي أحداً، ولا يضل أحداً، وإنما يهتدي الإنسان بنفسه وقوته وفكره ونظره، وكذلك يضل باختياره ونظره وقوته وفكره.

فإذاً ما معنى قول الله جل وعلا: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣]؟

قالوا: معناه أن الله يبين طريق الضلال من طريق الهدى.

قيل لهم أيضاً: وما معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]؟

قالوا: معنى ذلك حبب ذكر فضائل الإيمان ونتائجه، وكذلك ذكر مساوئ الكفر وعاقبته.

. . . .

وكل هذا ضلال بيِّن وواضح، وهذا يدلك على أن أهل الباطل يحرفون كلام الله حتى يتفق مع مرادهم، ويجزمون بأن هذا هو مراد الله، وبذلك استحكم الضلال، وحكموا على مَنْ خالفهم بأنهم هم الضالون.

والله جل وعلا خالق كل شيء، ومنه أفعال الإنسان، وعند التفصيل في هذا يقال لهم: ألستم مقرين بأن الإنسان مخلوق لله؟ يقولون: نعم. فيقال: ما هو هذا الإنسان المخلوق، هل هو اللحم والدم والعظام؟ أم فيه السمع والبصر والفكر والعقل؟ إذْ لا يمكن أن ينفصل هذا عن هذا.

فيقال لهم: أليس الإنسان فيه القدرة والإرادة؟ بلى.

فنقول: من خلق القدرة والإرادة؟

فلا يمكن أن يقال: إن الإنسان هو الذي خلق قدرته وإرادته، وإلا لم يكن ليرضى أن يكون آخرُ أقدَرَ منه، وكذلك الإرادة، إذاً تكون القدرة والإرادة مخلوقة لله، ولكن بين للإنسان الطريق: طريق الخير وطريق الشر، والإنسان عنده القدرة والإرادة، فإن فعل الخير فإنه يلقى خيراً، وإن فعل الشر فإنه يلقى شراً، بنحو هذا يُرَدّ عليهم في هذه الشبهة، وليس لهم - في الواقع - مستند إلا أفكارهم ومذهبهم الذي جعلوه أصلاً في هذا.

أما قوله جل وعلا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ نقول: جعل حب الإيمان في قلوبكم لا بيّنه، ولهذا تجد أن هذا يحب الإيمان ويصبح مؤمناً ويدافع عن إيمانه بكل ما يستطيع، وهذا يكون مبغضاً للإيمان كارهاً له، معادياً له، محارباً له، وكل واحد من هذين موجود فيه، وهذا معنى الضلال والهدى.

ثم تفصيل آخر: الهدى ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: هدى التوفيق، وهو تحبيب الخير إليه وجعله في قلبه، وتكريه ضده، وهذا لا يملكه إلا رب العالمين، وهو فضل من الله.

. . . .

القسم الثاني: هدى البيان والإرشاد، وهذا بالنسبة إلى الداعي الذي يدعو إلى الخير، إلى الرسل ومن اتبعهم، فيضاف إليهم، كقوله جل وعلا في خطابه لنبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وهذا لا يتعارض مع قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، فهو لا يخلق الهدى في القلوب؛ لأن هداية القلوب لا يستطيع إيجادها إلا رب العالمين.

أما كونه يعاقب على فعل المعاصي والكفر؛ فلأن المعصية وقعت بالإرادة والاختيار، وهذا أمرٌ يشاهد، فتجد مثلاً العاصي إذا نهيته وقلت له: لا تفعل هذا قال: ما لك ولي! أنت وكيل علي! وإذا قلت له: هذا يترتب عليه العذاب. يمكن أن يكون سبباً لدخولك النار. فيقول: وإن كان، فلا يبالي، فهو يفعل ذلك باختياره مع علمه بهذا.

ومما يدل على بطلان قولهم: أن فرقة من هؤلاء انقسموا عليهم وجاؤوا بضد قولهم تماماً، فقالوا: الإنسان كالآلة التي تُدار، ليس له قدرة ولا اختيار، فهو كالريشة في مهب الريح، وهو مجبور مقهور ليس له أي عمل، بل العمل لله.

ومن الأمور الواضحة جداً أن أحد المذهبين باطل ولا شك؛ لأنه لا يمكن أن يكون المتضادان صحيحين، وإن كان هؤلاء معهم شيء من الحق، وهؤلاء معهم شيء من الحق، ولكن الباطل أكثر.

فهؤلاء الذين قالوا: إن الإنسان لا قدرة له ولا اختيار، وإنما هو مجبور مقهور؛ ردّوا على أولئك واحتجوا بنصوص، كما احتج أولئك بنصوص، فقالوا: إن الله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فجعل الرمي له.

....

وكذلك احتجوا بالحديث الذي في «الصحيحين»: يقول: **«إن موسى ﷺ سأل ربه قال: رب أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة. فأراه الله جل وعلا إياه، فقال له موسى: أأنت آدم أبو البشر؟ قال: نعم. قال: لماذا خيبتنا ونفسك وأخرجتنا من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي كتب الله جل وعلا لك التوراة بيده وفضلك بكلامه دون البشر؟ قال: نعم. قال: كم وجدت بين خلقي وبين قول الله جل وعلا: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟**

قال: قال ذلك قبل أن تخلق بأربعين سنة، وجدت ذلك في التوراة، قال: تلومني على أمر قُدر علي قبل أن أُخلق!» يقول: **«فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»**[1].

فقالوا: هذا دليل على أن الإنسان يحتج بالقدر، وأنه ليس له اختيار، ولهذا غلبه آدم لما احتج بالقدر، فإذاً الإنسان مجبور مقهور.

نقول: كلا الأمرين باطل؛ أما الفريق الأول فعرفنا كيف بطلان مذهبهم.

وأما الجبرية؛ فيقال لهم: ما تعلقتم به لا يدل على مرادكم، فهذا خلاف الواقع، فلو أن أحداً عاملكم بمذهبكم ما قبلتم أصلاً، ومعاملتهم بمذهبهم بأن تقابل أحدهم مثلاً وتصكه في وجهه، وتقول: ليس هذا فعلي! ما ضربتك! ماذا يقول لك؟ يشتد غضبه، ويقول: كيف تضربني وتقول: هذا ليس فعلي؟ فنقول: هذا مقتضى مذهبك أن تقول: الإنسان لا قدرة له، ولا اختيار له، فهو مجبور كالآلة التي تدار، فهذا لا يمكن أن يقوم عليه أي مذهب.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٢٤).

. . . .

أما الذي احتجوا به من النصوص؛ فنقول: الآية ليست كما تقولون، ففيها المنفي غير المثبت، وذلك أن الله جل وعلا أمر رسوله أن يأخذ حصباء من التراب ويرميها نحو الكافرين، وبينه وبين الكافرين مسافة حينما صفوا للقتال، فأخذ بكفه حصباء فرماها نحوهم، فدخلت في أعينهم ومناخرهم، فحركة اليد وأخذ التراب هذا فعل الرسول ﷺ، ولكن إيصال هذا المرمي به إلى مناخر المشركين وأعينهم، هذا ما يستطيعه هو، وإنما هو من الله جل وعلا فهو فعله، فالمنفي غير المثبت، فهو أثبت له الرمي، ولهذا قال: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فأثبت له رمي، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾، يعني إيصال التراب إلى أعين المشركين.

وكذلك الحديث؛ فهو احتجاج على المصيبة، والاحتجاج بالقدر على المصيبة لا بأس به، فمثلاً إذا وقع الإنسان له أمر من الأمور؛ فإنه يجوز له أن يقول: هذا قدر الله ويتسلى بذلك، كما لو مات قريبه، أو احترق له مال، أو ما أشبه ذلك مما لا يمكن استدراكه، فيقول: هذا قدر الله، ويؤمن بذلك.

بخلاف ما إذا أقدم على شيء لا يجوز، كترك الصلاة وشرب الخمر ويقول: هذا قدر الله! فلا يجوز مثل هذا، ونقول: هذا فعلك أنت باختيارك، ولا يجوز أن تقول: إن هذا قدر الله. وإن كان هذا مقدراً، ولكن الطريقة في هذا أنك تتوب وتستغفر، وإلا يكون فعلك هذا جريمة أخرى ربما يكون أعظم من الفعل؛ لأنك تجعل اللوم على القدر، وتبرئ نفسك.

فالمقصود أن الذنوب والعيوب لها مخرج وهو التوبة، بخلاف المصائب فلا مخرج فيها، فيحتج عليها بالقدر، وهذا الذي وقع لآدم؛ لأنه لا يمكن أن يقول قائل: إن موسى عليه السلام لام آدم على الذنب؛ لأن آدم تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ثم ذكر الخلاف في أهل الكبائر ومسألة الأسماء والأحكام وقال: قولنا: إنهم مؤمنون على الإطلاق، وأمرهم إلى الله تعالى، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم.

وقال: «أصل الإيمان موهبة يتولد منها أفعال العباد، فيكون أصله التصديق والإقرار والأعمال»، وذكر الخلاف في زيادة الإيمان ونقصانه، وقال: «قولنا: إنه يزيد وينقص».

قال: «ثم كان الاختلاف في القرآن: مخلوقاً أو غير مخلوق، فقولنا وقول أئمتنا: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وإنه صفة منه بدأ قولاً، وإليه يعود حكماً». ثم ذكر الخلاف في الرؤية وقال: «قولنا قول أئمتنا فيما نعتقد أن الله يُرى في يوم القيامة»، وذكر الحجة.

ثم قال: «واعلم ـ رحمك الله ـ أني ذكرت أحكام الاختلاف على ما ورد من ترتيب المحدِّثين في كل الأزمنة. وقد بدأتُ أن أذكر أحكام الجمل من العقود، فنقول ونعتقد أن الله ﷻ له عرش، وهو على عرشه فوق سبع سماواته بكمال أسمائه وصفاته، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، و﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ

ولا يجوز أن يذكر للتائب ذنبه، فموسى لام آدم على الخروج من الجنة وليس على الذنب، ولو كان على الذنب لقال له آدم: أنت قتلت نفساً، فاحتج عليه بذلك، ولكن آدم يعلم أنه تاب، وأن التوبة تمحو الذنب، فلا يجوز ذكره، فصار لوم موسى عليه السلام للمصيبة.

فالمقصود أنه لا حجة لهؤلاء ولا لهؤلاء بشيء لا من كتاب الله ولا سنة رسوله؛ لأن كتاب الله وسنة رسوله، لا يدلان على الباطل.

قال: «**على ما ورد من ترتيب المحدثين في كل الأزمنة**» يعني ترتيب وجودهم وموتهم، فيبدأ بالأول ثم الذي بعده، وهكذا.

﴿ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، ولا نقول: إنه في الأرض كما هو في السماء على عرشه؛ لأنه عالم بما يجري على عباده».

إلى أن قال: «ونعتقد أن الله خلق الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان للبقاء لا للفناء».

إلى أن قال: «ونعتقد أن النبي ﷺ عُرج بنفسه إلى سدرة المنتهى».

قوله: «**ونعتقد أن النبي ﷺ عُرج بنفسه إلى سدرة المنتهى**» من المفترض أن يقال: عرج بنفسه وبدنه إلى سدرة المنتهى، وليس بالنفس فقط التي هي الروح، والظاهر أنه يقصد بقوله: «**بنفسه**» أي ذاته، فلا اعتراض عليه؛ لأن النفس يقصد بها الروح.

وقوله في هذا: «**ونعتقد أن الله خلق الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان للبقاء لا للفناء**» هذا هو قول أهل السنة، وهو الذي اشتهر، أما القول بالفناء؛ فهو قول أهل البدع، وكذلك فناء النار فقط هو قول أهل البدع، وأما نسبة هذا القول لشيخ الإسلام ابن تيمية أنه يقول بفناء النار؛ فهو غير صحيح، والذي ينسبه له لن يجده مكتوباً، بل الموجود في كتبه ومؤلفاته نقيض هذا؛ للرد على هذا القول[١]، وإنما اغتر من اغتر بما ذكره تلميذه ابن القيم حينما ذكر هذه المسألة في كتبه مثل «حادي الأرواح»[٢]، و«الصواعق»[٣]، و«شفاء العليل»[٤]؛ أنه قال: «أما فناء النار، فللناس فيها قولان، سمعت شيخ الإسلام يحكيهما»[٥]، فربما اغترَّ القائل بذلك، مع أن الكتاب الذي صدر

---

(١) انظر: «الفتاوى» (١٨/ ٣٠٧).
(٢) (ص٣٥٢ ـ ٣٨٨).
(٣) «مختصر الصواعق» (٢/ ٦٦٣).
(٤) (ص٤٩٣).
(٥) انظر: «حادي الأرواح» لابن القيم ص٣٥٢، ولشيخ الإسلام رسالة في «الرد على من قال بفناء الجنة والنار»، قال فيها ص٥٢: «وأما القول بفناء النار: ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين ومن بعدهم».

. . . .

وحققه الشيخ الألباني في الرد على ابن تيمية في فناء النار للصنعاني، والصنعاني نفسه يقول: «لم أر هذا له»، ولكنه شهر عنه، وإنما شهره عنه أعداؤه الذين يريدون أن يشوهوا سمعته، ويذكرون الشيء الذي ينفر الناس عنه، هذا مرادهم، وإلا كيف ترد على شيء لم تعرف أنه قاله. ثم حقق الشيخ الألباني هذا وانتشر، وصار شبه المقبول عند الناس أو عند كثير من الناس، وهو ليس كذلك.

حتى ابن القيم لا يستطيع أحدٌ أن يُثبت أنه يقول بالفناء، مع استدلاله ومبالغته في ذلك؛ لأنه في كتابه «الوابل الصيب»[١] لما جاء إلى ذكر طبقات النار قال: «الطبقة العليا هي التي يكون فيها الموحدون وهي التي قيل: إنها تفنى» يعني لا يبقى فيها أحد، هذا معنى تفنى، إذا لم يبق فيها أحد لا فائدة فيها، أما الطبقات التي يكون فيها الكفار فلا فناء لها.

فعلى كل حال؛ لو قُدِّر أن هناك آثاراً رويت عن عمر في قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣]، الأحقاب يُفهم منها العدد، إذاً تنتهي الأحقاب[٢].

فيقال: الأثر عن عمر ضعيف[٣]. ثم لو قُدِّر أنه ثابت؛ فالدلالة على ذلك دلالة مفهوم، ودلالة المفاهيم من أضعف الأدلة، فكيف يترك النص ويصار إليه؟

وأما قوله جل وعلا: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وكذلك في سورة الأنعام ﴿خَٰلِدِينَ

---

(١) (ص٤٢).

(٢) عن الحسن البصري قال: قال عمر: «لو لبث أهل النار كقدر رمل عالج؛ لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه».

(٣) انظر: «رفع الأستار» للصنعاني (ص٦٥)، «السلسلة الضعيفة» للألباني (٢/ ٧٣).

إلى أن قال: ونعتقد أن الله قبض قبضتين فقال: «هؤلاء إلى الجنة، وهؤلاء إلى النار»[١].

ونعتقد أن للرسول ﷺ حوضاً، ونعتقد أنه أول شافع وأول مشفع، وذكر الصراط، والميزان، والموت، وأن المقتول قتل بأجله، واستوفى رزقه.

فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فيقول: هذا استثناء.

نقول: أين معنى الاستثناء؟

ثم هذا الاستثناء يرجع إليه كل شيء حتى أهل الجنة، والمراد في هذا ـ والله أعلم ـ أن النار لم تكتسب الدوام لا هي ولا من فيها إلا بمشيئة الله، فكل شيء عائد إلى مشيئة الله، فليس في هذا نص على أنها تفنى.

فالمقصود أن هذا القول قول أهل البدع، فهم الذين قالوا: إن النار تفنى، وأضافوا إلى ذلك الجنة أيضاً، مع أن هذا لم يقله أحد من أهل السنة أن الجنة تفنى، بل إنها باقية أبد الآبدين، وكذلك النار.

قال: «**ونعتقد أن الله قبض قبضتين فقال: «هؤلاء إلى الجنة وهؤلاء إلى النار»**» هذا تقدير سابق على الوجود، وهذا يدلنا على علم الله، فهو قدّرهم موجودين، فقسمهم هذا التقسيم: قسم منهم إلى النار، وقسم إلى الجنة، وقد علم أسماءهم وذواتهم وعددهم ووقتهم، فلا يزيدون ولا ينقصون، لا هؤلاء ولا هؤلاء.

قال: «**ونعتقد أنه أول شافع وأول مشفع**» الذي اختصه به هو الشفاعة الكبرى، وهي الشفاعة في الموقف، وإلا فبقية الشفاعات ـ وهي كثيرة ـ يشترك معه غيره من الملائكة ومن الرسل، وكذلك الأطفال والمؤمنين يشفع

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٦٠)، من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي رضي الله عنه.

إلى أن قال: ومما نعتقد أن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر، فيبسط يده فيقول: «**ألا هل من سائل**»[(١)] الحديث وليلة النصف[(٢)]، وعشية عرفة[(٣)]، وذكر الحديث في ذلك.

ونعتقد أن الله كلم موسى تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلاً، وأن الخُلَّة غير الفقر، لا كما قال أهل البدع.

ونعتقد أن الله تعالى خص محمداً ﷺ بالرؤية، واتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً.

ونعتقد أن الله تعالى اختص بمفاتح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

بعضهم لبعض كما جاءت النصوص في هذا.

مقصوده بـ«**الرؤية**» هنا: رؤية البصر، فالرسول رأى ربه ليلة المعراج، وهذا قول مرجوح، والصحيح خلافه، فالرسول ﷺ لم يرَ ربه، وقد جاء في الآثار عن الصحابة وغيرهم ما يدل على هذا، فروي عن ابن عباس روايتين: مطلقة ومقيدة:

فالمطلقة: أنه رأى ربه.

والمقيدة: أن رآه بفؤاده[(٤)].

والقاعدة عند العلماء: أنه إذا جاء نصان أحدهما مطلق والآخر مقيد؛ فإن المطلق يحمل على المقيد، وابن عباس قيَّد الرؤية بالفؤاد، وفي رواية

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه أحمد (٦٦٤٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٣٧)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.
(٤) أما الرواية المطلقة، فأخرجها أحمد (٢٥٨٠)، والترمذي (٣٢٧٩، ٣٢٨٠)، والنسائي (١١٥٣٧). وأما الرواية المقيدة، فأخرجها مسلم (١٧٦، ٢٨٥، ٢٨٦).

....

أخرى: رآه.

وكذلك روي عن أحمد رواية مطلقة وأخرى مقيدة، ومن أصول الإمام أحمد أنه يقول بقول الصحابة، فهو قال ذلك؛ لأن ابن عباس قاله.

وقد أنكرته عائشة أشد الإنكار[(١)] وكذلك غيرها، والصحيح أن الرسول ﷺ لم يرَ ربه، وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر يقول: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه». وفي رواية: «رأيت نوراً»[(٢)] وفي رواية: «رأيت ناراً». فهو لم يره، وإنما رأى نوراً.

وقد أخبرنا ربنا جل وعلا أن الرؤية بهذه الحياة لا يستطيعها أحد، ولما سأل موسى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فجعل له العلامة: إن ثبت الجبل لرؤية الله؛ فهو يمكن أن يراه، فلما كشف رب العالمين جل وعلا للجبل شيئاً من حجابه تدكدك، وخرَّ موسى صعقاً.

ولهذا يقول العلماء في عقائدهم: رؤية الله جل وعلا في الدنيا جائزة عقلاً غير واقعة فعلاً؛ لأنها لا تمكن، فجائزة عقلاً لأن موسى عليه السلام سألها، والأنبياء لا يسألون شيئاً مستحيلاً في العقل.

وفي «صحيح مسلم» يقول ﷺ في حديث الدجال: **«وتعلَّموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت»**[(٣)]، وإن كان هذا موجهاً للأمة، والرسول ﷺ كذلك، فهو بشر من الناس.

والآية التي قد تخرج عن هذا لابد أن تشتهر وتُعرف، والأثر الذي جاء عن كعب الأحبار لا يعتمد عليه؛ لأن كعب الأحبار يقول: إن الله جل

---

(١) كما أخرجه البخاري (٨٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).
(٢) أخرجه مسلم (١٧٨).
(٣) أخرجه مسلم (١٦٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ونعتقد المسح على الخفين ثلاثاً للمسافر، ويوماً وليلة للمقيم.

ونعتقد الصبر على السلطان من قريش ما كان من جور أو عدل، ما أقام الصلاة من الجُمَع والأعياد، والجهاد معهم ماضٍ إلى يوم القيامة، والصلاة في الجماعة حيث يُنادى لها واجبٌ إذا لم يكن عذرٌ مانعٌ، والتراويح سنة، ....

وعلا قسم الرؤية والكلام بين محمد وموسى[١].

المقصود أن الصحيح أنه لم يَرَهُ بعين بصره، وإنما رآه بفؤاده، يعني رؤيةً يقينيةً أو علماً يقينياً.

قال: «**ونعتقد المسح على الخفين**» ذكر هذا مع كونه من الفروع وليس من الأصول؛ لأن فيه مخالفة لأهل البدع، فإذا خالف أهل البدع في شيء فإنهم يذكرونه في العقائد؛ حتى يعلمه أهل السنة ولا يوافقون هؤلاء.

يقول: «**من قريش**» لأن الحديث جاء: «**الأئمة من قريش**»[٢]، ولكن حتى وإن لم يكن من قريش؛ فيجب الصبر على ظلمه وألا يُخرَج عليه، وأن يطاع في طاعة الله جل وعلا وطاعة رسوله، ويجب أن يتحاشى الإنسان أشدَّ ما يكون أن يكون سبباً في سفك الدماء، أو تفرق الناس، أو الفساد أو ما أشبه ذلك؛ لأن الخروج يترتب عليه شرور عظيمة ليست سهلة؛ ولهذا الرسول ﷺ حذر من ذلك أشد التحذير، وأخبر مع ذلك أنه سيأتي أمراء يؤخرون الصلاة[٣]، وأنهم يميتون السنة؛ مع ذلك نهى عن

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٧٨).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٢٣٠٧، ١٢٩٠٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٩٠٩)، من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه قريباً من هذا اللفظ البخاري (٧١٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ومسلم (١٨٢٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (٦٤٨)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

ونشهد أن مَنْ ترك الصلاة عمداً فهو كافر، والشهادة والبراءة بدعة، والصلاة على من مات من أهل القبلة سنة، ولا ننزل أحداً جنة ولا ناراً، حتى يكون الله ينزلهم، والمراء والجدال في الدين بدعة.

ونعتقد أن ما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ أمرهم إلى الله، ونترحم على عائشة ونترضى عليها.

الخروج عليهم[1].

قوله: «**ونشهد أن من ترك الصلاة عمداً فهو كافر**» هذه الأمور مختلف فيها، فتارك الصلاة فيه خلاف، مع أنه جاء في الحديث: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»[2]، ومع ذلك اختلف العلماء هل يكون تارك الصلاة كافراً أو غير كافر؟ ولكنه مجرم متعرض لعقاب الله جل وعلا. فالمقصود أن هذا مذهبه الذي يعتقده هو، وليس معنى ذلك أن هذا مذهب الجميع.

قوله: «**والصلاة على من مات من أهل القبلة**» يعني: من أهل القبلة إذا مات في بلد المسلمين تصلي عليه ولا تسأل عن حاله إذا كان الظاهر أنه مسلم؛ فيكفي.

قوله: «**ونعتقد أن ما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ أمرهم إلى الله**» فلا نتكلم فيه ولا نذكره، وقد صرح العلماء في هذا، فقالوا: ولا يجوز روايته، ولا يُكتب ولا يُذكر؛ لأنه لا فائدة من ذلك؛ لأنه قد يكون في النفوس والصدور غِلاً على بعضهم، وهذا لا فائدة فيه، لأنه أمر قد انتهى، وقد علمنا أنهم أفضل الأمة، فلا نخوض في ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٩٣٧)، والترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، من حديث بريدة رضي الله عنه.

. . . .

قوله: «**والقول في اللفظ والملفوظ**»، يعني أن قول الإنسان: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق؛ فهذا بدعة؛ وهذا لا يجوز للإنسان أن يحدثه، لأنه أمر مجمل يدخل فيه حق وباطل، ولابد من التفصيل، ولهذا روي عن الإمام أحمد أنه قال: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع»[1]؛ وذلك أن كلمة «لفظ» قد يراد بها المصدر، وهو حركة اللسان وحركة الشفتين، وهذا مخلوق بلا شك، وقد يُراد بها المحرَّك به المتلفظ به وهو كلام الله، وكلام الله لا يجوز أن يكون مخلوقاً، فلا بد من التفصيل في ذلك، فإذا كان فيه التباس فاتركه واجتنبه حتى لا تقع في المحذور، ولكن تعتقد أن القارئ إذا قرأ أن حركة لسانه وشفتيه شيء مخلوق، ولكنِ المتحرَكُ به المتلو هو كلام الله، فلا يجوز أن يتوجه إليه بأنه مخلوق، فهو غير بمخلوق. فاللفظ هو مصدر فعل الإنسان، والملفوظ هو المتلو.

ومن ذلك «**الاسم والمسمى**» هل المسمى هو الاسم أم غيره؟ فلما كان فيه لبس واشتباه، والصحابة لم يتكلموا في هذا ولا في هذا؛ صار من البدع، ولكن إذا وقع لا بد من التفصيل والبيان، والناس في هذا على ثلاثة مذاهب:

الأول: منهم من يقول: الاسم هو المسمى ونفسه وعينه، وروي هذا عن جماعة من أهل السنة.

الثاني: منهم من يقول: هو غيره.

الثالث: التفصيل، وهو أن الاسم يدل على المسمى وليس هو المسمى، أو أن الاسم للمسمى، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ

(١) انظر: «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٥/ ٣٤٧).

والقول في اللفظ والملفوظ، وكذلك في الاسم والمسمى بدعة، والقول في أن الإيمان مخلوق أو غير مخلوق بدعة.

واعلم أني ذكرت اعتقاد أهل السنة على ظاهر ما ورد عن الصحابة والتابعين مجملاً من غير استقصاء، إذ قد تقدم القول عن مشايخنا المعروفين من أهل الإمامة والديانة، إلا أنني أحببت أن أذكر عقود أصحابنا المتصوفة فيما أحدثه طائفة انتسبوا إليهم مما قد تخرَّصوا من القول مما نزه الله المذهب وأهله من ذلك.

إلى أن قال: وقرأت لمحمد بن جرير الطبري في كتاب سماه «التبصير» كتب بذلك إلى أهل طبرستان في اختلاف عندهم، وسألوه أن يصنف لهم ما يعتقده ويذهب إليه، فذكر في كتابه اختلاف القائلين برؤية الله تعالى؛ فذكر عن طائفة إثبات الرؤية في الدنيا والآخرة، ونسب هذه المقالة إلى الصوفية قاطبة، ....

ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فلا يجوز أن نقول: هي المسمى، ولا أن نقول: غير المسمى، نقول: الاسم للمسمى، وهذا هو الحق.

وكذلك «**القول في أن الإيمان مخلوق أو غير مخلوق بدعة**»؛ لأن الإيمان فيه قول: «لا إله إلا الله»، وفيه تلاوة القرآن، وفيه ذكر الله، وهذا لا يجوز أن يكون مخلوقاً، أما فعل الإنسان فمخلوق، وهكذا يقال في كل ما يجب أن يُفَصَّل فيه، لا يطلق عليه لا هذا ولا هذا.

قوله: «**عقود أصحابنا المتصوفة**» يعني مذهب المتصوفة، والعقود هي العقائد.

قوله: «**وقرأت لمحمد بن جرير الطبري في كتاب سماه التبصير**» كتاب الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ معروف ومطبوع، وهو كتاب جيد وعقيدة تامة، وأهل طبرستان هم أهل البلد الذي نُسب إليه الطبري.

لم يخص طائفة دون طائفة، فتبين أن ذلك على جهالة منه بأقوال المحصلين منهم، وكان ممن نُسب إليه ذلك القول ـ بعد أن ادُّعِي على الطائفة ـ ابن أخت عبد الواحد بن زيد، والله أعلم بمحله عند المحصلين فكيف بابن أخته؟

وليس إذا أحدث الزائغ في نحلته قولاً نسب إلى الجملة، كذلك في الفقهاء والمحدثين ليس من أحدث قولاً في الفقه، أو لبَّس فيها حديثاً ينسب ذلك إلى جملة الفقهاء والمحدثين.

واعلم أن ألفاظ الصوفية وعلومهم تختلف، فيطلقون ألفاظهم

قوله: «**لم يخص طائفة دون طائفة**» هذا الاعتراض عليه وجهه ضعيف؛ لأنه يجوز أن يُنسب إلى الطائفة الشيء الذي قاله بعضهم، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وليس كل اليهود قالوا هذا، وإنما بعضهم أو واحد منهم.

وكذلك قول: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، فنُسب هذا إلى اليهود جملة، والذي قال منهم معروفون، ولكن إذا كان القائل الذي لم يقل، ويبلغه هذا ولم ينكره فهو منهم، وإذا أنكره خرج من ذلك.

ولكن لا يجوز التشنيع على أنه أضاف هذا؛ لأنه معلوم إذا نُسب قول لا يعم كل الناس، وإنما يعم القائلين.

قوله: «**وكان ممن نسب إليه ذلك القول ابن أخت عبد الواحد بن زيد**» يعني أنه يقول: الله أعلم به عند الصوفية الذين هم أهل استقامة، وأهل اتباع الكتاب والسنة؛ لأن الصوفية ما يجوز أن يُذَمّوا بالعموم، ولكن وقع منهم ما وقع.

قوله: «**واعلم أن ألفاظ الصوفية وعلومهم تختلف، فيطلقون ألفاظهم على موضوعات لهم**» فمثلاً يقول أحدهم: رأيت الله، أو رأت عيني الله، وهو

على موضوعات لهم، ومرموزات وإشارات تجري فيما بينهم، فمن لم يداخلهم على التحقيق، ونازل ما هم عليه، رجع عنهم خاسئاً وهو حسير.

ثم ذكر إطلاقهم لفظ الرؤية بالتقييد، فقال: كثيراً ما يقولون: رأيت الله. وذكر عن جعفر بن محمد قوله لما سئل: هل رأيت الله حين عبدته؟ قال: رأيت الله ثم عبدته. فقال السائل: كيف رأيته؟ فقال: لم تره العيون بتحديد العيان، ولكن رأته القلوب بتحقيق الإيقان.

ثم قال: يرى في الآخرة كما أخبر في كتابه وذكره رسوله ﷺ، فهذا قولنا وقول أئمتنا دون الجهال من أهل الغباوة فينا.

وإن مما نعتقد أن الله حرَّم على المؤمنين دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وذكر ذلك في حجة الوداع، فمن زعم أنه يبلغ مع الله درجة يبيح الحق له ما حظر على المؤمنين إلا المضطر على حال يلزمه إحياء النفس وإن بلغ العبد ما بلغ من العلم والعبادة، فذلك كفر بالله، والقائل بذلك قائل بالإلحاد، وهم المنسلخون من الديانة.

لا يبصره، فالذي ما يعرف مقصوده يظن أنه رآه بعينه، وهو ما قصد ذلك، ومراده: أنه تيقن أن الله ربه، فرآه بقلبه أو بيقينه.

والناس ليس لهم إلا الظاهر، فإذا قال مثل هذا نقول: لا يجوز أن تقول كذا، بل يعبر بما عبر به الشرع، أما أننا نحمل هذا القول على رموزهم واصطلاحاتهم؛ فهذه الرموز والاصطلاحات هل هي شرعية؟! والواجب أن تكون مع المسلمين لا تخرج عنهم برموز وأمور لا يفهمها إلا أنتم، وأصل هذا من البدع.

قوله: «**فمن زعم أنه يبلغ مع الله درجة يبيح الحق له ما حظر على المؤمنين**» يعني من الصوفية من قال: هناك حدٌّ يصل إليه العبد، وإذا وصل

وإن مما نعتقده ترك إطلاق العشق على الله، وبَيَّن أن ذلك لا يجوز لاشتقاقه، ولعدم ورود الشرع به، وقال: أدنى ما فيه أنه بدعة وضلالة، وفيما نص الله من ذكر المحبة كفاية.

وإن مما نعتقده: أن الله لا يَحُلُّ في المرئيات، وأنه المنفرد بكمال أسمائه وصفاته، بائن من خلقه، مستوٍ على عرشه، وأن القرآن كلامه غير مخلوق، حيث ما تلي وحفظ ودرس.

ونعتقد أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، واتخذ نبينا محمداً ﷺ خليلاً وحبيباً، والخلة لهما منه، ....

إليه رُفعت عنه التكاليف، وقد يستدلون بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، يفسرون اليقين بأنه العلم، وهذا ضلال وإلحاد في كلام الله جل وعلا.

والمقصود باليقين: هو الموت، فما من أحد يخرج عن العبادة ما دامت روحه مستقرة في بدنه، فيجب أن يكون عابداً حتى يذهب العقل، فلا يستطيع أن يميز شيئاً، وهنا يُرفع عنه القلم.

قوله: «**ترك إطلاق العشق على الله**»، وذلك أن العشق: محبة فيها شهوة، وهذا نقص ولا يجوز أن يطلق على الله، مع أننا لا يجوز أن نطلق على الله جل وعلا وصفاً أو اسماً إلا ما وصف به نفسه أو سمى به نفسه أو رسوله ﷺ.

وهذا معنى قول أهل السنة: إن أسماء الله توقيفية، يعني نقف معها على النص، إذا جاء النص بها وإلا لا نستحدث شيئاً، وهذا لم يأتِ به نص؛ ولهذا الذي لا يفهم اللغة العربية قد يطلق هذا كثيراً، كالأعاجم الذين يسمون بعضهم أولادهم «عاشق الرحمن» فهذا منكر، والواجب تغيير هذه الأسماء.

وقوله: «**ونعتقد أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً**» الخُلَّة أعلى درجات الحب، وليس بعدها درجة، ولهذا اختص الله جل وعلا الخليلين بها:

على خلاف ما قاله المعتزلة: أن الخلة الفقر والحاجة.

إبراهيم ومحمد، فهما خليلا الرحمن، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لو كنتُ مُتّخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنَّ صاحبكم خليل الله**»[١].

والخُلة لا تقبل المشاركة، ومعناها أن الحب تخلل القلب كلَّه، فلم يَبْقَ فيه موضع لغير خليله، فلا يتسع لغيره، وليس كما يتصور بعض الجهلة فيقول: إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله، والحبيب أعلى من الخليل، فالرسول ﷺ يحب المؤمنين، ويحب بعض أصحابه أكثر من بعض، ففي حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه لما أرسله في سرية أمره عليهم تأخر عنه حتى صلى مع النبي ﷺ فسأله قال: أي الناس أحب إليك؟ والرسول ﷺ ما يخشى أحداً، ولا يبالي بأحد منهم، فقال: «**عائشة**» فقال: من الرجال؟ قال: «**أبوها**»، يقول: ثم قلت: من؟ قال: «**عمر**»، يقول: ثم سكت لئلا أكون أنا آخر من يذكر[٢].

فالمقصود أنه يخبر أنه يحب عائشة ويحب أباها، ويحب المؤمنين عموماً، ويحب أصحابه، مع أنه خليل الله، وليس له خلة لأحد مع أصحابه.

أما قول بعضهم مثل قول أبي ذر: قال لي خليلي، أو أوصاني خليلي، حدثني خليلي؛ فهذا بحسب اعتقاده هو، وإلا فالرسول ﷺ قد تبرأ أن يكون أحداً من الأمة خليلاً له؛ لأن الله اتخذه خليلاً، فالمقصود هنا أن الخلة هي أعلى مراتب الحب.

قوله: «**على خلاف ما قاله المعتزلة: أن الخلة الفقر والحاجة**» يعني هذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٨٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤)، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

إلى أن قال: والخلة والمحبة صفتان لله هو موصوف بهما، ولا تدخل أوصافه تحت التكييف والتشبيه، وصفات الخلق من المحبة والخلة جائز عليهم الكيف، وأما صفات الله تعالى فمعلومة في العلم، وموجودة في التعريف، قد انتفى عنهما التشبيه، فالإيمان واجب وحسم الكيفية عن ذلك ساقط.

ومما نعتقده: أن الله أباح المكاسب والتجارات والصناعات، وإنما حرم الله الغش والظلم، وأن من قال بتحريم المكاسب، فهو ضال مضل مبتدع، إذ ليس الفساد والظلم والغش من التجارات والصناعات في شيء، وإنما حرم الله ورسوله الفساد لا الكسب والتجارة، فإن ذلك على أصل الكتاب والسنة جائز إلى يوم القيامة.

وإن مما نعتقده: أن الله لا يأمر بأكل الحلال، ثم يعدمهم الوصول إليه من جميع الجهات؛ لأن ما طالبهم به موجود إلى يوم القيامة، والمعتقِد أن الأرض تخلو من الحلال، والناس يتقلبون في الحرام فهو مبتدع ضال، إلا أنه يقل في موضع ويكثر في موضع؛ لا أنه مفقود من الأرض.

بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة لله فهي الكمال، فخلته لعبده من باب الكمال ومن باب الفضل والإفضال، ولا تدل على افتقار ونقص، بل تدل على الكمال والتفضل والفضل.

أما خلة العبد فنعم، فهي حاجته.

قوله: **«والمعتقد أن الأرض تخلو من الحلال»** هذا اصطلاح بعض الصوفية وغيرهم، فيقولون: الحلال لا وجود له، انعدم وظهر الحرام، وقد يمتنعون من الأكل إلا من الأشجار وما أشبه ذلك، وهذا خروج عن الشرع، فالله جل وعلا جعل الحلال كثيراً، ولكن كلفنا أن نطلب الحلال، وأن نجتنب الحرام.

ومما نعتقده: أنَّا إذا رأينا من ظاهره جميل لا نتهمه في مكسبه وماله وطعامه، جائز أن يؤكل طعامه، والمعاملة في تجارته، فليس علينا الكشف عن ماله، فإن سأل سائل على سبيل الاحتياط جاز، إلا من داخل الظلمة.

ومن لا يزغ عن الظلم، وأخذ الأموال بالباطل ومعه غير ذلك؛ فالسؤال والتوقي؛ كما سأل الصدّيق غلامه، فإن كان معه من المال سوى ذلك مما هو خارج عن تلك الأموال فاختلطا، فلا يطلق عليه اسم الحلال ولا الحرام، إلا أنه مشتبه، فمن سأل استبرأ لدينه كما فعل الصديق.

قوله: «**فليس علينا الكشف عن ماله**» يعني عند الأكل إذا قدم لك طعاماً أو أعطاك من أعطاك وتعاملت معه، فلا تقل: من أين جئت بهذا؟ تأكله ولا تسأل؛ لأن الظاهر يكفي، وإذا كان هناك شيء لا تعلمه ما يضرك، فالرسول ﷺ دعاه يهودي إلى طعام فأجابه[1]، ومعروف أن اليهود يأكلون أموال الناس بالباطل، وأنهم يتعاملون بالربا، فلم يسأل عن ذلك.

إلا إذا الإنسان اشتهر بأنه يتعامل بالربا أو ما أشبه ذلك من المحرمات؛ فمثل هذا اجتنابه من باب الورع والاحتياط، وإذا تعامل معه إنسان بالبيع والشراء، فلا يقال: إنه تعامل مع محرم أو فعل محرماً؛ لأنه يجوز لك أن تبيع وتشتري مع اليهود والنصارى، ولا مانع من ذلك، ما لم يكن الشيء بعينه تعلم أنه حرام.

قوله: «**كما سأل الصدّيق غلامه**» الصديق رضي الله عنه كان له مملوك يعمل ويشتغل، فإذا جاء بشيء يسأله أحياناً؛ لأنه قد يكون جاهلاً، فيسأله: من أين جئت بهذا؟ وفي مرة من المرات جاء له بشيء وكان محتاجاً إليه أشد

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٢٠١)، من حديث أنس رضي الله عنه.

....

الحاجة، فلم يسأله، فسأله الغلام قال: ألا سألتني من أين جئت به؟ قال: ويحك من أين جئت به؟ فقال: كنت قامرت أناساً وكاهنتهم في الجاهلية وأنا لا أحسن، فأعطوني ذلك، قال: كدتَ أن تقتلني، فأدخل يده في فمه وتقيأ الذي أكله(١).

فمثل هذا لا يقال: إنه عام في كل شيء، وإنما إذا كان الإنسان له شيء يخصه نحو هذا، فيحب أن يحتاط فيه، وألا يدخل على نفسه في مأكله إلا ما هو حلال؛ لأن أكل الحرام له أثر في رد العبادة كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾» [المؤمنون: ٥١]، وقال جل وعلا - يعني بالنسبة للمؤمنين -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، وملبسه حرام، ومطعمه حرام، وغذي بالحرام، يمد يديه إلى السماء يقول: يا رب! يا رب! فأنى يستجاب لذلك؟**(٢) يعني لا يستجاب له وهو بهذه الصفات!

فالمقصود أن الأكل له أثر بالغ في قبول العبادة أو ردها، ولهذا لما قال سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مجاب الدعوة. قال: «**يا سعد أطب مطعمك تجب دعوتك**»(٣)، وهذا عام ليس في سعد فقط، فكل من لا يأكل إلا حلالاً فدعوته تستجاب، وهذا أمر معروف مجرب.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣١)، والبيهقي في «الشعب» (٥٣٧٦)، من حديث زيد بن أرقم ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٤٩).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٩٥)، من حديث عبدالله بن العباس ﷺ.

وأجاز ابن مسعود[1] وسلمان[2]، قالا: «كُلْ منه، وعليه التبعة» والناس طبقات، والدينُ: الحنيفيةُ السمحة.

وإن مما نعتقده: أن العبد ما دام أحكام الدار جاريةً عليه، فلا يسقط عنه الخوف والرجاء، فكل من ادعى الأمن فهو جاهل بالله، وبما أخبر به عن نفسه ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وقد أفردت كشف عَوَار من قال بذلك.

ونعتقد: أن العبودية لا تسقط عن العبد ما عقل وعلم ما له وما عليه مميز على أحكام القوة والاستطاعة، إذ لم يسقط ذلك عن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ومن زعم أنه قد خرج من رق العبودية إلى فضاء الحرية بإسقاط العبودية والخروج إلى أحكام الأحدية المبدئية بعلائق الآخرية، فهو كافر لا محالة، إلا من اعتراه

فالمقصود أن الحلال بيّن والحرام بيّن، أما الأمور المشتبهة، فهذه اجتنابها من باب الورع، وإذا اجتنبها الإنسان نقول: هذا ورع، وتُقى، ولو وقع فيها، لا نقول: إنه وقع في الحرام؛ لأن قوله: «بيّن» لا يدخل فيها، وكذلك إذا كانت الأمور مستورة مخفية، فلا يلزمه أن يبحث عنها ويكشف عنها.

قول ابن مسعود وسلمان: **«كُلْ مِنْهُ، وعليه التَّبِعة»** هذا هو الصحيح، فإذا دعاك داعٍ من المسلمين أو من غير المسلمين إلى طعام؛ فيجوز أن تأكل منه إذا لَم تعلم أنه بعينه حرام، والتَّبعة عليه ولا يسأل.

قوله: **«والخروج إلى أحكام الأحدية المبدئية بعلائق الآخرية»** هذه من الألفاظ التي يقولها الصوفية، «الأحدية» أي أنه توحد هذا الطريق أو أنه

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٤٦٧٥).
(٢) «مصنف عبد الرزاق» (١٤٦٧٧).

علة، أو رأفة فصار معتوهاً، أو مجنوناً، أو مبرسماً وقد اختلط في عقله، أو لحقه غشية، ارتفع عنه أحكام العقل، وذهب عنه التمييز والمعرفة، فذلك خارج عن الملة مفارق للشريعة.

ومن زعم الإشراف على الخلق حتى يعلم مقاماتهم ومقدارهم عند الله بغير الوحي المنزل من قول الرسول ﷺ فهو خارج عن الملة، ومن ادعى أنه يعرف ما قال رسول الله ﷺ فقد باء بغضب من الله، ومن ادعى أنه يعرف مآل الخلق ومنقلبهم، وأنهم على ماذا يموتون ويختم لهم، بغير الوحي من قول الله وقول رسول ﷺ فقد باء بغضب من الله.

اتصل بالواحد الأحد أو ما أشبه ذلك من الأمور التي قد تكون حقاً وقد تكون باطلاً.

قوله: «مبرسماً» وهو الذي فسد عقله، فصار لا يميز بين الخير والشر.

قوله: «**ومن ادعى أنه يعرف مآل الخلق ومنقلبهم، وأنهم على ماذا يموتون ويختم لهم..**» كل هذه الأمور تقع من بعض الصوفية، وبعض الذين يدَّعون أنهم إذا شاهدوا الإنسان عرفوا ماذا يموت عليه، وماذا يكون له في الآخرة، وهذا قولٌ على الله جل وعلا، وحدوسٌ وتخميناتٌ لا يجوز أن يصار إليها أو يلتفت إليها، وليست هذه من باب الكشوف؛ لأن هناك شيئاً يسمى «الكشف» ويكون كرامة، و«الكشف» أن يكشف له عن الأمور الغائبة فيراها، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة قول الرسول ﷺ: «**إنه كان فيمن كان قبلكم مُحَدَّثون، وإن يكن في أمتي فمنهم عمر**»[1]، وعمر كان يظن الشيء فيقع على ظنه، ولكن لا يجزم ولا يحكم بهذا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٩)، من حديث أبي هريرة، ومسلم (٢٣٩٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والفراسة حق على أصول ذكرناها، وليس ذلك مما سميناه في شيء.

والكشف: أن يكشف له عن أمور مستقبلة، مثل ما جاء في قصة أبي بكر[١] عند وفاته كانت زوجته حاملاً وقال: إنه سيولد لكم بنت، فيكون كذا وكذا من الميراث الذي يتقاسمونه، مع أنه ما ترك شيئاً إلا ما كان من الأموال التي أُعْطِيَها من غنائم خيبر وغيرها.

فالمقصود أن كشف الأمور الغائبة قد يكون لبعض الأولياء شيء من ذلك، ومن يدعي فيقول: أنا يكشف لي. فهذا علامة الكذب، وهذا يقع لكثير من الصوفية. وكذلك يقولون: أعرف ما كان يقوله الرسول، أو أعرف مآل الخلق في الآخرة، فكل هذا باطل.

قوله: «**والفراسة حق على أصول**» كما جاء في الحديث: «**اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر في نور الله**»[٢]، وهي شيء يُلقى في نفسه يرى الشيء، فيقول: إنه سيكون كذا، أو أنه يتصور أن يكون كذا، فيقع كما تصور، وكما وقع في ذهنه، فهو أمر من الله جل وعلا، ولا يكون مجزوماً به، ويقول: إن هذا سيكون بالقوة.

ومن الأمور التي ينبغي أن يُنَبَّه عليها، ما يقوله كثير من الناس: تنبأ فلان، التنبؤ لا يجوز، فالتنبؤ ادعاء النبوة، وادعاء النبوة كفر؛ لأن التنبؤ من الإنباء وهو الإخبار بالغيب، وهذا لا يكون إلا بالوحي، ولكن يقول: ظن فلان أن يكون كذا.

والفراسة تنقسم إلى قسمين:

الأول: فراسة خلقية، فتُرى من أخلاق الناس وعاداتهم، فهذه أيضاً

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢١٨٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٢٧)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

ومن زعم أن صفاته قائمة بصفاته ـ ويشير في ذلك إلى غير الأيد والعصمة والتوفيق والهداية ـ وأشار إلى صفاته ﷻ القديمة، فهو حلولي قائل باللاهوتية والالتحام، وذلك كفر لا محالة.

ونعتقد أن الأرواح كلها مخلوقة، ومن قال: إنها غير مخلوقة فقد ضاهى قول النصارى النسطورية في المسيح، وذلك كفر بالله العظيم.

ومن قال: إن شيئاً من صفات الله ﷻ حالٌّ في العبد، وقال بالتبعيض على الله فقد كفر، والقرآن كلام الله ليس بمخلوق ولا حالٍّ في مخلوق، وأنه كيف ما تُلي وقُرئ وحُفظ فهو صفة الله ﷻ، وليس الدرس من المدروس، ولا التلاوة من المتلو، لأنه ﷻ بجميع أسمائه وصفاته غير مخلوق، ....

تصدق وتكذب.

الثاني: فراسة المؤمن الذي قال فيها النبي ﷺ: «**نور يُقذف في قلب الإنسان**»، فيخبر بالشيء فيقع كما أخبر.

قوله: «**ومن زعم أن صفاته قائمة..**» يعني صفات الإنسان نفسه، «**ويشير إلى ذلك غير الأيد والعصمة والتوفيق**» الأيد هنا ليس جمع «يد»، الأيد هنا جمع تأييد، والمعنى أنه يؤيد ويسدد. والمقصود أنه يقول: إن صفات المتكلم تقوم بصفات الله، يعني أنه لا يفعل شيئاً إلا على ما قاله الله؛ لأنه قائم بأمر الله، فلا يمكن أن يفعل منكراً، فيأخذون هذا من قوله ﷺ: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**»[1]، ويعتقدون ظاهر ذلك على هذا، وهذا ضلال، قاله بعض الصوفية.

قوله: «**والقرآن كلام الله ليس بمخلوق ولا حالٍّ في مخلوق**» يعني ليس حالًّا في المخلوق، وهذا قد يحتاج إلى شيء من الوقوف عنده؛ لأننا نقول:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن قال بغير ذلك فهو كافر.

الورق مخلوق، وكتاب الله مكتوب فيه، فهل نقول: إن القرآن حال في المصحف؟ وكذلك الحافظ الذي حفظ القرآن هل نقول: القرآن حلَّ في قلبه؟

لا يجوز أن نقول هذا؛ لأن كون الكتابة في الكتاب غير كون الماء في الإناء، فرق بين هذا وهذا، الكتابة تُبَيّن بالحروف والكلام، والورق شيء مخلوق، وكونه كُتب فيه ليس معناه أنه حلَّ فيه، ولهذا يقول جل وعلا في الرسول ﷺ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، لا يعني أن ذاته عندهم في التوراة والإنجيل، ولكن ذِكْرُه وصفته مكتوبة فيه، ففرقٌ بين هذا وهذا.

قوله: «**من قال بغير ذلك فهو كافر**»، هذا مرَّ كثيراً، وليس معنى ذلك أنه يكفّر الناس بأعيانهم، فلو قال قائل بعينه هذا ما يُكَفَّر، ولكن هو كافر بالعموم، وهذا شيء تعارف عليه العلماء كثيراً، وجاءت النصوص به.

وبعض الجهلة يأخذ هذا ويطلقه على أناس معينين بأعيانهم، يقول: فلان كافر لأنه فعل كذا وكذا، وهذا نفس فعل الخوارج الذين أخذوا الكفر المطلق العام ووضعوه على أناس معينين بأعيانهم، فلما حَكَمَ الحكمان بين المتنازعين من أهل الشام والعراق قالوا لعلي بن أبي طالب وهم كانوا من أصحابه: كفرت لأنك حكّمت الرجال، والله يقول: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ما رجعوا إلى أهل العلم ولا إلى الفهم وما المراد بهذا، ولهذا لما ذهب إليهم ابن عباس وحاجهم لما قالوا: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فقال: أيهما أعظم: الحكم في الدماء أم الحكم في أرنب؟ الله جل وعلا أمر أن يُحَكَّم في أرنب رجلان إذا المحرم قتله، فهل هذا تحكيم للرجال ونبذ لكتاب الله؟! فهم جهلة، هكذا بعض الناس يصنع.

فقول المؤلف هنا: «**فهو كافر**»، أطلق هذا حتى يُنَفّر منه، أما إذا وقع

ونعتقد أن القراءة الملحنة بدعة وضلالة.

وأن القصائد بدعة، ....

من شخص بعينه؛ فلا بد من إقامة الحجة وإزالة الشُّبَه وتعليمه، فإن تبيّن له الحق ووضح، ثم أصر على المخالفة؛ فهناك يُحْكم عليه، وبدون ذلك لا يجوز.

وقوله: «**ونعتقد أن القراءة الملحنة بدعة**» والقراءة الملحنة هي التي تخرج عن الوضع العربي واللسان العربي؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب، والعرب ما يعرفون التلحينات والتمطيطات التي يُقصد بها الغناء، وهذا يوجد الآن من كثير من الناس، يصبح مقصوده أن يغني بالقرآن، حتى صار كثير من الناس يستمع إلى الصوت فقط، فينظر إذا كان الصوت جميلاً وحسناً ذهب يستمع إليه وإلا لا يلتفت إلى القراءة، وليس مقصوده المعاني.

وقول الرسول ﷺ: «**مَنْ لم يتغنَّ بالقرآن فليس منا**»[1] مقصوده تحسين الصوت فيه، وليس التمطيط وأن يكون على وزن معين كأوزان الشعر، فلا يجوز مثل هذا، وهو المقصود بالتلحين.

قوله: «**وأن القصائد بدعة**» القصائد هي التي يسميها الآن بعض الناس «أناشيد إسلامية» أو نحو هذا، فكل من قصد التطريب والتلحين والميل إلى الأصوات والتلذذ بها؛ فهو داخل في ذلك، والتلذذ يجب أن يكون بكلام الله، وليس بالإطراب، بل يكون بالقراءة السهلة السمحة التي لا تخرج عن لغة العرب.

ولهذا يقول بعض العلماء لما ذُكِر له التجويد: هذا علم جاءت به الأعاجم، لم يأتِ به العرب، يعني أنه مستحدث، وليس معنى ذلك أنه لا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومجراها على قسمين: فالحسن من ذلك مِن ذكرِ آلاء الله ونعمائه، وإظهار نعت الصالحين وصفة المتقين، فذلك جائز، وتركه والاشتغال بذكر الله والقرآن والعلم أولى به.

وما جرى على وصف المرئيات، ونعت المخلوقات، فاستماع ذلك على الله كفر واستماع الغناء والرباعيات على الله كفر. والرقص بالإيقاع ونعت الرقاصين على أحكام الدين فسق، وعلى أحكام التواجد والنغام لهو ولعب.

ينطق بالحروف من مخارجها، ويفصح بالكلام، ولكن لا يُخرج الكلام عن وضعه.

قوله: «**ومجراها على قسمين: فالحسن من ذلك من ذكر آلاء الله ونعمائه وإظهار نعت الصالحين وصفة المتقين فذلك جائز**» يعني أن الشعر مثل الكلام، حسنُه حسن وقبيحُه قبيح، ما يخرج عن ذلك، والشِّعر قد يكون فيه جهاد، وقد يكون فيه دفاع عن الحق، ويكون فيه بيان للحق وإبطال الباطل، ولهذا كان الرسول ﷺ يقول لحسان: «**اهجهم وروح القدس معك**»[1].

ويقول: «**إن وقعه في نفوسهم أشد من وقع النبل**»[2] يعني الشعر الذي يقوله، وهذا بالدفاع عن النبي ﷺ وعن الحق، ودحضِ الباطل؛ لأن الباطل يجاهد باللسان، وهذا منه، وقد استثنى الله جل وعلا من الشعراء الذين آمنوا من أن يقولوا ما لا يفعلون.

قوله: «**وتركه والاشتغال بذكر الله والقرآن والعلم أولى به**» يعني ترك هذه القصائد التي فيها الترقيق والعدول إلى ذكر الله وتلاوة القرآن أفضل؛ لأن أفضل الكلام كلام الله جل وعلا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٣)، ومسلم (٢٤٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وحرام على كل من سمع القصائد والرباعيات الملحنة الجاري بين أهل الأطباع على أحكام الذكر، إلا لمن تقدم له العلم بأحكام التوحيد، ومعرفة أسمائه وصفاته، وما يضاف إلى الله تعالى من ذلك مما لا يليق به ﷻ، مما هو منزه عنه، فيكون استماعه كما قال: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ الآية [الزمر: ١٨].

وكل من جهل ذلك، وقصد استماعه على الله على غير تفصيله فهو كفر لا محالة، فكل من جمع القول وأصغى بالإضافة إلى الله فغير جائز إلا لمن عرف ما وصفت من ذكر الله ونعمائه، وما هو موصوف به ﷻ ما ليس للمخلوق فيه نعت ولا وصف، بل ترك ذلك أولى وأحوط، والأصل في ذلك أنها بدعة، والفتنة بها غير مأمونة. إلى أن قال: واتخاذ المجالس على الاستماع والغناء والرقص بالرباعيات بدعة، وذلك مما أنكره المطلبي ومالك، والثوري، ويزيد بن هارون وأحمد بن حنبل، وإسحاق، والاقتداء بهم أولى من الاقتداء بمن لا يعرفون في الدين، ولا لهم قدم عند المخلصين.

وبلغني أنه قيل لبشر بن الحارث: إن أصحابك قد أحدثوا شيئاً

قوله: **«فاستماع ذلك على الله كفر»** يعني نسب ذلك إلى الله أن يقول: إن الله قال كذا: ويذكر الشعر، فينسبون إلى الله أشعاراً تعالى الله وتقدس. و**«الرباعيات»** نوع من الشعر. **«والرقص بالإيقاع..»** يعني أن بعض الصوفية يرقصون ويصفقون ويتناخرون فيما بينهم، ويجعلون هذا ديناً نسأل الله العافية.

قوله: **«فكل من جمع القول وأصغى بالإضافة إلى الله»** المقصود نسبته إلى الله تعالى وتقدس، وأن هذا يوجد كثيراً، كمن يقول: إني رأيت ربي في المنام، فقال لي كذا، فيذكر شعراً. وهذا أسهل من كونهم يضعون هذه القصائد ويضيفونها إلى الله، ويقولون: إنها قوله.

يقال له القصائد. قال: مثل إيش؟ قال: مثل قوله:

اصبري يا نفس حتى تسكني دار الجليل

فقال: حسن، وأين يكون هؤلاء الذين يستمعون ذلك؟ قال: قلت: ببغداد. فقال: كذبوا والذي لا إله غيره، لا يسكن ببغداد من يسمع ذلك.

قال أبو عبد الله: ومما نقول ـ وهو قول أئمتنا ـ أن الفقير إذا احتاج وصبر لم يتكلف إلى وقت يفتح الله له كان أعلى، فمن عجز عن الصبر كان السؤال أولى به على قوله ﷺ: «**لأن يأخذ أحدكم حَبْلَه**..» الحديث[1].

قوله ﷺ: «**لأن يأخذ أحدكم حَبْلَه**» يعني فيحتطب، وتمامه: «**فيأتي بحزم من حطب يبيعه؛ خيرٌ له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه**» يعني الاكتساب خير من السؤال، وهذا مما لا شك فيه، والأصل في سؤال الناس أنه محرم، كما جاءت الأحاديث بذلك، وإنما استثني ثلاث حالات فقط لغاية:

الأولى: رجل تحمّل حَمَالةً لإصلاح ذات البيْن، كأن يكون هناك قتال وشجار، فيتحمل مالاً ليصلح بينهم، يقول: أعطيك كذا وأعطيك كذا، فمثل هذا يجوز أن يسأل الناس حتى لا يُحْجم عن الإصلاح، وإن كان غنياً يعطى، يقول: إني تحملت كذا وأعينوني، فيأخذ من الناس.

الثاني: رجل أصيب بجائحة اجتاحت ماله، فهذا تحلّ له المسألة حتى يجد سِداداً من عيش أو قِواماً من عيش، ثم يَكُفُّ.

الثالث: رجل أصيب بفاقة، وهذا يحتاج لثلاثة شهود من قومه يشهدون أنه أصيب بفاقة، فيسأل حتى يجد سِداداً من العيش.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ونقول: إن ترك المكاسب غير جائز إلا بشرائط مرسومة من التعفف والاستغناء عما في أيدي الناس. ومن جعل السؤال حرفة وهو صحيح، فهو مذموم في الحقيقة خارج.

ونقول: إن المستمع إلى الغناء والملاهي، فإن ذلك كما قال ﷺ: «**الغناء ينبت النفاق في القلب**»(١)، وإن لم يكفر، فهو فسق لا محالة.

وما عدا ذلك فالمسألة سحتٌ يتكثر بها الإنسان وهي خدوش وخموش في وجه الإنسان يأتي الإنسان وليس على وجهه شيء من اللحم، وهذا قاله ﷺ لبعض الصحابة لما جاء يسأل(٢).

قوله: «**إلا بشرائط مرسومة من التعفف والاستغناء عما في أيدي الناس**» لأنه قد يقوده ذلك إلى أخذ الحرام، فينبغي أن يتكسب ويطلب الرزق حتى لا يحتاج إلى الناس، فهذا أمر واجب.

قوله: «**فهو مذموم في الحقيقة خارج**» لأنه داخل في الذم الذي ذُكر في الحديث، والأصل أنه محرم، وذلك أن هذا من صيانة قلب الإنسان؛ لأن السائل إذا أُعطي يجد للمعطي وقعاً في قلبه، والقلب يجب أن يكون لله وحده، وهذا من رحمة الله جل وعلا بالمسلم، فسؤاله لله فقط حتى يكون افتقاره إلى الله جل وعلا وحده.

قوله: «**المستمع إلى الغناء**» الغناء لا يجتمع مع القرآن، فإذا كان الإنسان محباً للأغاني، فتجده يكره سماع القرآن؛ لأن الغناء هو صوت الشيطان الذي يُجْلِب به على الناس ليصدهم عن عبادة الله وعن ذكره، فهو يُجْلِب عليهم بصوته وخيله ورَجِله، ويشاركهم في الأموال والأولاد كما قال الله جل وعلا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٢٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

والذي نختار: قول أئمتنا: ترك المراء في الدين، والكلام في الإيمان مخلوق أو غير مخلوق، ومن زعم أن الرسول ﷺ واسط يؤدي، وأن المرسل إليهم أفضل فهو كافر بالله، ومن قال بإسقاط الوسائط على الجملة فقد كفر.

أما مشاركته في الأموال فهي ظاهرة، فجاء في الحديث الصحيح: أن الإنسان إذا قُدّم له الطعام فأكل ولم يُسَمِّ شاركه الشيطان في أكله، وإذا دخل بيته ولم يُسَمِّ شاركه في المنزل في البيت، فيقول لأصحابه أدركتم المبيت، وإذا قدم الطعام فأكل بدون تسمية يقول لمن معه: أدركتم المبيت والعشاء. فيأكلون معه[1].

وأما مشاركته في الأولاد؛ فيكون في اتصاله بالزوجة، فإنه يشاركهم في الأموال والأولاد، نسأل الله العافية، ولهذا يقول ﷺ: «**لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدر بينهم ولد؛ لا يضره الشيطان**»[2].

فالواجب أن يتحصن الإنسان من الشيطان بذكر الله، وهو يَفِرّ ويهرب من ذكر الله، وتسلطت الشياطين الآن على كثير من الناس؛ لأنهم ألفوا الغناء وألفوا الصور، وهذه التي يألفها الشيطان ويحبها، ولهذا تجد بيته الحمام الخبيث محل الخبث؛ لأنه خبيث، وإذا خلا القلب من ذكر الله والتحصن به لابسه الشيطان.



(١) أخرجه مسلم (٢٠١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٧١)، ومسلم (١٤٣٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن متأخريهم: الإمام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي، قال في كتاب «الغُنية»[١]: «أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهو أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد. إلى أن قال: وهو بجهة العلو، مستو على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: ٥].

ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان؛ بل يقال: إنه في السماء على العرش، كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝٥﴾ [طه: ٥]».

وذكر آيات وأحاديث، إلى أن قال: «وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، ....

قوله: «**وهو بجهة العلو**» الجهة من الأمور المجملة التي لا يجوز إطلاقها لا نفياً ولا إثباتاً إلا بالتفصيل، وهنا قال: «**جهة العلو**»، فيه نوع من التقييد، ولكن مع ذلك كلمة «الجهة» لا تطلق على الله جل وعلا لفظاً، ولكن إذا قال: إن الله في جهة؛ فإنه يُستفسر منه: ماذا تريد بالجهة؟

إن كنت تريد أنه على عرشه؛ فنقول: نعم، ولكن يجب أن تعبر عن ذلك بالعبارات الشرعية، فتقول: إن الله مستوٍ على عرشه، إن الله في السماء، إن الله فوق، أما أن يُؤتى بشيء خلاف التعبير؛ فهذا خارج عن قول السلف: إن الله لا يوصف إلا بما وصف به نفسه.

وإن كنت تريد جهة تحيط به أو تحويه؛ فهو باطل لفظاً ومعنىً، وهكذا يقال في غيرها، مثل: الجسم وما أشبه ذلك.

---

(١) «الغنية» (١/ ٨٢).

وأنه استواء الذات على العرش». قال: «وكونه على العرش مذكورٌ في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف».

وذكر كلاماً طويلاً لا يحتمله هذا الموضع، وذكر في سائر الصفات نحو هذا، ولو ذكرت ما قال العلماء في ذلك لطال الكتاب جداً.

قوله: «**وأنه استواء الذات على العرش**»، الواجب أن يقول: واستواؤه على عرشه كما جاءت النصوص به؛ ولكن قوله: «**استواء الذات**» هذا فيه مبالغة لا يحتاج إليها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «**وذكر كلاماً طويلاً لا يحتمله هذا الموضع..**» هذا الكتاب الذي قال عنه الشيخ كتاب «الغنية» مطبوع وموجود عند الناس ومنتشر في مجلدين، واشتمل على العقيدة والفقه، وعبد القادر الجيلي اعتقدوا فيه اعتقادات فاسدة حتى أصبح قبره وثناً يُطاف عليه ويُعبد، وقد يوجد في أماكن متعددة، فهو من المعبودين الذين ابْتُلوا بالعبادة؛ لأنه ابتلي بمن يؤلف مؤلفات في كراماته، وانتشر عند الناس هذا، والناس يتعلقون بالأمور التي قد تكون وهمية لا حقيقة لها.



وقال أبو عمر بن عبد البر: «روينا عن مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والأوزاعي، ومعمر بن راشد في أحاديث الصفات أنهم كلّهم قالوا: أمِرُّوها كما جاءت».

قال أبو عمر: «ما جاء عن النبي ﷺ من نقل الثقات، أو جاء عن الصحابة ﷺ، فهو علم يُدَان به؛ وما حدث بعدهم ولم يكن له أصل فيما جاء عنهم، فهو بدعة وضلالة»(١).

وقال في «شرح الموطأ»(٢) لما تكلم على حديث النزول قال: هذا حديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث في صحته، وهو منقول من طرق سوى هذه، من أخبار العدول عن النبي ﷺ، وفيه دليل على أن الله في السماء على العرش من فوق سبع سماوات، كما قالت الجماعة، وهو من حجتهم على المعتزلة في قولهم: إن الله في كل مكان.

وقال: والدليل على صحة قول أهل الحق قول الله وذكر بعض الآيات إلى أن قال: وهذا أشهر وأعرف عند العامة والخاصة من أن يحتاج إلى أكثر من حكايته، لأنه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم.

قول ابن عبد البر: «**لأنه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم**» يعني أن إثبات العلو فطري اضطراري؛ لأن كل سائل يقول: «يا الله»؛ يجد في نفسه ما يدفعه إلى أنه يطلب ربه من العلو، ولهذا يرفع يديه إلى الله جل وعلا، فهو ليس بالتعلم، بل جاء بالنصوص من الكتب المنزلة، ودلَّ عليه العقل، ودلَّت عليه الفطر الموجودة في كل إنسان.

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٢/ ١١٨).

(٢) «التمهيد» (٧/ ١٢٨).

وقال أبو عمر بن عبد البر أيضاً: أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل، قالوا في تأويل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] هو على العرش وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك مَنْ يحتج بقوله.

وقال أبو عمر أيضاً: أهل السنة مُجْمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة؛ لا على المجاز، إلا أنهم لا يُكَيِّفون شيئاً من ذلك، ولا يَحُدُّون فيه صفة محصورة.

وأما أهل البدع: الجهمية، والمعتزلة كلها، والخوارج: فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويزعم أن من أقر بها مشبِّه، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون: بما نطق به كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ وهم أئمة الجماعة.

قوله: «**وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة..**» الجهمية إذا أطلقت يقصدون كلَّ مَنْ نفى صفات الله عنه، ويدخل في ذلك الأشاعرة وغيرهم.

يقول: «**ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة**» أي على المجاز، والقول الفصل فيه أنه ليس على اصطلاحهم، وإنما هو أسلوب عربي، والعرب تتكلم به وتقوله وهي لا تعرف المجاز الذي يقوله هؤلاء، فمثلاً قول الله جل وعلا: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، فالقرية ليس المقصود بها الحيطان والمباني، وإنما المقصود بها السكان، وإذا خلت من السكان لا يُطلق عليها قرية إلا بقيد، تقول: قرية خاوية على عروشها أو خالية أو ما أشبه ذلك، كما قال الله جل وعلا: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

. . . .

وكذلك العير لا تسمى عيراً بمجرد الإبل حتى يكون معها من يحمل عليها ويصرفها، فتكون اسماً للمجموع.

وكذلك الظعينة، فليست الظعينة الناقة التي عليها هودج، الظعينة الناقة عليها هودج وعليها امرأة، بدون ذلك لا تسمى ظعينة.

وكذلك الجدار كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]، فالجدار له إرادة تناسبه وكذلك غيره، فإذا مال؛ قلنا: إنه أراد أن يَنْقَضَّ، وليس من المجاز الذي يقولون: إنه لابد أن يكون كذا، وأنه مأخوذ من كذا.

ثم هذه الأمور التي يدّعونها تحتاج إلى وحي، فهم يقولون: الأصل الحقيقة ثم جاء المجاز، من يقول إن الأصل أنه كان يتكلم بهذا، ثم نقلوا هذا إلى هذا؟! هذا لا يمكن أن يُجزم به إلا من الوحي، والعرب لا يعرفون هذا.

فالمقصود أنها دعوى، ولهذا تدرجوا في ذلك إلى نفي صفات الله؛ لأنهم قالوا: المجاز قد يكون مجاز الحذف وقد يكون مجاز الاستعارة، ومجاز الحذف عندهم مثل قول الله جل وعلا: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يقولون: التقدير يعني وجاء أمر ربك، حذف هذا فبقي المضاف إليه، هذه كلها دعاوى أرادوا بها نفي صفات الله جل وعلا.

ثم المجاز إذا لم يصح نفيه لا يكون مجازاً عندهم باتفاق، والنفي يكون الكلام فيه كذباً، فهل يقال: إن كلام الله تعالى فيه كذب؟! تعالى الله وتقدس، يعني إذا قلت مثلاً: رأيت أسداً يقاتل، إن صح أن تقول: ليس أسداً بل هو رجل فليس بمجاز، فلابد أنه يصحّ النفي، وينبغي أن تراجع كتاب الإيمان[1] لشيخ الإسلام ابن تيمية، أو على الأقل الرسالة التي كتبها

(١) «الإيمان» لابن تيمية (ص ٧٣).

....

محمد الأمين المختار الشنقيطي صاحب «أضواء البيان» في رسالته «نفي المجاز في الآيات التي نزلت للإعجاز» فكانت الرسالة مختصرة، ولكن فيها أدلة وبيّن فيها الحق، وهي مطبوعة وموجودة حتى يستفيد الإنسان.

وإذا أردت أن التوسع فعليك بكتاب «الإيمان»، أو كتاب «الصواعق»[1] لابن القيم فإنه سمى هذا طاغوتاً، قال: «المجاز طاغوت من الطواغيت التي أُفسد بها كلام الله وكلام رسوله»، وذكر الأدلة على إبطاله وأن العرب ما يعرفون ذلك، ظهر في القرون المتأخرة بعد القرن الثالث. أما ما جاء في كلام الإمام أحمد، أو كلام أبي عبيد الذي يقول: مجاز الآية كذا، فليس مرادهم المجاز الذي اصطلح عليه هؤلاء، مرادهم الشيء الذي يجوز في هذا.



(١) «مختصر الصواعق» (٢/ ٦٩٠).

وفي عصره الحافظ أبو بكر البيهقي ـ مع توليه للمتكلمين من أصحاب أبي الحسن الأشعري وذبه عنهم ـ قال في كتاب «الأسماء والصفات»[(١)]: «باب ما جاء في إثبات اليدين صفتين، لا من حيث الجارحة لورود خبر الصادق به، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، وقال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقوله: «**وفي عصره**» يعني عصر ابن عبد البر «**الحافظ أبو بكر البيهقي مع توليه للمتكلمين من أصحاب أبي الحسن الأشعري**» يعني أن البيهقي رحمه الله يميل إلى الأشاعرة بل هو على مذهبهم، وكذلك شيخه الحليمي، ولكنه أحسن منه بكثير في مثل هذا، والإنسان إذا اشتغل بالأحاديث والتفسير؛ فإنه يتأثر بذلك ويترك كثيراً مما يقوله هؤلاء الذين لا يعتمدون على كتاب الله ولا على سنة رسوله، وإلا عنده أشياء كثيرة على مذهب هؤلاء.

وكتاب «**الصفات**» تولى التعليق عليه جهمي من جهمية المتأخرين المبالغ في جهميته وهو الكوثري، فأفسده وذكر أشياء في تعاليقه عجيبة، مما يدل على توغله في الابتعاد عن الحق، فالذي يطالع مثل هذا الكتاب يحذر هذه التعاليق، فإنها من أسوء ما قيل، وعنده من التهكم والازدراء لعلماء أهل السنة، ولاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه كان يتهكم به كثيراً، وأحياناً إذا جاء ذكره قال: «شيخ إسلامهم»، يعني إنه بريء ممن كان هذا شيخاً له حتى من الإسلام، نسأل الله العافية.

قوله: «**لا من حيث الجارحة**»، هذا كلام باطل، من يقول: له جارحة حتى يقول: لا من حيث الجارحة؟ فبادر إلى النفي الذي يكون قد يتوهمه هو ومن كان على مذهبه، وأهل السنة لا يقولون مثل هذا، فصفات الله

---

(١) (١١٨/٢).

وذكر الأحاديث الصحاح في هذا الباب، مثل قوله في غير حديث ـ في حديث الشفاعة ـ: «**يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه**»(١).

ومثل قوله في الحديث المتفق عليه: «**أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخطَّ لك الألواح بيده**»، وفي لفظ: «**وكتب لك التوراة بيده**»(٢).

ومثل ما في صحيح مسلم: «**وغرس كرامة أوليائه في جنة عدن بيده**»(٣).

ومثل قوله ﷺ: «**تكون الأرض يوم القيامة خُبْزَةً واحدة يتكفاها الجبار بيده، كما يتكفى أحدكم خُبْزَته في السفر، نُزُلاً لأهل الجنة**»(٤).

لا تسمى جوارح، ولا تسمى أعراضاً، ولا تسمى أبعاضاً، تعالى الله وتقدس عن ذلك.

قوله: «**خلقك الله بيده**» هذا لا ينافي ما ذكره الله جل وعلا أنه خلقه بيديه، كما قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، هذه تثنية وهنا إفراد؛ لأن المفرد المضاف يَعُم، فقد يكون مثنى، وقد يكون مجموعاً، فلا يشكل علينا مثل هذا إذا جاء مفرداً ومثنى.

قوله: «**وذكر الأحاديث الصحاح في هذا الباب**» فجاء أنه غرس جنة عدن بيده، وخلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وهذا على ظاهره، يعني أنه باشر ذلك حقيقةً.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٦)، ومسلم (١٩٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وذكر أحاديث مثل قوله: «بيدي الأمر»[(١)]، «والخير بيديك»[(٢)] «والذي نفس محمد بيده»[(٣)]، «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»[(٤)].

وقوله: «المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين»[(٥)].

وقوله: «يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[(٦)].

وقوله: «يمين الله ملأى، لا يَغِيضُها نفقة، سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى القبض يخفض ويرفع»[(٧)].

وكل هذه الأحاديث في الصحيح.

وذكر أيضاً قوله: «إن الله لما خلق آدم، قال له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت. قال: اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين

قوله: «يتكفاها» يعني يكفتها مرةً كذا ومرةً كذا، فالأرض كلها تكون خبزة يقدمها لعباده في ذلك اليوم، ولكنه يباشرها بيده تعالى وتقدس.

قوله ﷺ: «يمين الرحمن.. يمين الله.. وبيده الأخرى.. ويداه مقبوضتان» كل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (١١٨٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٧٥٩)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.
(٥) أخرجه مسلم (١٨٢٧)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٦) أخرجه مسلم (٢٧٨٨)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
(٧) أخرجه البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مباركة»[١]، وحديث: «إن الله لما خلق آدم مسح ظهره»[٢].

إلى أحاديث أخر ذكرها من هذا النوع.

ثم قال البيهقي: «أما المتقدمون من هذه الأمة، فإنهم لم يفسروا ما كتبنا من الآيات والأخبار في هذا الباب».

وكذلك قال في الاستواء على العرش، وسائر الصفات الخبرية مع أنه يحكي قول بعض المتأخرين.

هذا يجب أن يعتقد ذلك، ويوصف الله جل وعلا بأن له يدين.

ومن الأمور التي تُبيِّن أن هذا على ظاهره ما جاء أن اليدين لها أصابع، وأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابعه جل وعلا، فيجب أن نأخذ هذا على ظاهره، وتأويله ضلال وإخراج به عما خوطبنا به.

قوله: «**لم يفسروا**» يعني يُؤوّلوها، فالتفسير هنا يقصد به التأويل وصرفها عن ظاهرها عما دلت عليه إلى أمور معينة عند هؤلاء المؤوّلة الذين يزعمون أن العقل أوجب ذلك.

قال: «**مع أنه يحكي قول بعض المتأخرين**» يعني يحكي بعض أقوال الأشاعرة الذين ينتسب إليهم، هذا قصده بالمتأخرين.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٢٢٧٠)، من حديث ابن عباس ﷺ.

وقال القاضي أبو يعلى في كتاب «إبطال التأويل»: «لا يجوز رد هذه الأخبار ولا التشاغل بتأويلها، والواجب حملها على ظاهرها، وأنها صفات الله، لا تشبه بسائر الموصوفين بها من الخلق، ولا نعتقد التشبيه فيها، لكن على ما روي عن الإمام أحمد وسائر الأئمة».

وذكر بعض كلام الزهري، ومكحول، ومالك، والثوري، والأوزاعي، والليث، وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن عيينة، والفضيل بن عياض، ووَكِيع، وعبد الرحمن بن مهدي، وأسود بن سالم، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، ومحمد بن جرير الطبري، وغيرهم في هذا الباب. وفي حكاية ألفاظهم طول.

إلى أن قال: «ويدل على إبطال التأويل: أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها، ولم يتعرضوا لتأويلها، ولا صرفها عن ظاهرها، فلو كان التأويل سائغاً لكانوا إليه أسبق، لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة».

قوله: «**لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة**» يعني على زعم المتكلمين وإلا ليس فيها تشبيه وليس فيها باطل، بل هي على ظاهرها وهي حق، وهي التي يعلمها أهل الحق، ويعلمون أن الله جل وعلا لا يُشْبِهُه شيء في صفاته ولا فيما يستحق، فصفاته تخصه، وكذلك أسماؤه تخصه. أما الاشتراك باللفظ أو بالمعنى العام؛ فهذا لا يقتضي تشبيهاً؛ لأن هذا الاشتراك العام هو الذي يُفهم به الكلام.



وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتكلم، صاحب الطريقة المنسوبة إليه في الكلام، في كتابه الذي صنفه في «اختلاف المصلين»، و«مقالات الإسلاميين»[١] وذكر فرق الروافض، والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، وغيرهم.

ثم قال: «مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث جملة: قول أصحاب الحديث وأهل السنة: الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما جاء عن الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا يردون شيئاً من ذلك، وأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله على عرشه، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وأن له يدين بلا كيف كما قال تعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وكما قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأن له عينين بلا كيف كما قال تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وأن له وجهاً كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٧].

قوله: «**لا يردون شيئاً من ذلك**» أي على ظاهرها يجب أن يعتقد كما قال الله جل وعلا في خطابه، وهذا أمر ظاهر يفهمه العامي والمتعلم، فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وما أشبه ذلك.

قوله: «**وأن الجنة حق، والنار حق**»، أي أنها ثابتة قطعاً لا تردد في ذلك، والحق يقال للشيء الثابت الذي لا يتغير، وبضده الباطل الذي يزول ويذهب وينمحق كما قال الله جل وعلا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ

---

(١) (١/٢٢٦).

وأن أسماء الله تعالى لا يقال: إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج، وأقروا أن لله علماً، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]. وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١].

فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، قال: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٤٩]، فالباطل يذهب وإن كان له ظهور وصولة، ولكنه لا يستقر، ومعنى كون الجنة حقاً يعني كما أخبر الله جل وعلا أنها موجودة وثابتة، وأنها تبقى أبداً كما أخبر الله جل وعلا بذلك، وأنها مُعَدَّة للمتقين، وكذلك النار.

فالمخلوق يفنى والذي يفنيه الله، والجنة والنار ومن يسكنهما أخبر الله جل وعلا أنها لا تفنى ولا يفنى من فيهما، وهذا بقدرة الله وإرادته، وكل شيء يعود إلى قدرة الله وإرادته جل وعلا، فالمخلوقات التي تفنى هي التي يفنيها الله جل وعلا.

قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ هذا من أبلغ الأدلة على إثبات علم الله، فهذا يشمل كل شيء وإن دق، وقد كثرت الأدلة على إثبات علم الله جل وعلا، وهذا أمر واضح، ولا شك عند أهل الحق فيه، ولكن أهل الباطل هم الذين لم يؤمنوا به وردّوه، والسبب في ردّه: أن عندهم أصولاً استحدثوها وجعلوها هي الميزان لكتاب الله وسنة رسوله تعالى الله وتقدس عن قولهم وعن فعلهم، وقالوا: عرفنا الله بالحوادث! أي بالمخلوقات، وإذا شاهدنا الكون كله فإذا هو لا يخلو إما أن يكون عَرَضاً أو جوهراً، والجوهر هو الذي يقوم بنفسه ويشغل مكانه ويرى، والعَرَض هو الذي لا يقوم إلا بغيره، فلا تجده قائماً بنفسه مثل العلم والجهل والمرض والصحة والألوان، لا تجدها قائمة بنفسها بل لا بد من أن تقوم بجسم تقوم بها.

وأثبتوا السمع والبصر، ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفَتْهُ المعتزلة، وأثبتوا لله القوة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وذكر مذهبهم في القدر.

إلى أن قال: «ويقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق، والكلام في اللفظ والوقف، من قال باللفظ وبالوقف فهو مبتدع عندهم، لا يقال: اللفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال: غير مخلوق.

فإذاً الله ليس بعرض ولا جسم، والعلم عرض، وعرفنا أن العرض الذي يعرض ويزول، فإذا قلنا: إنه يحل به العلم معنى ذلك أنه جسم، وأنه يكون محدثاً؛ لأن الحادث إذا حل بمكان صار محدثاً، كل هذه أقيسة باطلة، وأمور قالوها مخترعين لها من عند أنفسهم، ولا يوافقون على ذلك أصلاً، هذا هو أصلهم الذي نفوا على أساسه علم الله جل وعلا، فإذاً يكون الأصل عندهم هو المخلوق، ثم قاسوا عليه ربَّ العالمين، تعالى الله وتقدس.

قوله: «**وأثبتوا القوة**» وهي صفة. والفرق بين الصفة والاسم: أن الصفة هي المعنى القائم بالذات، مثل: القوة، والعزة، والرحمة. والاسم ما دلَّ على الذات والمسمى، وهذا أوضح فرق، وهناك فروق، ولكن يكفي هذا.

قوله: «**والكلام في اللفظ والوقف**» هذه المسألة التي بُلي فيها البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ وامتحن، حتى كانت ذلك سبب موته، فابْتُلِي ببعض مشايخه الذين ربما فعلوا ذلك لعدم التفرقة بين الحق والباطل أو لحسد وغيره، ولهذا ألف كتابه «خلق أفعال العباد»، ولما جاء إلى هذه المسألة قال: إنهم يحتجون بقول أحمد، وهم لم يفهموا قول أحمد. وقصده: الذين أخرجوه من بلده وطردوه لهذا السبب.

وقول أحمد اشتهر أنه قال: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع ضال»، فبعض الناس الذين ما

ويُقِرّون أن الله يُرى بالأبصار يوم القيامة، كما يرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون، ولا يراه الكافرون؛ لأنهم عن الله محجوبون،

فهموا هذا، استبعدوا هذا حتى إن ابن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «اللفظ والملفوظ» يقول: «ما أظن الإمام أحمد قال هذا القول»[1]، مع أنه ثابت عن الإمام أحمد، والسبب أن له معنًى دقيقاً، وأحمد ـ كما سبق ـ يقول: اللفظ هنا قد يُراد به الملفوظ وقد يراد به الشيء الذي يتلفظ به وهو حركة اللسان والشفتين وهذا مخلوق، فلا بد من التمييز بين هذا وهذا، ولهذا قال هذا القول حتى يتبيَّن الأمر، فلا يقول: مخلوق ولا غير مخلوق، بل لا بد من التفصيل أو تسكت، مع أن هذا القول لسنا بحاجة إليه، ولكن إذا لزمت الأمور التي يقولها الناس، ثم توقف الإنسان بهذا قال: إنكم ما تعرفون شيئاً، فلا بد من البيان والإيضاح حتى يزول الإشكال واللبس الذي يلبس به أهل الباطل، وإن كانت بعض الأشياء مكروهة، لكن إذا اضْطُر الإنسان إليها فلا بد من البيان، إذا كان فيها إيضاح، وفيها ردٌّ للباطل وتمييز بين الحق وبين الباطل، فتكون من الأمور الواجبة التي يجب أن تقال حتى لا يلتبس الأمر على الناس، ويصبحوا في شك أو تردد.

ومن ذلك: «الاسم والمسمى»، فهو قريب من هذا، ولهذا لما ذكر ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ عقيدة مختصرة اسمها «صريح السنة» وطبعت عدة مرات؛ فلما أتى إلى هذه المسألة قال: «هذه من فضول الكلام، ومما جاء به المتأخرون وليس لهم سلف سبقهم إلى هذا، بل إنما نقول كما قال إمام السنة وإمام المسلمين الإمام أحمد»، فذكر قوله في هذا[2].

قوله: «**ولا يراه الكافرون: لأنهم عن الله محجوبون**» الكافرون أخبر الله جل وعلا بحجبهم، ولكن الرؤية تكون في مواقف القيامة وتكون في الجنة،

---

(١) انظر: «الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية» (٥٩).

(٢) «صريح السنة» (ص٣٧).

قال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥]».

وذكر قولهم في الإسلام والإيمان والحوض والشفاعة وأشياء،

ومواقف القيامة تختلف عن الجنة، فالذي في الجنة نعيم.

أما في الموقف فلا تكون نعيماً من كل وجه، بل يكون فيها شيء من الامتحان والابتلاء، وقد يكون فيها شيء من العذاب؛ لأنه يشترك في الرؤية المؤمنون والمنافقون.

ثم إنها في الموقف تتعدد، وليس في موضع واحد كما جاءت النصوص بذلك، ولهذا ثبت في حديث الشفاعة أنهم يقولون: «**يأتيهم في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة**»، هكذا لفظ «صحيح مسلم»، وهذا معناه أنهم رأوه قبل هذه المرة، وهو صريح واضح، وفيه أنه «**يبقى المؤمنون وفيهم المنافقون**»[1]؛ لأن المنافقين كانوا معهم في الدنيا يصلون ويصومون، ولكنهم في الباطن ليسوا معهم، فهم فارقوهم في الإيمان وفي الاعتقاد، ولهذا يميّز بينهم وبينهم في ذلك الموقف.

فالمؤمنون يسجدون وهؤلاء لا يستطيعون السجود، ثم تُلقى عليهم الظلمة، فيصبح الإنسان لا يرى إلا بنور إيمانه الذي يعطاه، وكلٌّ يعطى نوراً على قدر إيمانه، وكل واحد لا ينتفع بنور الذي بجواره، وإنما ينتفع بنوره فقط، وهؤلاء تُطفأ أنوارهم، بل ليس لهم أنوار، وهذا ذُكر في كتاب الله في مواضع متعددة وليس في موضع واحد، بل في آيات عدة.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني يوم القيامة، فإن هذا التنوين عوض عن شيء محذوف وهو يوم القيامة.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٩).

إلى أن قال: «ويقرون بأن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ولا يقولون مخلوق، ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار».

قوله: «**ويقرون بأن الإيمان قول وعمل**»، اكتفى بهذا لأن القول يكون للسان، ويكون بالقلب، والعمل كذلك يكون بالجوارح ويكون بالقلب.

قوله: «**ولا يقولون مخلوق**» يعني الإيمان؛ لأن فيه ذكر الله، وفيه تلاوة القرآن، وفيه قول لا إله إلا الله، فكلام الله لا يكون مخلوقاً، والأشياء التي يأتي فيها اشتباه لا يجوز أن نُطلق عليها أنها مخلوقة.

ولو قال لنا قائل: ما تقولون في الحروف المعجمة الثمانية والعشرين أو التسعة والعشرين، مخلوقة أم غير مخلوقة؟ نقول: لا يجوز أن نقول: مخلوقة لأن كلام الله بها، فلا يجوز أن تقول: مخلوقة، فكل أمر فيه اشتباه لا يجوز الإطلاق عليه هكذا، ولا بد من التفصيل.

قوله: «**ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر**»؛ لأنهم لا يكفرون أحداً بالذنب إلا أن يكون كافراً، ثم إذا مات قالوا: أمره إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه.

وأما أهل البدع؛ فحكموا عليه بذلك كما يفعله الخوارج وكذلك إخوانهم من المعتزلة فإنهم على هذا السبيل، ولكن المعتزلة أخرجوه من الإيمان ولم يدخلوه بالكفر، فقالوا: في منزلة بين المنزلتين، ولكن هذا شيء لا قيمة له إلا في الدنيا فقط لا يُحكم بأنه يقتل، أو أنه يسلب ماله؛ لأنهم قالوا: لا كافر ولا مسلم، فإنه بمنزلة بين المنزلتين بين الإيمان والكفر، مثل الشاة التي إذا كانت بين قطيعين من الضأن، ما تدري تذهب إلى هذا أو هذا، وهذا شيء ابتدعوه من عند أنفسهم، والعجيب أنهم جعلوا هذا ركناً من أركان الإسلام، فعندهم أركان الإسلام خمسة غير أركان الإسلام الذي جاء بها المصطفى ﷺ، فإذاً لهم دين غير دين المسلمين، وكل ذلك بناءً على عقلهم.

إلى أن قال: وينكرون الجدل والمراء في الدين والخصومة فيه والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل، ويتنازعون فيه من دينهم، ويسلمون للروايات الصحيحة، ولما جاءت بها الآثار التي جاءت بها الثقات عدلاً عن عدل حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله ﷺ، لا يقولون: كيف ولا لم؟ لأن ذلك بدعة».

إلى أن قال: «ويقرون أن الله يجيء يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝﴾ [الفجر: ٢٢]، وأن الله يَقْرُب من خلقه كيف يشاء».

فالمقصود أنهم يقولون: إن الذي ارتكب الكبائر خرج من الإسلام ولكنه لم يدخل في الكفر، غير أنه إذا مات صار في النار، فهم يوافقون إخوانهم الخوارج في الحكم النهائي، ويخالفونهم في اسمه أنه كافر أو مسلم.

قوله: «**يجيء يوم القيامة**» يعني يجيء إلى الأرض؛ لأن الناس على الأرض، فهو يجيء للفصل بين عباده والحكم بينهم، وكل واحد يكلمه الله في وقت وآنٍ واحد، وهذا من خصائص الله جل وعلا، فإنه على كل شيء قدير.

ومجيئه ـ جل وعلا ـ يوم القيامة وهو فوق سماواته فوق عرشه لا يكون شيئاً فوقه، والفوقية من صفات الذات، والفرق بين صفة الذات وصفة الفعل: أن الفعل يتعلق بالمشيئة، إذا شاء أن يفعله فعله، وإذا شاء أن لا يفعله لا يفعله.

أما صفة الذات؛ فهي ملازمة للذات دائماً لا تفارقه، مثل الحياة والعلم والسمع، فهو ـ جل وعلا ـ مجيئه ليس كالمجيء الذي نعرفه بل هو يخصه تعالى وتقدس، كما أن الفعل الذي يفعله ليس كالأفعال التي نفعلها، فهو ـ جل وعلا ـ يخاطب كل واحد من المؤمنين في آن واحد ولا يشغله خطاب هذا عن هذا، حتى إن بعض المؤمنين يخلو به ويقرره: فعلت كذا

. . . .

يوم كذا في مكان كذا فيُقِر، كما في «الصحيحين»: قلت لعبد الله بن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى، والنجوى الكلام بين اثنين فقط، قال: سمعته يقول: **«يُدني عبده المؤمن، ثم يضع عليه كَنَفه»** والكنف الستر، فيستره عن أعين الناس؛ لأنه إذا قرره بذنوبه: فعلت كذا وفعلت كذا اسود وجهه، ورأى أنه هلك، فيستره جل وعلا رحمةً به، حتى ما يروا ذلك، فإذا أقرَّ بذنوبه اعترف، وقال: نعم فعلت كذا وكذا، يقول جل وعلا له: **«أنا سترتها عليك في الدنيا، وأغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفته بيمينه فيخرج على الناس من شدة الفرح يمدها إليهم، ويقول:** ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٠]»[(١)]، والناس غير مهتمين بقراءة كتابه، ولكن الفرح استولى عليه، فقال هذا.

فإذا بُلي الإنسان بمعصية فإنه يجب أن يستر نفسه، فلا يظهرها ويقول: أنا فعلت كذا وكذا، بل يستر نفسه لعل الله يستر عليه يوم القيامة ويعفو عنه، بخلاف الذين يشهرون أنفسهم بعد أن ستر الله عليه في الليل ثم يذهب يخبر الناس: أنا فعلت وأنا فعلت، فهذا استهتار واستهانة بنظر الله ـ جل وعلا ـ، نسأل الله العافية.

فالمقصود أن هذا يقع للمؤمنين، فكل واحد يخلو به ويقرره، أما بقية الناس الذين هم كفار فلا يكلمهم ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم، فالناس إذاً في الموقف أنواع:

الأول: من يذهب إلى الجنة بلا حساب ولا عذاب، فهؤلاء معروفون، وهم قِلَّة كما أخبر الرسول ﷺ، ومنهم من هذه الأمة ومن غير هذه الأمة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]».

إلى أن قال: «ويرون مجانبة كل داع إلى بدعة، والتشاغل بقراءة القرآن، وكتابة الآثار، والنظر في الفقه، مع الاستكانة والتواضع، وحسن الخلق، مع بذل المعروف، وكف الأذى، وترك الغيبة والنميمة والسعاية، وتفقّد المآكل والمشارب».

قال: «فهذه جملة ما يأمرون به، ويستسلمون إليه، ويرونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله وهو المستعان».

الثاني: من يذهب إلى النار بلا حساب ولا كلام، وهم الكفار الذين لا يقيم الله ـ جل وعلا ـ لهم وزناً ولا يكلمهم.

الثالث: المخلّطون، وهم الذين يحاسبون، ولهم حسنات وسيئات، والله غفور رحيم جل وعلا، فإذا فضل للإنسان قدر ذرةٍ زائداً على سيئاته؛ ضاعف الله ذلك الجزء الصغير حتى يدخله به الجنة، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، فرحمة الله واسعة جداً، ولكن مع ذلك ينبغي للإنسان ألا يستهتر وألا يتهاون بنظر الله وبأوامر الله وبنهيه، فلعل الله يرحمه.

قوله: «**وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب**» هذا تصريح الإمام الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهل الذين ينتسبون إليه يقولون بهذه الأقوال ويذهبون إليها؟ لماذا ينتسبون إليه وهم يفارقون مذهبه؟ إنما ذهبوا إلى أقوال أناس متأخرين، ففارقوا هذا القول وأخذوا قول الجهمية والمعتزلة، وفي الحقيقة هم جهمية ومعتزلة، وقد يستطيع الإنسان أن يقول: إن مذهب هؤلاء

وقال الأشعري أيضاً في «اختلاف أهل القبلة في العرش»: «أهل السنة وأصحاب الحديث: ليس بجسم ولا يشبه الأشياء، وأنه استوى على العرش.

مخلوط من حق وباطل بلا شك.

قوله: «**ليس بجسم**» يعود إلى الله جل وعلا، ولا يجوز أن نقول: إنه جسم، ولا يجوز أن نقول: إنه ليس بجسم؛ لأن هذا أيضاً من الألفاظ المبتدعة التي جاء بها المتكلمون، وهذا من الأمور التي خفيت على الإمام الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فظن أن هذا هو قول أهل السنة، وليس هذا قول أهل السنة، فأهل السنة لا يقولون: لا جسم ولا غير جسم، بل يسكتون عن هذا ولا يتكلمون به.

وإذا تكلم به متكلم استفسروا منه، قالوا: ماذا تريد بقولك: «جسم»؟

إن كنت تريد أنه مركب من أشياء؛ فهذا باطل، وإن كنت تريد أنه جسم أنه يشغل مكاناً؛ فهذا باطل؛ فهو ـ جل وعلا ـ فوق العرش، وإن كنت تريد أنه ليس بجسم أنه لا يُشار إليه، وأنه ليس فوق؛ فهو باطل.

فلهم اصطلاحات كثيرة يختلفون في تعيين الجسم، فبعضهم يقول: الجسم هو المركب من الأشياء، وبعضهم يقول: إنه ما شغل المكان، وبعضهم يقول: ما صحت الإشارة إليه، وبعضهم يقول: ما صح أن يقال: إنه هنا أو هناك أو فوق أو تحت؛ فكل هذه أقوالهم، وإذا جاء الإنسان بشيء منها؛ فإننا نقول: إنه باطل، ويجب أن تقول: إن الله مستوٍ على عرشه، ولا تقول: إنه جسم ولا ليس بجسم.

والجسم في لغة العرب: البدن، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ولا نتقدم بين يدي الله ورسوله في القول؛ بل نقول: استوى بلا كيف، وأن له وجهاً كما قال تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٧]، وأن له يدين كما قال تعالى: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، وأن له عينين كما قال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

وأنه يجيء يوم القيامة هو وملائكته كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، ....

قوله: «وأن له عينين» العين جاءت في كتاب الله مفردة ومجموعة، والسبب أن في اللغة الفصحى أن المثنى إذا أضيف إلى ضمير الجمع جُمع، وإذا أضيف إلى ضمير المتكلم أفرد، قال الله جل وعلا: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: ٤]، وعائشة وحفصة لهما قلبان، فلما أضيفا إلى ضمير الجمع جُمع ﴿قُلُوبُكُمَاۖ﴾، وكذلك إذا أضيف إلى ياء المتكلم فإنه يفرد، ويجوز خلاف ذلك، ولا نقول: هذا شيء لازم، لكن هذه اللغة الفصحى، والقرآن نزل باللغة الفصحى.

قوله: «وأنه يجيء يوم القيامة هو وملائكته» الملائكة تأتي قبل مجيء الله جل وعلا، كما جاء تفصيل ذلك في أحاديث الرسول ﷺ، فإن الأرض تُمد وتُضاعف سعتها، وتزال جبالها، ويزال بحارها، ثم يزاد فيها، وهي تُغير غير هذه الأرض، يعني ليست هذه الأرض، فليس فيها معالم، ولم تكن أرضاً عصي الله عليها أو سفك عليها دم، بل تُطهر وتزال هذه الأرض، ولكن هي نفس الأرض، ثم يجتمع بنو آدم والجن من أولهم إلى آخرهم، ثم تتنزل ملائكة السماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة وهكذا، ثم ينزل رب العالمين للفصل بين القضاء وهو على عرشه، ويفصل بين عباده، وكل أمر حدث في هذه الدنيا سوف يَفْصِله جل وعلا في ذك اليوم، فهو الحاكم وحده ويحكم بين خلقه كلهم، فإما الجنة أو النار، وكثير من أهل

وأنه ينزل إلى السماء الدنيا كما جاء في الحديث، ولم يقولوا شيئاً إلا ما وجدوه في الكتاب وجاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ.

الإيمان يعذبون، وقد تواترت الأحاديث أن كثيراً منهم يدخل النار، ولكنهم يخرجون بالشفاعة، وبعضهم يخرج برحمة الله جل وعلا.

قوله: «**وأنه ينزل إلى السماء الدنيا**» وهذا في كل ليلة كما سبق، فينزل إلى السماء الدنيا لأجلنا، فينادينا «**هل من تائب فيتاب عليه؟ هل من سائل فيعطى؟ هل من مستغفر فيغفر له؟**»[1]، ونحن نائمون غافلون ما ندري عن هذا، أليس هذا إعراضاً منا عن هذه الدعوة الكريمة؟ هل هناك عاقل يُدعى للإكرام ويأبى؟ ولكن كما قال الرسول ﷺ: «**كلكم يدخل الجنة إلا من أبى**» قالوا: من يأبى؟ فبيَّن الأمر: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»[2]، فهذه الدعوة وهذا النداء وهذا النزول لأجلنا حتى نتوب، وحتى نطلب منه ونستغفر.

وتحري هذا الوقت الذي ينادي رب العالمين فيه عبادةٌ، فهو ينزل ويقرب إليهم، ويقول: «**هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فيتاب عليه؟ هل من سائل فيعطى؟**»، ففتح بابه ونادى عباده للعطاء والمغفرة، ولكننا إما إيماننا ضعيف جداً، أو أننا في غفلة عميقة، فإذا جاء الإنسان الموت تنبه، وهذه مصيبة إذا كنا لا نتنبه إلا إذا جاءنا الموت؛ لأن الحياة كأنها نوم والموت يقظة، فإذا جاء الموت يستيقظ، فعلى كل حال نحن بأمس الحاجة إلى فقه هذا الحديث ومعرفته لعلنا نرجع إلى ربنا جل وعلا.

قوله: «**ولم يقولوا شيئاً إلا ما وجدوه في الكتاب وجاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ**» يعني أنهم لا يقولون شيئاً مما يتعلق بالله جل وعلا، أما

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقالت المعتزلة: إن الله استوى على العرش بمعنى: استولى وذكر مقالات أخرى».

وقال أيضاً أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه «الإبانة في أصول الديانة»: «وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه، وعليه يعتمدون في الذب عنه عند من يطعن عليه. فقال: «فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة.

فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة، والقدرية، والجهمية، والحرورية، والرافضة، والمرجئة؛ فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون.

قيل له: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكلام ربنا وسنة نبينا، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد ابن حنبل ـ نضَّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته ـ قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل؛ الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلالة، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكّين؛ فرحمة الله عليه من إمام مقدّم، وجليل معظّم، وكبير مفهّم.

وجملة قولنا: أنّا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما جاؤوا به من عند الله، وبما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا نرد من ذلك شيئاً؛ وأن الله واحد لا إله إلا هو، فرد صمد لم يتخذ صاحبة

الحوادث التي تحدث من أفعال الناس؛ فهم يَرجعونها إلى كتاب الله ويستنتجون الحكم منه ومن أحاديث رسوله ﷺ، أما هذه أمور فهي منصوص عليها وقد كُفينا، فيجب أن نرجع فيها إلى الوحي فقط.

ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق؛ وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

وأن الله مستوٍ على عرشه كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وأن له وجهاً كما قال تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٧].

وأن له يدين بلا كيف، كما قال تعالى: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، وكما قال تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأن له عينين بلا كيف، كما قال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾ [القمر: ١٤]، وأن مَنْ زعم أن أسماء الله غيره كان ضالاً. وذَكَر نحواً مما ذَكَرَ في الفرق».

إلى أن قال: «ونقول: إن الإسلام أوسع من الإيمان، وليس كل إسلام إيماناً، وندين بأن الله يقلب القلوب بين إصبعين من أصابع الله ﷻ، وأنه ﷻ يضع السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع، كما جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ».

قوله تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ صفة الوجه لله جل وعلا صفة ذات.

وقوله: ﴿ذُو﴾ وصف للوجه، وهذا مما يبين ويوضح أن المقصود الوجه الحقيقي، إذ لو كان المقصود ـ كما يقوله المُؤوله ـ ذاته؛ لكان النعت أن يقال: ﴿ذِى ٱلۡجَلَٰلِ﴾، فلما قال: ﴿ذُو﴾ تبين أن المقصود إثبات الوجه حقيقة.

مقصوده بقوله: «**الإسلام أوسع من الإيمان**» أن دائرة الإسلام أوسع من دائرة الإيمان، فقد يكون الإنسان مسلماً ولا يكون مؤمناً، فالمقصود بالإيمان هو الإيمان الخاص، أما الإيمان الذي هو إقرار القلب وعلمه؛

. . . .

فهذا لا بد لكل مسلم، ولا يمكن أن ينفك الإسلام عنه، ولكن إذا اجتمعا ـ الإسلام والإيمان ـ فُسر كل واحد منهما بشيء، كما فسر الرسول ﷺ الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالأعمال الباطنة، وهذا عند الاجتماع، أما عند الانفراد فيدخل فيه ما يذكر وحده الإسلام والإيمان والإحسان وغيرها، كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، فهذا دخل فيه الدين كله.

وكذلك قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ إلخ، فهذا دخل فيه الإيمان والإسلام، وهذا هو قول أهل السنة، وبه تجتمع الأدلة، بخلاف الذين حاروا في هذا، فجعلوا يتخبطون في ذلك، فضربوا بعض الأدلة ببعض، وضلوا.

وأحياناً يأتي الإيمان ويُفسر بالإسلام كما في حديث وفد عبد القيس: «**آمركم بالإيمان، أتدرون ما الإيمان؟ الإيمان: أن تشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتؤدوا خمس المغنم**»[1]، ففسر الإيمان بما فسر به الإسلام في موضع آخر.

فهذا دليل على أنهما يتعاقبان، فكل واحد يأتي بمعنى الثاني، ولكن إذا اجتمعا فُسر هذا بشيء وهذا بشيء. أما إذا جاء انفراد أحدهما فإنه يدخل فيه الآخر، وهذا كثير.

ومثله قوله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، فالإيمان الذي نفي هو الذي ذكر في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾، لأن هؤلاء دخلوا في الإسلام جديداً، فقالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

إلى أن قال: «والإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ونُسلِّم الروايات الصحيحة عن رسول الله ﷺ التي رواها الثقات عدلاً عن عدل حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ».

ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يعني بعد، فالإسلام هنا هو الانقياد العام فقط، أما أن يأتي وجل القلوب وخوفها وخشيتها؛ فهذا ما جاء بعد.

وهذه الآية دليل على التفرقة بين الإسلام والإيمان؛ لأن من الناس من يقول: الإيمان هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان، لا فرق، كلاهما سواء، ولكن جاء في القرآن ما يقرب من أربعة مواضع تدل على التفرقة.

ومنها قوله جل وعلا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦]، ففي الآية الثانية ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دخلت زوجة لوط، فهي كانت منقادة له في الظاهر، ولكنها غير مؤمنة، فلما جاءت النجاة ذكر ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقط، فدل على أن الإيمان غير الإسلام.

وكذلك قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥]، وقال كذلك: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، ففرق بين الإسلام والإيمان.

قوله: «**والإيمان قول وعمل**» يعني فسره بقول القلب واللسان، وعمل القلب وعمل الجوارح.

وقول اللسان ركن من أركان الإيمان، ولهذا قال الرسول ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا..»، فلا بد من القول، فإذا اعتقدوا بدون قول لا يعدون مسلمين، يقول الله جل وعلا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، فأمرنا بالقول، ويدخل في ذلك القراءة والذكر وغير ذلك.

وقوله: «**يزيد وينقص**» فهذا ظاهر أنه يزيد في الطاعات، وكذلك نفسه قد يكون زائداً عند إنسان وناقصاً عند آخر، فليس الإقرار والتصديق على

. . . .

حدٌّ سواء عند كل أحد، فبعضهم أكمل من بعض.

وكذلك ينقص بالمعاصي، فإذا عصى الإنسان نقص إيمانه، وهذا دليل على أن العمل ركن من أركان الإيمان، وتارك العمل بالكلية لا يتأَتّى، وإنما هو تصوير لبعض الناس، يصور مسائل ليس لها وجود، وإنما هي في الذهن فقط، فلا يمكن للإنسان أن يؤمن بقلبه ويصدق ثم لا يصلي ولا يزكي ولا يصوم، هذا مستحيل ممتنع، والتصويرات التي يصورها بعض الناس ثم يقدر أن لها وجوداً، فهذا مجرد تخيل، لا يجوز أن يبنى عليه شيء، فهو تقديرهم يقول لو أن إنساناً آمن ثم أبى أن يصلي، كيف يؤمن ويأبى أن يصلي! ممتنع!

ثم يقال: يؤتى به يقرر: تصلي وإلا قتلناك؟ فيصر، فيقتل! هذا غير ممكن، وغير واقع أصلاً، وإنما هي أمور تخيلية في الأذهان، فإذا آمن صلى باختياره، بل يكون منقاداً راغباً.

وكذلك النقص، فليس معنى النقص أن يكون بالتعمد فقط، فكل ما كان الإنسان أكثر عملاً كان أكثر إيماناً وأتم.

ولهذا لما قال الرسول ﷺ للنساء: «**إنكن ناقصات عقل ودين**». فقالت امرأة: لِمَ؟ قال: «**أما نقصان عقلها فشهادة إحداكن نصف شهادة الرجل، وأما نقص الدين فتبقى إحداكن وقتاً لا تصلي**»[1]، وهي معذورة في هذا وليس عليها لوم؛ لأنه أمر شرعي، وليس معنى ذلك أنها إذا تركت الصلاة في هذا الوقت الذي عُذرت فيه تكون عاصيةً أو نقص دينها بذلك، ولكن ليست مثل الذي يصلي في هذه الأوقات، فالذي يصلي يكون أتم مِن الذي لا يصلي وإن كان معذوراً وليس عليه لوم أو إثم في ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

. . . .

المقصود أن بعض الناس يأتي بالعمل أكثر، فكل من كان عمله أكثر كان إيمانه أزيد.

وقد يكون التفاوت في القلوب بالتصديق والإقرار والانقياد ومعرفة الله أعظم من التفاوت في عمل الجوارح، ولهذا قالوا في أبي بكر ﷺ: إنه لم يسبق الصحابة بكثرة صلاة ولا صوم، وإنما سبقهم بشيء وَقَرَ في قلبه[١]، يعني من معرفة الله وخشيته وخوفه، وقال الرسول ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله، وأنا أخشاكم لله**»[٢]، فمن كان أعلمَ بالله وأخشى؛ فهو أتم إيماناً وأكمل، والمرأة التي يأتي عليها وقت لا تصلي قد تكون أكمل إيماناً ممن يصلي في ذلك الوقت إذا كانت أتمَّ معرفةً، وأكثر خشيةً.

فعلى كل حال؛ هذا يتبع العمل وما يقوم في القلب من الخشية والخوف، وهو عمل القلب، والعقيدة العلم الذي يثبت عليه القلب، فهذا هو قول القلب.

زيادة الإيمان جاءت نصوص كثيرة في النص عليه، أما النقص فلم تأتِ نصوص واضحة في هذا، وإنما جاء قوله ﷺ: «لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن»، فقوله: «وهو مؤمن» جملة حالية، يعني في هذه الحال، فمن كان يرتفع عنه الإيمان في وقت لا يكون ممن يكون الإيمان عنده مستمراً، فهذا يكون دليلاً على النقص.

ثم الذي يزيد يكون قبل الزيادة ناقصاً، ولهذا استدل البخاري في

---

(١) «غذاء الألباب» للسفاريني (١/ ٤٨).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢٤٩١٢)، من حديث عائشة، وبنحوه البخاري (٢٠)، وأخرجه مسلم (١١٠٨) بسياق آخر من حديث عمر بن أبي سلمة ﷺ.

. . . .

صحيحه في كتاب الإيمان على نقص الإيمان بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ يعني أنه قبل الكمال كان ناقصاً، وليس معنى ذلك أن الذين آمنوا أو ماتوا قبل نزول هذه الآية أن إيمانهم ناقص؛ لأن هذا الواجب عليهم، وهم مستعدون إذا نزل شيء فإنهم يقبلونه ويؤمنون به، ولكن هذا بالنسبة للدين نفسه كمل بذلك.

فالشيء الذي لم يكمل يكون قبل الكمال ناقصاً، وكذلك إذا كان الناس يتفاوتون في زيادة الإيمان الذي يكون في القلب وزيادة العلم، فمن نقص علمه وخشيته وخوفه لا يكون مثل من تم علمه وخوفه وخشيته، هذا ظاهر، وأما النصوص التي جاءت في القرآن فهي بالزيادة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾، وما أشبه ذلك؛ فوجه الزيادة ظاهر في أنهم آمنوا بها وعملوا بها، والذين لا يؤمنون بها ولا يعملون بها زادتهم خسارة؛ لأنه إذا نزل أمرٌ من أمر الله ثم تركه التارك؛ فهذا نَقَصَ إيمانُه. فالشيء الذي يكون قبل الزيادة يكون ناقصاً، ولا يلزم من هذا أن يكون في دين الله، بل هذا في الناس والخلق.

وهذه المسألة ـ زيادة الإيمان ونقصانه وتعريفه ولوازمه ـ لا يزال كثيرٌ من الناس لم يعلمه العلم الذي ينبغي؛ لوجود الخلاف، ولكون الإنسان ما عرف خطاب الرسول ﷺ وخطاب الله كما ينبغي، حتى إن الرسائل تُكتب في الجامعات، ويقرر صاحب الرسالة أن الأعمال شرطٌ للإيمان أو أنها مكملات للإيمان! فلم يصلوا إلى الحقيقة.

وكثيرٌ من الأمور التي جاء بها الإسلام مثل الصلاة وغيرها إذا كان لها شروط فالشروط تكون قبل، ولا تكون في الماهية، ويُعرفه أهل التعريف فيقولون: الشرط ما توقف على وجوده وجود الشيء وماهيته، وعلى فقده فقده، يعني يكون قبله، بخلاف الركن فهو من ماهية الشيء.

. . . .

والسبب في هذا: أننا ما أخذنا العلم من أصوله وتحققناه كما ينبغي، وتركنا ما قرره العلماء في مبادئ العلوم وأصولها؛ وجئنا العلم من فوق، ففاتنا منه أشياء كثيرة ما عرفناها، وصار التعلم فيه اختلاف، والعمل لا يهمنا، ويهمنا المعلومات!

الرسول ﷺ جاء بالإيمان والصحابة أخذوه عنه أخذاً متواتراً أعظم من تواتر القرآن، فكيف يُتصور أن يحدث في هذا خلاف.

والخلاف الذي حدث إنما هو لأهل البدع الذين لم يتحققوا في الإيمان، أما أهل السنة الذين تربوا على يد رسول الله ﷺ وأخذوا عنه العلم وكذلك الذين أخذوا عنهم لم يحدث عندهم شيء من هذا، ولم يحدث بينهم خلاف في تعريف الإيمان، وتعريف أهل السنة للإيمان تعريف دقيق، ولكن يحتاج إلى فَهْم، فهم يقولون: إن الإيمان قول وعلم وعمل، فالقول يدخل فيه قول اللسان؛ لأنه يتوقف عليه قبول ما جاء به الرسول، وكذلك قول القلب الذي هو عقيدته الذي ينطوي عليها، فلا بد من إيمان القلب أي علمه. ثم كذلك عمل الجوارح؛ فإذا وجد التصديق والإقرار والإذعان فإنه يمتنع أن يتخلف العمل عنه؛ فلا بد من وجود العمل.

وقولهم: إن الإيمان هو تصديق القلب، ويستدلون بأن الرسول ﷺ جاء بما جاء به في لغة العرب ولم يغير اللغة، واللغة فيها أن الإيمان هو التصديق.

فنقول: إن هذا غير مسلم بالجملة؛ وإن كان في الجملة له وجه.

ثم الاستدلال على هذا بقوله جل وعلا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾، كيف نستدل بهذه الجزئية ونترك دعوة الرسول ﷺ التي جاء بها، وهي أبلغ من هذا وأتم. المقصود أن الخلاف في تعريف الإيمان ليس لأهل السنة، وإنما هو لأهل البدع، وتأثر الناس بذلك.

إلى أن قال: «ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، وأن الرب ﷻ يقول: «**هل من سائل؟ هل من مستغفر؟**» وسائر ما نقلوه وأثبتوه، خلافاً لما قال أهل الزيغ والتضليل.

نعم صحيح أن لبعض أهل السنة خللاً في هذا فقالوا: إن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان، وليس معنى ذلك أن الأعمال ليست إيماناً، ولكن قالوا: إذا قلت: إيمان فهل يدخل فيه العمل؟ خالف في هذا أبو حنيفة وشيخه حماد، وكذلك الذين تبعوه، ولكن أهل السنة أنكروا عليه أتمَّ الإنكار وأكثره، وقالوا: إن هذا خروج عن قول أهل السنة وخروج عن الحق.

فالعمل من الإيمان، ولهذا استدلوا عليه بأدلة كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾، هل معناه يكفر بالعلم؟ هذا لا يمكن، ﴿يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ يعني الأمور التي ذكرها الله جل وعلا من المحرمات ورد الواجبات.

كذلك قوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ﴾ فالذي آمنوا به المفاداة، والإخراج سماه كفراً، وكلاهما عمل، وما أشبه ذلك من الآيات، ولكن كثيراً من الناس يأخذ دينه بالعقل، ولا يأخذه بالوحي، ولهذا ضلوا في هذا وغيره، ولا يزال الضلال في مسمى الإيمان وحقيقته عند بعض الطوائف مثل الأشاعرة ونحوهم.

فهذه مسائل مهمة جداً، ينبغي للإنسان أن يتحلى بها ويعرفها تماماً حتى لا يكون عنده شك وريب.

قوله: «**ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا**» النزول من الصفات التي أنكرها أهل البدع، ولا نقول: أكثرهم بل

ونعوّل فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا، وإجماع المسلمين وما كان في معناه، ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا به، ولا نقول على الله ما لا نعلم، ونقول: إن الله يجيء يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢].

وأن الله يقرب من عباده كيف شاء، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]..................................

كلهم أنكروا ذلك، وكيف ينكر شيء تواتر عن رسول الله ﷺ، هل يكون الإنسان مؤمناً بذلك؟

نقول: لو كان الإنسان يتعمد الرد على رسول الله ﷺ كان له حكم، أما إذا قامت عنده الشُّبَه، ومنعته موانع تقوم بنفسه يعتقد أنها باطلة؛ فهذا له حكم غير الأول. وأهل البدع هكذا قامت عندهم موانع، وصار عندهم شُبه، تصوروا أن هذا باطل وأن الإقرار به كفر؛ لأنه تشبيه، ولهذا ردوه وأنكروه.

وليس معنى ذلك أنه ردٌّ على رسول الله ﷺ، وإنما تأولوه، فقالوا: ينزل أمره أو تنزل رحمته، فما ردوا النص رأساً، وإنما تأولوه، وتأويلهم هذا يبطل مذهبهم، فمن أين ينزل أمره؟ وكذلك إذا قالوا: رحمته، من أين تنزل الرحمة؟ فهل تنزل من العدم؟ أو تنزل من الراحم؟ فالباطل لا بد أن يتبين بطلانه، ولكن يحتاج الإنسان أن يعرف ويعلم.

قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ القرب جاء في شيء خاص ولم يأتِ عاماً، فالقرب إما إلى العابد أو إلى السائل، ولم يأتِ كما جاء في المعية: خاصة وعامة، ثم القُرب لا ينافي علو الله جل وعلا، فالقرب بالنسبة للعابد كقوله جل وعلا: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، وقول الرسول ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[1]، فقرب الله خاص بعباده.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

وأما قربه للسائل كقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

أما أن يأتي قربٌ عامٌّ للخلق كلهم؛ فهذا لم يَرِدْ في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ، فيجب أن نفهم هذا؛ لأن بعض الناس يجعل القرب عاماً، وهو خطأ، فالقرب الذي وصف به ربنا جل وعلا خاص لا يشبه قرب جسد إلى آخر، تعالى ربنا وتقدس، ثم إن الله جل وعلا أكبر من كل شيء، ومحيط بكل شيء جل وعلا.

ولهذا تُذكر إحاطته عند مثل هذه الأشياء لتقريب المعنى إلى الأفهام، والله يقول جل وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

فقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ما أخذه أهل العلم من أهل السنة على وتيرة واحدة أو قول واحد على أنه قرب الله؛ لأن المقصود بهذا المحتضر أو الإنسان ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾.

فقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ من تمام الكلام، فهو متعلق به، ولهذا قال بعض العلماء: إن هذا قرب الملائكة، وقالوا: إن التعبير بـ«نحن» للمعظم نفسه الذي له جنود يمتثلون أمره، وهذا معروف حتى في خطاب الناس، فمثلاً الأمير أو الملك يقول: نحن فلان أمرنا بكذا وكذا؛ لأنه له من ينفذ أمره، وليس هو الذي ينفذ، فالذي ينفذ الأوامر من تحت يده ومن يأمرهم ومن وظفهم.

فقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يصح أن يكون جنوده وملائكته الذين ذكروا في تمام الآية ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

وكما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٨ ـ ٩].

ومثل ذلك ما في سورة الواقعة في قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥]، فقالوا: الظاهر أنهم الملائكة، وليس المراد الله جل وعلا؛ لأن الملائكة لا يُبصرون، ويتولون قبض روحه واستلامها وأخذها، وليس ملكاً واحداً بل جماعة يحيطون به ولا يُبصرون.

ثم لا مانع من أن يكون المقصود هو رب العالمين جل وعلا؛ لأنه محيطٌ بكل شيء، وهو قريب وهو على عرشه فوق خلقه تعالى وتقدس.

فإن قال قائل في هذه الآية والتي قبلها: إن المقصود الملائكة فلا ننكر عليه؛ لأن هذا قاله بعض أهل السنة وله وجه ظاهر من الآية، وليس هذا من النصوص التي لا يجوز أن يقال بخلاف ما نصت عليه مثل الاستواء والنزول فهذا نص، أما هذه فهي ظاهر أو احتمال مفهوم.

قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ المقصود به رب العالمين جل وعلا، وقيل غير هذا، وأكثر المفسرين على أن المقصود جبريل.

وجاء نصٌّ في هذا في حديث المعراج، وهو ظاهر لا يحتمل أنه يكون جبريل، وفيه: «فدنا الجبار منه فتدلى»، وهذا النص ما وجدوا له تأويلاً إلا أنهم طعنوا في الراوي وهو شريك بن أبي نمر، فقالوا: جاء بألفاظ لا يوافق عليها، ولكن من الذي لا يوافقه عليها؟ أشاعرة، فَهُم الذين وجهوا الطعون إليه، مع أنه من رجال الصحيحين، ولا طعن فيه أحدٌ أنه غير متقن، ومع ذلك طعنوا به لأجل هذا. وهو كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في محمد بن إسحاق صاحب السيرة، يقول: «ليس له ذنب إلا أنه خالف الجهمية فيما يروي»، هذا ذنبه، وهذا أعظم.

إلى أن قال: «وسنحتجُّ لما ذكرناه من قولنا وما بقي مما لم نذكره باباً باباً».

ثم تكلم على أن الله يُرى، واستدل على ذلك، ثم تكلم على أن القرآن غير مخلوق، واستدل على ذلك، ثم تكلم على من وقف في القرآن وقال: لا أقول: إنه مخلوق، ولا غير مخلوق، ورد عليه.

ثم قال: «باب في ذكر الاستواء على العرش».

قول الأشعري رَحِمَهُ اللهُ: «**وسنحتج لما ذكرناه.. الخ**»، بالنسبة لهذه المقالة في هذا الكتاب هي مقالة أهل السنة، وهذا الكتاب من آخر ما ألّف بعدما اختلط بعلماء السنة ولاسيما علماء الحنابلة أتباع الإمام أحمد، ولهذا يثني عليه كثيراً، ويقول: «نحن على مذهبه، وبما قاله نقول»، ولكن أتباعه المتأخرون أبوا هذا، ولم يقبلوا هذا الكتاب، وهذا يدل على الهوى واتباع المذهب فقط.

وهذا الكتاب طبع طبعات متعددة، ومن ضمن طبعاته تحقيق لامرأة مصرية تقول: إنها حققته على عدة نسخ، وهذا التحقيق من أسوأ الطبعات؛ لأنها وجدت نسخة يظهر أنها مدخل فيها أشياء كثيرة ليست من قول الأشعري نفسه؛ لأنهم يريدون أن لا يكون على مذهب الأشعري، فأضافتها إليه.

وقد حقق تحقيقاً جديداً في جامعة أم القرى، ونوقشت قبل وقت على ما يقرب من ثمان مخطوطات معتمدة، وأظن أنها على وشك أن تخرج طبعة محققة متقنة، وهي التي ينبغي أن يعتمد عليها.

ومقصود المحقق أن يرد على الأشاعرة فيها؛ لأنه ثبت ثبوتاً لا مجال للإنكار فيه أنه قول الأشعري، وأنه مذهبه، فيتبين أنهم ليسوا أتباعاً له، وإنما هم أتباع للباطل، وهو بريء مما يقولونه.

فقال: إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: إن الله مستو على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقد قال الله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة: ٥]، وقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧] كذب موسى في قوله إن الله فوق السماوات.

وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك: ١٦]، فالسماوات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السماوات قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه مستو على العرش الذي فوق السماوات، فكل ما علا فهو سماء، فالعرش أعلى السماوات، وليس إذا قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني جميع السماء، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات، ألا ترى أن الله ﷻ ذكر السماوات فقال: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ [نوح: ١٦] فلم يرد أن القمر يملؤهن، وأنه فيهن جميعاً.

قول الله حكاية عن فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ الآية، لو لم يخبره موسى بأن الله في فوق في السماء لما قال ذلك.

وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في تفسير الآية مذهبان:

أحدهما: أن «في» بمعنى «على».

والآخر: أن المقصود بالسماء العلو، فتكون «في» على بابها، يعني من في العلو، وهذا القول اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ويقول: لسنا بحاجة إلى تقدير «في» بمعنى «على».

قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ يقولون: إن القمر في الفلك، ولكن إذا

ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء، لأن الله على العرش الذي فوق السماوات، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض».

ثم قال: «فصلٌ: وقد قال قائلون من المعتزلة، والجهمية، والحرورية: إن معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] أنه استولى وملك وقهر، وأن الله ﷻ في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة، فلو كان كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة، لأن الله قادر على كل شيء، فالله قادر على الأرض، وعلى الحشوش، وعلى كل ما في العالم، فلو كان مستوياً على العرش بمعنى الاستيلاء ـ وهو ﷻ مستولٍ على الأشياء كلها ـ لكان مستوياً على العرش، وعلى الأرض، وعلى السماء، وعلى الحشوش والأقذار؛ لأنه قادر على الأشياء مستول عليها، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها، ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: إن الله مستو على الحشوش والأخلية، لم يَجُزْ أن يكون الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يخص العرش دون الأشياء كلها. وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل.

ثم قال: «باب الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين». وذكر الآيات في ذلك، ورد على المتأولين بكلام طويل لا يتسع هذا الموضع لحكايته، مثل قوله: فإن سئلنا: أتقولون: لله يدان؟

قيل: السماوات؛ فهل الأفلاك هي السماوات، والكواكب كل مجموعة في فلك تحت الفلك الذي فوقه، والأفلاك كثيرة، فكل هذا يدل على أن هذه الأفلاك تحت السماء، وأنها ليست هي السماء المبنية.

قيل: نقول ذلك، وقد دل عليه قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله مسح ظهر آدم بيده، فاستخرج منه ذريته**»[١]، وقد جاء في الخبر المأثور عن النبي ﷺ: «**إن الله خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس شجرة طوبى بيده**»[٢].

وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل: عملتُ كذا بيدي، ويريد بها النعمة، وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلغتها، وما يجري مفهوماً من كلامها، ومعقولاً في خطابها، وكان لا يجوز في خطاب أهل اللسان أن يقول القائل: فعلت بيدي، ويعني به النعمة، بطل أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿بِيَدَيَّ﴾ النعمة، وذكر كلاماً طويلاً في تقرير هذا ونحوه».

قوله: «**وغرس شجرة طوبى بيده**» هذه لا تثبت؛ لأن الذي جاء ثلاثة، وإذا ثبت يضاف إلى الثلاثة، وأبو نعيم في الحلية يروي أشياء كثيرة لا تثبت.

قوله: «**وليس يجوز في لسان العرب.. الخ**» يعني لا يقال: ﴿بِيَدَيَّ﴾ أي بنعمتي، فالله جل وعلا ليس له نعمة واحدة، فكل نعمة له، مع أن المفرد إذا أضيف فإنه يعم، كما قال جل وعلا: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

قول الأشعري رحمه الله: «**وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلغتها..**» هنا يرد على أتباعه الذين يزعمون أنهم أتباعه، والواقع أنهم ليسوا أتباعاً له، وإنما هم أتباع للمعتزلة الذين اعتمدوا نوعاً من التأويل وليس كله، وإلا أكثرهم يرد النصوص صراحةً.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٣).

(٢) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢٣).

وقال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتكلم وهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري، ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده، قال في كتاب «الإبانة» تصنيفه:

«فإن قال: فما الدليل على أن لله وجهاً ويداً؟

قيل له: قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، فأثبت لنفسه وجهاً ويداً.

فإن قال: فلم أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إذ كنتم لا تعقلون وجهاً ويداً إلا جارحة؟

قلنا: لا يجب هذا كما لا يجب إذ لم نعقل حيًا عالماً قادراً إلا جسماً أن نقضي نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه، وكما لا يجب في كل شيء كان قائماً بذاته أن يكون جوهراً، لأنا لا نجد قائماً بنفسه في شاهدنا إلا كذلك، وكذلك الجواب لهم، إن قالوا: فيجب

كتاب «الإبانة» غير موجود، ولا رأيناه، ولا سمعنا عنه شيئاً، والله أعلم بوجوده.

أما الكتاب الذي سيذكره «التمهيد» هذا طبع ثلاث طبعات، الطبعة الأولى استولى على طبعته رجل جهمي، عدو لشيخ الإسلام، ووكل تحقيقه إلى رجلين فضحك عليهما وحذف الأجزاء التي كان ينقل منها شيخ الإسلام، ثم كتب أن ابن تيمية كذاب؛ لأنه ينقل عن هذا الكتاب، وهذه النقول ليست موجودة فيه.

والعجيب أنه لما انتشر كلامه هذا تولى الرد عليه نصراني من نصارى لبنان، فطبع الكتاب وبين أن هذه النقول موجودة، وأن الكذاب هو الذي طبع الكتاب وضحك على المحققين وأمرهما أن يحذفا هذا الكلام.

أن يكون علمه وحياته وكلامه وسمعه وبصره وسائر صفاته عرضاً واعتلوا بالوجود.

قال: فإن قال: تقولون: إنه في كل مكان؟

قيل له: معاذ الله؛ بل هو مستوٍ على العرش كما أخبر في كتابه فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك: ١٦].

قال: ولو كان في كل مكان، لكان في بطن الإنسان وفمه، والحشوش، والمواضع التي يُرغب عن ذكرها، ولَوَجب أن يزيد

قوله: **«ولو كان في كل مكان، لكان في بطن الإنسان وفمه، والحشوش، والمواضع التي يرغب عن ذكرها»** لأن «كل مكان» تعميم، وهذا غير معقول أصلاً في العقل، والمخلوقات كلها يمسكها ربنا جل وعلا بيده فتكون صغيرة حقيرة، ولكن عند من يؤمن بهذا، أما هؤلاء فالضلال استولى على أدمغتهم وعلى عقولهم نسأل الله العافية.

والسبب في هذا: أنهم لم يعقلوا إلا ما عقلوا من المخلوق نفسه، فصاروا يتصورون أن أخبار الله جل وعلا عن نفسه كالتي يعهدونها ويعرفونها من أنفسهم، وإلا ما الفارق بين أن يقال: إنه فوق العرش وبين أنه في كل مكان؟ وهل جاء نص أو ظاهر أو مفهوم أن الله في كل مكان؟ لم يأتِ شيء من هذا، وإنما النصوص كلها خلافه، وهذا يدل أن صاحب الهوى لو جئته بكل آية وبكل دليل؛ فإنه لا يقبل، وإن كان عنده أدب أو حسن معاملة؛ فإنه يُؤولها حتى تتفق معه وإلا ردها.

قوله: **«ولوكان في كل مكان، لكان في بطن الإنسان وفمه، والحشوش..»** هذا جدال عقيم، وهو من لوازم قولك، وهل تقول بهذا؟ فالقول بأنه في كل

بزيادة الأمكنة إذا خلق منها ما لم يكن، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان، ولصحَّ أن يُرغب إليه إلى نحو الأرض، وإلى خلفنا وإلى يميننا وإلى شمالنا، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله.

وقال أيضاً في هذا الكتاب: «صفات ذاته التي لم يزل ولا يزال موصوفاً بها، وهي الحياة، والعلم والقدرة، والسمع والبصر، والكلام، والإرادة والبقاء، والوجه، والعينان، واليدان، والغضب، والرضا».

وقال في كتاب «التمهيد» كلاماً أكثر من هذا.

وكلامه وكلام غيره من المتكلمين في هذا الباب مثل هذا كثير لمن يطلبه، وإن كنا مستغنين بالكتاب والسنة وآثار السلف عن كل كلام.

وملاك الأمر أن يهب الله للعبد حكمة وإيماناً بحيث يكون له عقل ودين، حتى يفهم ويدين، ثم نور الكتاب والسنة يغنيه عن كل شيء؛ ولكن كثير من الناس قد صار منتسباً إلى بعض طوائف المتكلمين، ومحسناً للظن بهم دون غيرهم، ومتوهماً أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم، فلو أُتي بكل آية ما تبعها حتى يُؤتى بشيء من كلامهم.

مكان؛ لو قيل: إنه في جوفك أو إنه في الحش تعالى الله وتقدس؛ فإن هذا كفر بالله جل وعلا.

وكتاب «**التمهيد**» موجود مطبوع.

قوله: «**فلو أُتي بكل آية ما تبعها حتى يُؤتى بشيء من كلامهم**» هذا هو الذي حمل الشيخ على ذكر هذه النقول، مع أن فيها إثبات الصفات في

ثم هم مع هذا مخالفون لأسلافهم غير متبعين لهم.

فلو أنهم أخذوا بالهدى الذي يجدونه في كلام أسلافهم لرُجي لهم مع الصدق في طلب الحق أن يزدادوا هدى، ومن كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة ثم لا يتمسك بما جاءت به النصوص من الحق ففيه شبه من اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩١]، فإن اليهود قالوا: لا نؤمن إلا بما أنزل الله علينا. قال الله لهم: فلم قتلتم الأنبياء من قبل إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم، يقول سبحانه: لا ما جاءتكم به أنبياؤكم تتبعون، ولا لما جاءتكم به سائر الأنبياء تتبعون، ولكن إنما تتبعون أهواءكم، فهذا حال من لم يتبع الحق، لا من طائفته ولا من غيرهم، مع كونه يتعصب لطائفته بلا برهان من الله ولا بيان.

الجملة، فهي حجةٌ على هؤلاء وهؤلاء.

والمقصود الرد على الأشاعرة، فهم الذين قاموا بوجهه، وهم لا يزالون الآن متمسكين بمذهبهم ـ مذهب الباطل ـ مجانبين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولكنهم يزعمون أنهم أهل السنة، وهم الذين يتمسكون بالكتاب، ولو جادلتهم بمثل هذه النصوص؛ لقالوا: إنك مشبه، وإذا لم يقولوه مجابهة ومشافهة قالوه في أنفسهم.

قوله: «**ثم هم مع هذا مخالفون لأسلافهم غير متبعين لهم**» يقصد بأسلافهم مثل الأشعري، وهو من أهل السنة وليس منهم، ولو اتبعوه لكانوا على الحق، وكذلك أصحابه القدامى، مثل: ابن فورك والإسفراييني والحليمي والبيهقي وغيرهم، لو اتبعوهم لكانوا على كثير من الحق، ولكنهم لم يتبعوا لا إمامهم الذي ينتسبون إليه، ولا الأئمة الذين عرفوا بإثبات الصفات السمعية.

وكذلك قال أبو المعالي الجويني في كتاب «الرسالة النظامية»[١]: اختلفت مسالك العلماء في هذه الظواهر، فرأى بعضهم تأويلها، والتزم ذلك في آي الكتاب، وما يصح من السنن ....

قال: «**وكذلك قال أبو المعالي الجويني**» أبو المعالي الجويني هو من أعمدتهم الذي يعتمدون عليها، وهومن متأخري الأشاعرة، ولكنه عُرِفَ أنه تَحَيَّر في آخر حياته، وهو الذي وقعت له القصة مع أحد أهل السنة وهو في مسجد الرسول ﷺ حينما كان يقرر أن الله في كل مكان. قال له: أخبرني عن ضرورة أجدها أنا وأنت وكل من قال: يا الله؛ يجد دافعاً يدفعه من نفسه أنه يطلب ربه من العلو، فيرفع يديه إلى فوق؟ كيف ندفع هذه الضرورة؟ فتحير وقال: حيرني الرجل.

يعني ذهب ما عنده، ولكن تلك الساعة تحير ثم رجع إلى مذهبه، ولهذا لما حضره الموت صار يتبرأ من المتكلمين، ويخبر عن حاله ويقول: لو كنت أظن أن الكلام يصل بي إلى ما وصل؛ ما اشتغلت بالكلام، ثم يقول لأصحابه: لا تشتغلوا بالكلام، ثم يقول: أخبركم وأشهدكم أني ما عرفت شيئاً، وها أنا ذا أموت على عقائد عجائز نيسابور. يعني يموت على الفطرة التي فطر الله جل وعلا عليها خلقه.

كما قالت إحداهن لما رأت الفخر الرازي يسير في الشارع ومعه أكثر من ثلاثمئة تلميذ خلفه، فقالت: من هذا الملك؟ فقال أحدهم: ليس هذا ملكاً، هذا فخر الدين الرازي، يعرف على وجود الله ألف دليل. فضحكت، وقالت: هل وجود الله يحتاج إلى ألف دليل؟ والله لو لم يكن عنده ألف شك ما احتاج إلى ذلك.

يعني وجود الله يحتاج إلى أدلة؟ فهو ـ جل وعلا ـ فطر خلقه على

---

(١) (ص٣٢).

وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب.

قال: والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقداً: اتّباع سلف الأمة، والدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستندُ معظم الشريعة، ....

معرفته كما أن المخلوقات كلها تدل على وجوده تعالى وتقدس.

فالمقصود أن الجويني ـ عفا الله عنا وعنه ـ في آخر حياته تحير، ثم كتب هذه العقيدة «النظامية» التي يذكر منها الشيخ، وهي تدل على التفويض، والتفويض أشر من التأويل، فهو انتقل من التأويل إلى التفويض، وزعم أنه هو مذهب السلف وليس كذلك.

قوله: «**وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل**» ليس معناه اعتقاد أنها حق فيتركونها ويعمون عنها.

وقوله: «**الظواهر**» وهي نصوص وليست ظواهر، وصفات الله لا تسمى ظواهر؛ لأن المصطلح عليه أن الظاهر هو الذي يكون دلالته أرجح من الدلالة الأخرى، يعني يحتمل هذا وهذا، فنصوص الصفات ليست ظواهر وليس فيها احتمالات، لا تحتمل إلا معنى واحد.

قوله: «**وتفويض معانيها إلى الرب**» وهذا لا يقول به أحد من أهل السنة، فالمعاني مقصودة ومعلومة، ولكن الكيفية هي التي تُفوض إلى الرب جل وعلا، نقول: لا يعلمها إلا الله، لكن هذا الذي ذكره هو مذهب المفوضة.

قوله: «**إجماع الأمة حجة متبعة**» والإجماع لا يستند إلى عقل، وإنما يستند إلى دليل شرعي.

يقول: «**مستند معظم الشريعة**»، بل الشريعة كلها بإجماع الأمة لا يعتمد فيها إلا على الشرع؛ لأن الإجماع في أمور الشرعية أتى به الرسول ﷺ،

وقد درج صحب رسول الله ﷺ على ترك التعرض لمعانيها ودَرْك ما فيها، وهم صفوة الإسلام.

والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة، والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها ـ فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً لأوشَكَ أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذ انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو

فإذا كانت أمور عقلية أو أمور وضعية أو أمور دنيوية؛ فهذا أمر آخر، ولا يقال فيه مثل هذا.

ثم الإجماع الذي يعقل أو يمكن أن يحاط به هو إجماع الصحابة، أما بعدهم فقد انتشر الناس في الأرض كلها، فلا يستطع إنسان أن يقول: إنهم أجمعوا على كذا وكذا كما قال الإمام أحمد: «من ادعى الإجماع فقد كذب، وما يدريه أن الناس أجمعوا على ذلك»[1].

قوله: «**وقد درج صحب رسول الله ﷺ على ترك التعرض لمعانيها**» ليس هذا صحيحاً، فأصحاب الرسول علموا معانيها تماماً، ولكنهم لم يتأولوا كما تأول الذين اشتبه الأمر عليهم.

قوله: «**وهم صفوة الإسلام**» فهل يقال: إن الصحابة ما عرفوا معنى الاستواء؟ ولا عرفوا معنى السمع والبصر والرحمة والغضب والرضا واليد والوجه والعينين والقدم، وما أشبه ذلك؟ هذا لا يقوله مسلم يعرف قدرهم ويعرف ما كانوا عليه، ولكن هو يظن أن هذا مذهبهم، فيحمل على أن هذا ظنه، وأنه حمل ذلك على ما ظن.

---

(١) انظر: «مسائل أحمد» رواية ابنه عبد الله (١٥٨٧).

الوجه المتبع، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزيه الله عن صفات المُحدَثين. ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويَكِلَ معناه إلى الرب، فليجر آية الاستواء والمجيء وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وما صح من أخبار الرسول ﷺ كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا.

قلت: وليعلم السائل أن الغرض من هذا الجواب ذكر ألفاظ بعض الأئمة الذين نقلوا مذهب السلف في هذا الباب، وليس كل من ذكرنا شيئاً من قوله من المتكلمين وغيرهم نقول بجميع ما يقوله في هذا وغيره.

ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به، كان معاذ بن جبل يقول في كلامه المشهور عنه، الذي رواه أبو داود في سننه: «اقبلوا الحق

قوله: «**المحدَثين**» يعني المخلوقين، وهذا كلامه وليس صفات الله جل وعلا تشبه صفات المخلوقين، لكن هذا اعتقادهم وفهمهم، وإلا ما من أحد من أهل السنة فضلاً عن الصحابة قال: إن الاستواء كاستواء المخلوق المعروف على السطح أو السفينة أو المركوب، وهكذا يقال في سائر الصفات، هم يعلمون أنها خاصة بالله جل وعلا، لا يشاركه فيها المخلوق كما أن صفة المخلوق تخصه، فليس كمثله شيء.

قوله «**ولا يخوض في تأويل المشكلات**» الذي نعتقده ويعتقده كل من عرف الحق أن صفات الله جل وعلا ليست من المشكل، لكنها مشكلة عنده وعند أمثاله، ولهذا لجأ إلى التفويض، وهو شر من التأويل.

قوله: «**ويَكِلَ معناه إلى الرب**» يعني أن معانيها تفوض إلى الله، وهذا من أبطل ما يكون، وأبطل من مذهبه الذي كان عليه أولاً.

من كل مَنْ جاء به؛ وإن كان كافراً ـ أو قال فاجراً ـ واحذروا زيغة الحكيم. قالوا: كيف نعلم أن الكافر يقول الحق؟ قال: إن على الحق نوراً»[1] أو كلاماً هذا معناه.

قوله: «**أو كلاماً هذا معناه**» أي هذا ليس لفظه ولكن هذا معناه، وجاء بأطول من هذا[2]، كان تلميذاً من تلامذته ملازماً له متبعاً له، فلما حضرته الوفاة صار يبكي فقال: ما يبكيك؟ قال: لا أبكي على دنيا كنت أصيبها منك أو من فلان، ولكن أبكي على العلم والإيمان الذي كنت أتعلمهما منك. فقال: العلم مكانه، والإيمان مكانه، اطلب العلم من العلماء وإياك وزلة العالم، ثم قال: ولا يَثنيك ذاك عن أن تأخذ عنه؛ لأنه يراجع الحق أو يوشك أن يراجع الحق. قلت: يرحمك الله وما يدريني أن هذه زلة العالم؟ قال: إذا سمعت الكلام تقول: ما هذا؟ فقف وتثبت.

يقول: لما توفي ودفناه ذهبت إلى العراق. لأنه قال له: اطلب العلم عند ابن مسعود، عند أبي الدرداء، عند سلمان، عند فلان وفلان، عين له، يقول: فذهبت إلى العراق لابن مسعود، فلما لقيت أحد أصحاب ابن مسعود سألني: من أين جئت؟ قلت: من الشام. فقال لي: أمؤمن أنت يا شامي؟ قلت: نعم. فقال لي: إذاً اشهد بالأخرى. قلت: وما الأخرى؟ قال: اشهد بأنك من أهل الجنة. قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا الذي حذرني منه معاذ.

ثم قلت له: أنا لي أعمال وأمور أمرني الله جل وعلا بها لو أعلم أن الله قبلها مني وأني قمت بها على الوجه الذي أراده مني؛ لشهدت لنفسي بالجنة، ولكني لا أعلم، فلا أشهد.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦١١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٣٣٥).

فأما تقرير ذلك بالدليل، وإماطة ما يعرض من الشبه، وتحقيق الأمر على وجه يخلص إلى القلب ما يبرد به من اليقين ويقف على مواقف آراء العباد في هذه المهامِهِ[(١)]، فما تتسع له هذه الفتوى، وقد كتبت شيئاً من ذلك قبل هذا، وخاطبت ببعض ذلك بعض من يجالسنا، وربما أكتب إن شاء الله في ذلك ما يحصل المقصود به.

يقول: فبينما نحن كذلك إذ خرج ابن مسعود، فقال له: ألا تعجب إلى هذا الشامي! يشهد أنه مؤمن ولا يشهد لنفسه بالجنة، فقال ابن مسعود: إذا شهدت بأنك مؤمن اشهد لنفسك بأنك من أهل الجنة، فقلت له هذا الكلام، قال: صدق صدق.

فالمقصود أن هذا سمع الزلة أول ما لقي هذا، ولكنه فقه وعلم وعرف الحق، وهكذا ينبغي للإنسان أنه إذا سمع الشيء ورآه، لا تقبله فطرته أو ينفر منه، فيجب أن يتوقف ويتعقل ويسأل ويتثبت، ثم لا يَثْنِيَهُ ذلك عن أن يأخذ العلم عن العالم، وبعض الناس إذا سمع له زلة نفر وترك، فالحق يجب أن يُقبل ممن قاله حتى وإن كان عدواً لك، وإن كان ممن تردّ عليه، فإن قال الحق فإنه يجب أن يقبل لأن المقصود هو الحق، وليس الانتصار لفرقة معينة أو شخص معين، فإن هذا من أمور الجاهلية.

قوله: «وقد كتبت شيئاً من نلك قبل هذا» المؤلف رَحِمَهُ اللهُ كتب رسائل كثيرة في هذا الموضوع، وينبغي أن يقرأ من كلامه مع الفهم «الرسالة التدمرية»[(٢)]، فإنه جاء بقواعد تبطل مذهب المتكلمين على كل تقدير،

---

(١) المهامه: جمع مَهْمَه، والمهمَهُ: المفازة والأرض البعيدة. انظر: «لسان العرب» (١٣/ ٥٤٢)، «المعجم الوسيط» (ص٨٩٠).

(٢) وقد علّق الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان ـ حفظه الله ـ على هذه الرسالة في دورة العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمية العاشرة بدولة الكويت، وذلك عام ١٤٣٢هـ، ويسر الله لنا طباعته سنة ١٤٣٤هـ.

وجماع الأمر في ذلك: أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه، وقصد اتباع الحق،

ويجب أن يفهمه الإنسان فهماً جيداً، وكذلك شرحه لـ«الأصفهانية»، ففيه من الكلام المتين الذي يبين الحق، وكذلك «شرح حديث النزول» له، وكذلك كتاب «الإيمان»، وكتبه في هذا الموضوع ورسائله كثيرة، وكلها تفيد وتجعل الإنسان إذا تردد عليها فهم؛ لأن الإنسان إذا قرأ للرجل وتردد في كلامه فهم كلامه وفهم مراده، مع أنه واضح لا إشكال فيه.

قوله: «**وجماع الأمر في ذلك**» يعني خلاصته، مثل قولنا: خلاصة ما تقدم، فهذا يجب أن نتنبه له؛ لأنه هنا بدأ يذكر الخلاصة التي يجب أن نكون لها واعين حتى نستفيد من ذلك.

قال: «**أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور**» وهذه الجملة تحتاج إلى أن نفهمها تماماً وهي جماع الخير كله، يعني أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور، فلا نطلب الهدى والنور من كلام الناس، وإنما نطلبه من كلام ربنا وكلام رسولنا ﷺ، فمن فهم الكتاب والسنة اكتفى بذلك، ثم بعد ذلك يعرض كلام الناس عليهما، فإذا وافق كلامهم كلام الله وكلام رسوله؛ قَبِلَه وإلا رده مهما كان، وهذه قاعدة يجب أنها تكون ثابتة، وهي الأصل في كل ما يعرض لك.

قال: «**لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه**» فلا بد من تدبر وفهم كتاب الله وسنة نبيه، ويضاف إلى ذلك «**قصد اتباع الحق**»، وهو النية الصالحة، فتنوي إرادة الحق، لا الانتصار لمذهب معين أو لرجل معين، فإنك لن تُهدى، ولن تعرف الحق في هذا، وستوكل إلى نفسك، فلا بد أن يكون عندك قصد صحيح وإخلاص تقصد وجه الله جل وعلا وتريد الاهتداء حتى تعمل على خلاص نفسك ونجاتها، والسعادة بفضل الله جل وعلا حينما يسعد الذين يتبعون كتابه ورسوله ﷺ.

وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في أسماء الله وآياته.

ثم يضاف إلى هذا أيضاً الإعراض عن «**تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد...**»، فإذا عرفت أن هذا الذي يسمونه التأويل أو العقليات أو أدلة عقلية؛ فهم يجعلون كتاب الله ظواهر ومشتبهات وأمور غير واضحة لا يجوز التمسك بها، فتعرف أن هذا باطل، وأن الحق في كتاب الله، فلا يمكن أن يكون الهدى في كلام الناس أبداً.

وكلام الله وكلام رسوله خالٍ منه، فإذا وُجدت هذه الأمور عند الإنسان؛ فإن الله جل وعلا يدله على الخير، ويجعل في قلبه نوراً يهتدي به، وقد قال الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]، الفرقان هو العلم النافع الذي تفرق به بين الحق والباطل.

وقال في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا﴾ [الحديد: ٢٨]، فالنور هو العلم النافع، والاهتداء والهدى.

وفي الآية الأخرى يقول الله جل وعلا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فتقوى الله اتباع ما جاء به رسوله ﷺ، وترك الذي يخالفه مهما كان، وقصد طاعته جل وعلا.

وقد فهم السلف هذا الشيء، فكان أول ما يعملون طاعة الله جل وعلا، ويأتون بالنوافل ويتقوون بها على العلم، كما قال الأعمش: «كنا نستعين بالصوم على حفظ الحديث»[1]، يعني أن هذا داخل في هذا.

---

(١) انظر: «جامع بيان العلم و فضله» (١/٧٠٨).

ولا يحسب الحاسب أن شيئاً من ذلك يناقض بعضه بعضاً البتة، مثل أن يقول القائل: ما في الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه في الظاهر قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]،...

قوله: «**ولا يحسب الحاسب أن شيئاً من ذلك يناقض بعضه بعضاً**» يعني أن النصوص لا يناقض بعضها بعضاً، لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ؛ لأنها حق.

قوله: «**ما في الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه في الظاهر..**» كونه يجعل هذا يخالف هذا غلط؛ لأنه فوق العرش، وهو إذا قام المصلي قبل وجهه وهو فوق عرشه؛ فهو أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء، فأنت إذا قمت للصلاة متجهاً إلى الكعبة فإنك تجد السماء أمامك، والسماء فوقك وهي مخلوقة وصغيرة بالنسبة لله جل وعلا، فالله أعظم وأكبر تعالى وتقدس.

فالمقصود أنه لا يجوز أن تظن بنصوص الكتاب ونصوص الأحاديث أن بعضها يخالف بعضاً، فالمعية لا تخالف العلو، مع أن المعية في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناها: المصاحبة، والمصاحبة تختلف باختلاف ما أضيفت إليه، ولهذا يقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «**اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل**»[1]، فالذي يصحب في السفر لا يكون خليفة في الأهل، وهذا لا يكون إلا لله جل وعلا، لأنه أكبر وأعظم من كل شيء.

ثم في خطاباتنا وكلامنا نعرف أن المعية لا تقتضي المخالطة والممازجة، والذي يفهم منها هذا فهمه خاطئ، فإذا قال القائل: معي مالي، هل المال في داخل بدنه؟ المال قد يكون في بلد وهو في بلد،

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

....

كذلك إذا قال: معي زوجتي، هل يلزم أن تكون زوجته ملاصقة له؟ الزوجة قد تكون في مكان وهو في مكان.

وكذلك لما قال الله جل وعلا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩]، أي الذين معه في الإيمان والجهاد وطاعة الله جل وعلا، أم معه في داخل بدنه! هذا لا يفهم.

كذلك سُمع من كلام العرب القدامى: سرنا مع القمر، مع أن القمر في السماء وهم في الأرض، وهو كلام فصيح ومعناه صحيح.

فالمقصود أن المعية معناها المصاحبة، والمصاحبة تختلف باختلاف ما أضيفت إليه، فإذا قال الله جل وعلا: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ فهو معنا باطلاعه وعلمه وإحاطته وقدرته، ولا يخفى عليه من أحوالنا وأقوالنا وأعمالنا شيء، فهو معنا بهذه المعاني.

ولهذا جاءت المعية في كتاب الله على نوعين:

الأول: المعية العامة، فتشمل الخلق كلهم، كما في هذه الآية ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾ [الحديد: ٤]، فهو معهم بعلمه، واطلاعه، وسمعه، وقبضته، وغير ذلك، وليس مجرد العلم فقط، ولكن إذا سمعنا مثلاً كلام علماء السلف الذين يقولون: معنا بعلمه، فهو رد لكلام أهل البدع الذين يقولون: هو معنا بذاته! فقالوا: معنا بعلمه، وغير ذلك يتبع هذا.

الثاني: المعية الخاصة، وهي التي تكون لأهل الطاعة، كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال جل وعلا في موسى وأخيه لما قال موسى: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٥ ـ ٤٦]، فالله جل وعلا مع موسى وأخيه دون فرعون، وكذلك قول رسولنا ﷺ لما أحاط

وقوله ﷺ: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قِبَل وجهه**»[١] ونحو ذلك، فإن هذا غلط.

به المشركون في الغار قال له أبو بكر: يا رسول الله، والله لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا. فقال ﷺ: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما!**»[٢] يعني دون هؤلاء الكفار، فهو معهم بحفظه وكلاءته ونصره وتأييده.

ولهذا فُهم من معية القسم الأول التخويف والمراقبة وهذا مقتضاها، فإذا قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني خافوا وراقبوا ربكم، واعلموا أنه لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم وأعمالكم كلها يطلع عليها. وأما الثانية؛ فمقتضاها النصر والتأييد والحفظ والكلاءة.

وأهل البدع لا يقسمون هذا التقسيم فضلوا فيها، فلا بد أن يطلب الإنسان معاني كلام الله جل وعلا، والهدى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ثم المعية لا تدل على الامتزاج والاختلاط، وإنما الخطاب جاء في اللغة العربية المعروفة، ونحن نفهم ما خوطبنا به من كلام ربنا جلا وعلا، ولا سيما إذا كان الخطاب عن رب العالمين.

وقوله: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قِبل وجهه**»، وهذا لكل واحد، فالله يكون قِبَل وجهه وهو على عرشه، وقد جاء ما هو أبلغ من هذا وهو قوله ﷺ: «**إذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٦)، ومسلم (٥٤٧)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، من حديث أنس بن مالك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد (١٧١٧٠)، والترمذي (٢٨٦٣)، من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه.

وذلك أن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة كما جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

والالتفات على معنيين كما قال العلماء:

الأول: التفات بالبدن، وهو أقلها خطراً، وهو كما قال الرسول ﷺ: «**اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم**»[١]، فلا يبطل الصلاة ولكن ينقصها، وأما التفات بجملة البدن، بحيث يجعل القبلة عن اليمين أو الشمال أو الخلف، وهذا يبطل الصلاة؛ لأن استقبال القبلة شرطٌ في صحة الصلاة.

الثاني: التفات القلب، وهو أعظم، وهو المراد هنا، فإذا التفت بقلبه وأصبح قلبه منشغلاً؛ فإن الله يعرض عنه نسأل الله العافية، وهذا واقع في أكثر صلاة المصلين، فما نحضر من صلاتنا إلا قليلاً، فتجد قلوبنا مشغولةً في أمور ما تنفعنا ولا تجدي عنا شيئاً.

والمسألة تحتاج إلى جهاد في الواقع، فإذا أراد الإنسان أن يصلي؛ فإنه يجب أن يجتهد ويجاهد الشيطان، ويجاهد نفسه، والأمر قصير، ربما عشر دقائق أو أقل فقط، فاجتهد فيها لعل الله يعينك على نفسك والشيطان.

فالمقصود أنه ينصب وجهه وهو على عرشه تعالى وتقدس فوق خلقه، فلا يقتضي هذا أنه يكون بينه وبين الحائط، أو بينه وبين القبلة، أو نحو ذلك من الأمور التي يتعالى ويتقدس عنها رب العالمين جل وعلا.

قوله: «**حقيقة**»، يخرج منه المجاز؛ لئلا يقول: إنه معنا بعلمه أو بقدرته

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء وهو معنا أينما كنا، كما قال النبي ﷺ في حديث الأوعال: «**والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه**»(١).

وذلك أن كلمة «مع» في اللغة إذا أطلقت فليس في ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين وشمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو النجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك، وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة.

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية

أو ما أشبه ذلك، فهو جل وعلا معنا، فإذا كان يسمع كلامك ويرى مكانك ولا يخفى عليه شيء، فهو معك حقيقة، ولكن لا يجوز أن نقول: معنا بذاته، أو أن نقول: إن المعية ذاتية؛ لأن هذا يُفْهِمُ باطلاً، فالكلام الذي فيه باطل لا يجوز أن نقول به، فنقول: إنه معنا حقيقة، بحيث إنه يسمعنا ويرانا ولا يخفى عليه شيء من كلامنا ومن حالنا، فمن كان بهذه الحال فهو معنا حقيقة وهو فوق عرشه تعالى وتقدس، ولهذا جمع المؤلف بينهما: «**أن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة**».

قوله: «**الأوعال**» المقصود هم حملة العرش، أي على صورة أوعال، وهي ذكور الظباء.

---

(١) تقدم تخريجه.

ومقتضاها أنه مطلع عليكم، شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم. وهذا معنى قول السلف: «إنه معهم بعلمه»، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته.

وكذلك في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] كان هذا أيضاً حقاً على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم المعية هنا مع الاطلاع النصر والتأييد.

قوله: «**ومقتضاها أنه مطلع عليكم**» يعني أن المقتضى هو المعنى وقد يختلف فيه، فمقتضى ما دل عليه الخطاب المراد به التخويف والمراقبة، أي أننا نخاف ونراقب ربنا. والمعنى هنا: أنه جل وعلا لا يخفى عليه شيء من أعمالنا، وكذلك يسمع أقوالنا، ولا يفوته شيء من ذلك.

وقد يكون الحكم هو المقتضى، ولكن في اللغة يقولون: إذا جاء مثل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] دلَّ على أنه من غير جنسه، بخلاف ما إذا قلت: ثالث ثلاثة، رابع أربعة، وهو يكون من جنسهم، أما هذا فيكون من غير جنسهم، هكذا ذكروا في اللغة أنها تختلف بهذا الاختلاف، والله ليس من جنس الذين يكون معهم، ولهذا قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وكذلك قول الرسول ﷺ: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»؛ فلا يصح أن يقال: ثالث اثنين أو ما أشبه ذلك؛ لأن هذا يكون من الجنس، هكذا في اللغة.

فالمقصود أن المعية مجرد المصاحبة في اللغة، ثم تختلف هذه المصاحبة بحسب ما أضيفتْ إليه، ولهذا ليست المعيةُ مباينةً لعلو الله جل وعلا، فجمع بينهما في آية واحدة، وبيَّن لنا أن معيتَه لا تنافي علوَّه، وعلوَّه لا ينافي معيته، وهذا خاص به تعالى وتقدس.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، وكذلك قوله لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، هنا المعية على ظاهرها، وحكمها في هذا الموطن النصر والتأييد.

وقد يدخل على صبي من يخيفه فيبكي، فيشرف عليه أبوه من

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ هذه المعية العامة الشاملة وهي لكل أحد.

وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، فهي المعية الخاصة التي تكون لأوليائه ولحزبه وأنبيائه.

وأكثر ما وردت في القرآن المعية الخاصة، وأما المعية العامة فلم تأتِ في القرآن إلا في ثلاث آيات: آية الحديد، وآية المجادلة، وآية النساء، وهي: ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [النساء: ١٠٨]، وكذلك الآية التي بعدها ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ [النساء: ١٠٧ ـ ١٠٨]، وأما البقية فكلها خاصة، وهي أكثر ما ورد في القرآن.

قوله: «**معنى المعية وبين مقتضاها**»، المقتضى هو المفهوم من الخطاب، أما مدلول الخطاب الظاهر الذي يتبادر من الخطاب.

وأحياناً يكون كلاهما مراد، فمثلاً قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤] فالمعنى هو الاطلاع والسماع والإحاطة، والمتقضى هو التخويف ومراقبة ربنا؛ لأنه يطلع علينا ويسمع كلامنا.

وكذلك في المعية الخاصة عندما قال الله لموسى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، فالمعنى الظاهر سماعه ورؤيته لموسى، ومقتضى ذلك الحفظ والتأييد والكلاءة.

فوق السقف ويقول: لا تخف، أنا معك، أو أنا حاضر ونحو ذلك، ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه، ففَرْقٌ بين معنى المعية وبين مقتضاها، وربما صار مقتضاها من معناها، فيختلف باختلاف المواضع.

فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع يقتضي في كل موضع أموراً لا يقتضيها في الموضع الآخر، فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها، وإن امتاز كل موضع بخاصية فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب مختلطة بالخلق حتى يقال: قد صرفت عن ظاهرها.

قوله: «**فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع..**» يقصد بذلك أن المعية تأتي خاصة وعامة، فيختلف مدلولها ومقتضاها بذلك، فلو كانت كلها ـ كما يقوله أهل الضلال ـ بمعنى الاختلاط والامتزاج لما صح أن يكون لها معنيان ومقتضيان، فهذا يدل على أنها اقتضت المصاحبة.

قال: «**يقتضي في كل موضع أموراً لا يقتضيها في الموضع الآخر**» يعني أنها صارت عامة وخاصة، والخاصة تدل على ما لا تدل عليه العامة، وكذلك العامة مقتضاها غير هذا، فلو كانت كما يقول هؤلاء المتكلمون أن معناها الاختلاط والامتزاج؛ لما صارت مختلفة هذا الاختلاف، وصار المعنى واحداً والمقتضى واحداً.

ومعلوم أن قوله جل وعلا: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ليس معناه هو معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

ونظيرها من بعض الوجوه الربوبية والعبودية، فإنها وإن اشتركت في أصل الربوبية والتعبيد، فلما قال: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٢] كانت ربوبية موسى وهارون لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلق، فإن من أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره: فقد ربه ورباه، وربوبيته وتربيته أكمل من غيره.

[النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وما أشبه ذلك، فهذا له معنًى ومقتضًى، وذلك له معنًى ومقتضًى، فلما اختلفت هذا الاختلاف دلت على أنه ليس معناها الاختلاط والامتزاج، إذ لوكان كذلك لصار معناها واحداً لا يختلف.

قوله: «**فقد رَبَّه**» يعني: خَلَقَه وأوجده، و«**رباه**» أي بالعلم والإيمان، وغير ذلك مما خصه عن غيره من الخلق، ولكن هذا من بعض الوجوه فقط، فالمعية أوضح من هذا وأجلى. والمعية إذا كانت خاصة؛ فإنها لا تشترك مع المعية العامة؛ لأنها خاصة بعباده المتقين وبرسله، غير أنها من ناحية هي صفة لله جل وعلا؛ فهي تدل على عظمته وكبريائه وعلوه، وارتفاعه على عرشه جل وعلا، سواء هذه وهذه.

وكذلك «**الربوبية**»، عامة فهو رب العالمين، وخاصة لبعض عباده، **فالعامة** في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي رب كل الخلق، فهو ربهم بمعنى أنه خلقهم وأوجدهم، وهو الذي يربيهم بوجودهم، وبإزالة ما يمنع حياتهم وما يحتاجون إليه من رزق وأكل وصحة وغير ذلك، وهو الذي يهب لهم ذلك ويوجده.

والخاصة كما في قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾، رب محمد، رب إبراهيم، وكما قال في الحديث: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل**

وكذلك قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٦] و﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

فإن العبد تارة يعنى به الـمُعَبد، فيعم الخلق كما في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]، وتارة يعنى به العابد فيخص، ثم يختلفون، فمن كان أعبد علماً وحالاً كانت عبوديته أكمل، فكانت الإضافة في حقه أكمل، مع أنها حقيقة في جميع المواضع.

وإسرافيل»[1]، فهذه ربوبية خاصة، ولهذا توسل بها الرسول ﷺ في تهجده ودعائه لربه جل وعلا.

فالمقصود أن هذا ليس خاصاً، فكثير من النصوص تأتي هكذا عامة وخاصة.

قوله: **«عباد الله»**، **«أسرى بعبده»** فإضافة لفظ «عبد» إلى الله جل وعلا قد تكون عبودية خاصة وقد تكون عامة.

فالخاصة هي التي تدل على الإخلاص والصدق والتعبد والتأله لله.

والعامة هي التي تدل على أن الله يقهره، وأن أحكامه تجري عليه، كما قال جل وعلا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]، يعني ذليلاً خاضعاً، وليس معنى ذلك أنه عابد متأله كالأول، ففرق بين هذا وهذا.

قوله: **«مع أنها حقيقة في جميع المواضع»** يعني أنها حقيقة أنه عبد في هذا وفي هذا، والله تعبده في هذا وهذا، والأول تعبدُ ربوبية، وهذا لا يجدي وحده، وهي أقدار تجري عليه، وهذه قد توافق المحبوب لله وقد لا توافقه.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومثل هذه الألفاظ يسميها بعض الناس مشككة لتشكيك المستمع فيها، وهل هي من قبيل الأسماء المتواطئة؟ أو من قبل المشتركة في اللفظ فقط، والمحققون يعلمون أنها ليست خارجة عن جنس المتواطئة، إذ واضع اللغة إنما وضع اللفظ بإزاء القدر المشترك، وإن كانت نوعاً مختصاً من المتواطئة، فلا بأس بتخصيصها بلفظ.

وأما الثانية فلا بد أن تضاف إليه، وهي العبادة الإلهية المتضمنة للخضوع والذل، فيوافق أمر الله ونهيه.

ومثل ذلك: ما ذكره الله جل وعلا عن المشركين أنهم يؤمنون ويكفرون، يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، ولهذا يقول المفسرون من الصحابة وغيرهم: إيمانهم إذا قلت: من خلقكم؟ قالوا: الله، وإذا قلت: من خلق السماوات؟ قالوا: الله، وكُفْرهم أنهم يشركون بالله جل وعلا، فكونهم يعرفون أن الله جل وعلا هو الذي خلقهم وخلق من قبلهم، فهذا أمر واضح وظاهر، وهو نوع من الإيمان والإقرار بالله في الجملة، ولكنه لا بد أن يُضاف إليه التأله لربه وحده ولا يَعبد غيره، ويكون التأله والعبادة بأمره واتباع رسوله ﷺ، وإلا لا ينفع.

يقول: «**الأسماء المتواطئة أو المشتركة**» هذا من اصطلاح المناطقة، وإلا فأهل اللغة العربية لا يعرفون هذا الشيء، وإن كانوا ينطقون به.

مثاله: «العين» فلان أصاب عيني، فهذا قد يراد به العين الباصرة، وقد يراد به عين الماء الجارية، وقد يراد به عين المال، فكل هذا يصدق عليه.

فلهذا قالوا: «**هذا مشكك**»، يعني إذا دلَّ اللفظ على أكثر من شيء يكون مشككاً، وإذا كانت دلالته على أشياء متعددة، ولكنها لا تختلف فهو «**متواطئ**» وكل هذا اصطلاح منطقي، واصطلاح المنطق مثل ما قال شيخ

ومن علم أن المعية تضاف إلى كل نوع من أنواع المخلوقات ـ كإضافة الربوبية مثلاً ـ وأن الاستواء على الشيء ليس إلا للعرش، وأن الله يوصف بالعلو والفوقية الحقيقية، ولا يوصف بالسفول ولا بالتحتية قط، لا حقيقة ولا مجازاً، علم أن القرآن على ما هو عليه من غير تحريف.

الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «لا يحتاجه الذكي، ولا يفيد الغبي»[(١)]، فلا فائدة فيه.

قوله: «**لا حقيقة ولا مجازاً**» هو لا يقول بالمجاز، ولكن عند خطاب الناس الذين يقولون به يتنازل معهم حتى يثبت الحق، وإلا فهو قد قرر في كتابه «الإيمان الكبير» أن المجاز ليس معروفاً في اللغة، ولا واقعاً فيها لا في أسماء الله وصفاته ولا في غيرها، وإنما هو أسلوب من أساليب اللغة العربية وهو معلوم، ولهذا ما تجد ـ لو تبحث ـ في كلام العرب من أوله إلى آخره كلمة «المجاز» على المعنى الذي اصطلح عليه هؤلاء، فكيف يتكلمون بشيء لا يذكرونه؟! فالمجاز أمر محدث، والمتأخرون بالغوا فيه، حتى ابن جني لما ألّف مؤلفاته التي أوغل فيها وصار عنده كل شيء مجازاً[(٢)]، جئت مجاز، وجلست مجاز، وأكلت مجاز، وضرب مجاز، وصار كل شيء في اللغة مجازاً!

مع أن المجاز ـ كما هو معروف ـ إما أن يكون مجاز استعارة، أو مجاز حذف، وغير ذلك من الأمور التي أبطلوا فيها كثيراً من المعاني التي أريد بها فهم المخاطب، والمخاطبون لا يحتاجون لمثل هذا.

أما احتجاجاتهم بالأمور التي جاءت في القرآن؛ فلا حجة لهم فيها، مثل كون الجدار له إرادة، مثل كون القرية تُسأل، وما أشبه ذلك، وفي

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٨٢).

(٢) انظر: «الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٤٩).

. . . .

كلام العرب أن الجدار له إرادة تليق به وتناسبه، فإذا مال فهذه إرادته للسقوط، والقرية لا تكون قرية إلا إذا كانت مأهولة مسكونة، أما إذا لم يكن فيها أحد وكان فيها حيطان خربة؛ فهذه لا يطلق عليها قرية إلا بالقيد قرية خاوية أو خالية أو خربة أو ما أشبه ذلك، فلا تسمى قرية هكذا، ولا يقول أحد من العرب: اسأل القرية الخربة، فهذا لا يمكن.

وكذلك «العير»؛ فإذا كانت مجرد جمال فقط فلا تسمى عيراً، حتى يكون معها حامل وقائد وسائق؛ فتُسأل لأنها مجموعة فقال: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢].

وكذلك ما جاء نحو هذا في كتاب الله كله لا يدل على ما قالوا، لكن قد يقال مثلاً: إن الله جل وعلا يقول في شجرة الزقوم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: ٦٥]، كيف يذكر لنا شيئاً لا نعرفه؟ هل عرفنا رؤوس الشياطين؟

نقول: المقصود التنفير والتشويه؛ لأنه وإن لم نعرفها إلا أنا نعرف أنها شر، وأنها مشوهة وخبيثة، ويكفينا هذا.

فهذا أسلوب من أساليب اللغة يعرفه المخاطبون، أما المجاز على اصطلاح المتكلمين والمتأخرين فمعناه أن اللغة فيها كذب! والقرآن فيه كذب! تعالى الله وتقدس؛ لأن المجاز إن لم يصح نفيه لا يكون مجازاً باتفاقهم؛ فمثلاً إذا قلت: رأيت أسدًا يقاتل، إن لم يصح أن تقول: ليس بأسد وإنما هو رجل فليس بمجاز، متفقون على هذا.

وفي قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]، هل يصح أن تقول: ما جاء؟ هم يريدون هذا، ويقولون: جاء أمره أو عذابه أو ما أشبه ذلك، وهذا معناه أن ظاهر الخطاب غير مراد بل كذب، تعالى الله وتقدس، فأصل الوضع لأجل

ثم من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذبٌ إن نقله عن غيره، وضالٌ إن اعتقده في ربه وما سمعنا أحداً يفهمه من اللفظ، ولا رأينا أحداً نقله عن أحد، ولو سُئل سائر المسلمين: هل تفهمون من قول الله تعالى ورسوله أن الله في السماء أن السماء تحويه؟ لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا.

إبطال صفات الله، وضعوه لهذا الشيء.

ولهذا ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لما تكلم في «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» ذكر الطواغيت أربعة، والتأويل أحدها، لأنه أبطل صفات الله وكلام الله، وانتهكت فيه محارم الله في كثير من الأشياء، وكذلك المجاز جعله طاغوتاً من الطواغيت التي صُدَّ بها عند دين الله، فيحسن أن يطالع كتابه هذا، وذكر الأدلة على ذلك.

وكذلك شيخه شيخ الإسلام في كتابه «الإيمان».

ومن آخر من وضع كتيبًا مفيداً صغيراً محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ «منع المجاز فيما أنزل للإعجاز»، وإن كان هذا قد يتصور المقصود أنه منع المجاز في القرآن فقط أما في اللغة فهو جائز، كما هو قول بعضهم، فإذا كان منع في القرآن فهو منع في اللغة، وإذا جاز في اللغة جاز في القرآن؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب.

قوله: «**من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه**»؛ يعني أن اللفظين سواء عند المسلمين، فإذا قلت: إن الله في السماء وهو على العرش لا فرق، فكلاهما واحد؛ لأن مقصوده ﴿فِي السَّمَآءِ﴾ أي في العلو، وإذا قيل: إنه في السماء، فهو فوق السماء، فلا أحد يفهم أنه داخل السماء أو أن السماء محيطة به، أو أنها تحويه تعالى

وإذا كان الأمر هكذا فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئاً محالاً لا يفهمه الناس منه، ثم يريد أن يتأوله، بل عند المسلمين أن الله في السماء وهو على العرش واحد، إذ السماء إنما يراد به العلو، فالمعنى أن الله في العلو لا في السفل، وقد علم المسلمون أن كرسيه سبحانه وسع السماوات والأرض، وأن الكرسي في العرش كحلْقة ملقاة بأرضٍ فلاة، وأن العرش خلق من مخلوقات الله لا نسبة له إلى قدرة الله وعظمته، فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقاً يحصره ويحويه.

وقد قال سبحانه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وقال تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧] بمعنى «على» ونحو ذلك، وهو كلام عربي حقيقة لا مجازاً وهذا يعلمه من عرف حقائق معاني الحروف، وأنها متواطئة في الغالب لا مشتركة.

الله وتقدس، بخلاف فَهْمِ هؤلاء، وهذا الكلام ردٌّ على المؤوّلة وعلى الذين يقولون: إن مذهب السلف هو التفويض.

قوله: «**فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقاً يحصره ويحويه**» قارن بهذا الكلام الذي يقوله الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وبين ما نقله ابن بطوطة عنه في رحلته، يقول: «وكان بدمشق من كبار فقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية، كبير الشام، يتكلم في الفنون، إلا أن في عقله شيئاً»! هكذا يقول. قال: «وحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم، فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر»[1].

هل يمكن أن يقول هذا مسلم؟ هذا كذب صريح، والكذاب يتبين كذبه

---

(١) «رحلة ابن بطوطة» (١/ ١١١ ـ ١١٢).

وكذلك قول النبي ﷺ: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قِبَل وجهه، فلا يبصق قبل وجهه**»[١]، الحديث حقٌّ على ظاهره، وهو سبحانه فوق العرش، وهو قِبل وجه المصلي، بل هذا الوصف يثبت للمخلوقات؛ فإن الإنسان لو أنه يناجي السماء ويناجي الشمس والقمر؛ لكانت السماء والشمس والقمر فوقه، وكانت أيضاً قِبَل وجهه.

وقد ضرب النبي ﷺ المثل بذلك ولله المثل الأعلى، ولكن المقصود بالتمثيل بيان جواز هذا وإمكانه، لا تشبيه الخالق

من فعله؛ لأنه أقر أنه دخل دمشق بعد سجن الشيخ بمدة، فلما دخل كان الشيخ مسجوناً بنفس التاريخ الذي ذكره هو، فنسي هو أن يذكر التاريخ ويقدمه حتى ينطلي كلامه على بعض أعداء الشيخ.

وقد فرح بهذا الكلام أعداء الشيخ وصاروا ينشرونه، وهذا الكلام مثبت في الدائرة الإنجليزية دائرة المعارف الإسلامية التي طبعها الانجليز بلغتهم، فهم يفرحون بالشيء الذي يُنَفِّر عن أهل الحق، وقصدهم الباطل لا الحق.

والمقصود هل يمكن أن يقارن بين هذا الكلام، وهذا الكلام كذب قطعاً ولا يشك فيه أحد، وبعض العلماء يقول: ابن بطوطة خيال لا وجود له، وإنما وضعت هذه الرحلة من بعض الكذابين، ولهذا تجد فيها أشياء عجيبة؛ فهو يقول رأيت أنهاراً من رمل تسير! فهل يمكن أنه يوجد أنهار من رمل تسير؟

ويقول: إنه كلما قدم مدينة تزوج ابنة ملك تلك المدينة، ويذكر أشياء ما يمكن أن تُصَدَّق بالعقل، مما يدل على أنها كذب، فالكذاب يجرؤ على

---

(١) تقدم تخريجه.

بالمخلوق، فقال النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيرى ربه مُخْلِياً به»، ....

أمور قد تخالف العقل.

قوله: «مُخْلياً» يعني خالياً يراه وحده، مع كثرة الخلق.

والخطاب في قوله: **«ما منكم»** للمؤمنين الذين استجابوا للنبي ﷺ، وهذا عند المحاسبة، فيحاسب كل واحد لوحده، وهو مثل ما جاء في حديث ابن عمر **«إن الله يضع كنفه عليه»**[1]، أي يستره فيراه ويكلمه.

وقد جاء في حديث عدي: **«ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حجاب يحجبه ولا ترجمان»**[2]، فيكلمه بنفسه تعالى وتقدس، فمعنى ذلك أنه يراه، وهذا معنى أنه يكون **«مخلياً به»**.

وجاء ما هو أعم من هذا من حديث أبي رَزين العُقيلي، فهو كان أعرابياً جريئاً يسأل الرسول عن أسئلة ما يجرأ الصحابة أن يسألوا عنها، لما قال له: **«إنكم ترون ربكم»**. قال: كيف نراه وهو شخص واحد ونحن كثيرون؟ فقال: **«أخبرك بمثل ذلك، ولله المثل الأعلى: ألست ترى القمر وحدك خالياً به؟»** قال: بلى. قال: **«الله أكبر وأعظم»**[3] هذا خلق من مخلوقات الله صغير.

وهذا كقوله في حديث جرير: **«إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»**[4]، يعني في الوضوح والجلاء، فترونه رؤية واضحة جلية ليس فيها خفاء، وإن كان الخلق كثيرين فكل واحد يراه، فالله أعظم وأكبر من كل شيء، فيجب أن يُعلم ما لله جل وعلا من عظمة، ويُقدر حق قدره، ويؤمن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٤).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٣)، (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.
(٣) تقدم تخريجه (ص١١٨).
(٤) تقدم تخريجه (ص١٦٠).

فقال له أبو رزين العُقيلي: كيف يا رسول الله، وهو واحد ونحن جميع؟ فقال النبي ﷺ: **«سأنبئك مَثَل ذلك في آلاء الله، هذا القمر كلكم يراه مخلياً به وهو آية من آيات الله، فالله أكبر»** أو كما قال النبي ﷺ[١].

به العبد على الوصف الذي وصف به نفسه؛ لأن الله تعالى تعرف إلينا بأوصافه، ولكن لا نرى ربنا جل وعلا في الدنيا، وإنما هذا سيكون يوم القيامة، يوم لا ينفع الإيمان، ففي ذلك الموقف لا ينفع الإيمان، وإنما ينفع العمل المتقدم الذي كان في الدنيا؛ لأن كل أحد يؤمن يوم القيامة ويذعن وينقاد، لكن ما يفيد.

قوله: **«وهو واحد ونحن جميع»** جاء بلفظ: هو شخص ونحن كثيرون، فمعنى ذلك أن الله يطلق عليه أنه شخص، وقد ثبت في الصحيح قول الرسول ﷺ: **«لا شخص أغير من الله»**[٢].

والأشاعرة يقولون: أجمعت الأمة على أن الله لا يجوز أن يوصف بأنه شخص[٣]، فهل يمكن أن تُجمع الأمة على خلاف قول الرسول ﷺ؟! وقائل ذلك ليس بجاهل ولا يكذب، ولكن ظن أن الأمة أجمعت؛ لأنه اعتقد هذه العقيدة فنحمله على ظنه، ونحمله على أحسن المحامل؛ لأنه من العلماء، وهذا القائل هو ابن بطال الذي شرح البخاري، وشرحه الآن مطبوع، ولو لم يطبع لما ذكرت هذا، ولكن أخشى أن أحداً يطَّلع عليه ثم يُشكل عليه؛ لأنه اعتقد أن هذا إجماعاً فقال هذا، وإلا ما يتصور أن يقول ذلك ويتعمد خلاف الرسول! ما نعتقد هذا، نحمله على أن هذا منتهى علمه أنه ظن أن هذا إجماع فقاله.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩)، من حديث المغيرة رضي الله عنه.
(٣) انظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ٤٤٢)

وقال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر**» فشبه الرؤية بالرؤية، وإن لم يكن المرئي مشابهاً للمرئي، فالمؤمنون إذا رأوا ربهم يوم القيامة وناجوه كل يراه فوقه قبل وجهه كما يرى الشمس والقمر، ولا منافاة أصلاً.

ومن كان له نصيب من المعرفة بالله والرسوخ في العلم بالله يكون إقراره بالكتاب والسنة على ما هما عليه أوكد.

قوله: «**كما ترون الشمس والقمر**» يعني كما يُرى في الجلاء والظهور، وليس هذا تشبيهاً لرب العالمين بالشمس والقمر تعالى الله وتقدس، فالله لا يُشْبهه شيء، ولكن شبهت رؤيته في كونها ترى ظاهرة جلية لا خفاء بها، بما هو أوضح شيء عندنا: الشمس والقمر.

قوله: «**ومن كان له نصيب من المعرفة بالله والرسوخ**» كلام الشيخ رحمه الله أن الإيمان والمعرفة تَتْبع فهم الكتاب والسنة، فكل من كان فهمه للقرآن على مراد الله أتم؛ كان إيمانه وعلمه بالله أكمل، وذلك أنه لا طريق إلى معرفة الله والعلم به إلا بالكتاب والسنة، وهو الذي أخبر الله جل وعلا أن الرسول ﷺ اهتدى به، فقال: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠]، فإذا كان الرسول ﷺ يهتدي بالوحي، فغيره من باب أولى أنه لا يهتدي إلا بالوحي، ويهب الله جل وعلا لمن صدق مع الله واتبع أمره إيماناً زائداً لا يسعى إليه، وهو النور الذي أخبر جل وعلا أن من آمن فإنه يعطيه نوراً، ولهذا يقولون: إن العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء، وليس معنى ذلك أن الإنسان يتَّكل على هذا، بل لا بد من التعلم والسعي لذلك، ولكن لا يكفي مجرد ذلك، ولهذا في الأبيات التي تنسب إلى الشافعي رحمه الله يقول:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلمْ بأنَّ العلم نور ... ونور الله لا يؤتاه عاصي

. . . .

فهذا متقرر عند السلف وعند أهل العلم والتقى، فيعلمون ذلك تماماً، وذلك أن الله جل وعلا هو الذي يتصرف في عباده، فمن علِم من نيته وقصده وفعله أنه يريد الحق فإنه يوفقه لذلك ويهديه، ويعطيه فوق ما يؤمل.

فالمقصود أن الحق في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، وليس في أقوال المتكلمين أو في العقول، ومن وُكل إلى عقله ضاع وضل، فما يستطيع أن يهتدي.



واعلم أن من المتأخرين من يقول: مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد، وهذا لفظ مجمل، فإن قوله: ظاهرها غير مراد. يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدَثين، مثل أن يراد بكون الله «قِبَل وجه المصلي»[1] أنه مستقر في الحائط الذي يصلي إليه، وأن «الله معنا» ظاهره أنه إلى جانبنا، ونحو ذلك، فلا شك أن هذا غير مراد.

ومن قال: إن مذهب السلف أن هذا غير مراد، فقد أصاب في المعنى، لكن أخطأ في إطلاق القول بأن هذا هو ظاهر الآيات والأحاديث، فإن هذا هو المحال ليس هو الأظهر على ما قد بيناه

قوله: «**واعلم أن من المتأخرين من يقول..**» مثل ما تقدم من كلام الجويني رَحِمَهُ اللهُ أن «**مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد**»، وهذا تناقض! فكيف تُمَر على ظاهرها وظاهرها غير مراد؟ نُمِرُّ شيئاً لا نعرفه ولا نعلم معناه!

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ يريد أن يأتي بكل احتمال، حتى لا يبقي لمبطل مقالاً، فيقول: «**وهذا لفظ مجمل**»، أي يجوز أن يراد به حق، ويجوز أن يراد به باطل، ولكن الحق الذي يراد به بعيد.

قوله: «**يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدَثين**» المحدِث غير المحدَث، المحدَث المخلوق، وصفات المحدَثين يعني المخلوقين، وهل يكون ظاهر صفة الله هي صفات المخلوقين؟ هذا لا يكون.

و«**النعوت**»: الصفات.

قوله: «**إن مذهب السلف أن هذا غير مراد**» وهو خطأ، «**فقد أصاب في**

---

(١) تقدم تخريجه.

في غير هذا الموضع، اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس، فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار، معذوراً في هذا الإطلاق.

فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس وهو من الأمور النسبية، وكان أحسن من هذا أن يبين لمن اعتقد أن هذا هو الظاهر أن هذا ليس هو الظاهر، حتى يكون أعطى كلام الله وكلام رسوله حقه لفظاً ومعنى.

وإن كان الناقل عن السلف أراد بقوله: الظاهر غير مراد عندهم؛ أن المعاني التي ظهرت من هذه الآيات والأحاديث مما يليق بجلال الله وعظمته، لا يختص بصفة المخلوقين، بل هي واجبة لله، أو

المعنى» أي أنه مصيب في النفي؛ لأنه نفى شيئاً باطلاً عن الله جل وعلا، ويكون اجتهد في هذا، وهو مخطئ على كل حال في ذلك، لأن فهم النصوص على هذا الوضع فهم خطأ.

قوله: «**وهو من الأمور النسبية**» يعني بالنسبة للناس، فقد يكون النص ظاهراً لبعضهم ويكون خفياً لبعضهم، وهذا الظهور والخفاء بحسب العلم باللغة والعلم بخطاب المخاطب، فإذا كان الإنسان جاهلاً باللغة وبالخطاب، ثم يقول: هذا الظاهر أو النص على الاصطلاح الذي عرفه وتلقاه؛ يكون فعله خطأ وليس صواباً، والواجب أن يبحث عن المعاني من كتاب الله، وفي لغة العرب التي نزل بها القرآن، ويتفهمها كما ينبغي.

قوله: «**بل هي واجبة لله**» قصده بالوجوب: الشيء الذي ثبت لله قطعاً لذاته وكماله. أما «**الجائز**»: فهو الذي يجوز أن يكون هذا ويجوز أن يكون خلافه، وهذا الشيء ما أخبر الله جل وعلا به وما أخبر به الرسول.

جائزة عليه جوازاً ذهنياً، أو جوازاً خارجياً غير مراد، فقد أخطأ فيما نقله عن السلف، أو تعمد الكذب. فما يمكن أحد قط أن ينقل عن عن واحد من السلف ما يدل لا نصّاً ولا ظاهراً أنهم كانوا يعتقدون أن الله ليس فوق العرش، ولا أن الله ليس له سمع وبصر ويد حقيقة.

وقد رأيت هذا المعنى ينتحله بعض من يحكيه عن السلف، ويقول: إن طريقة أهل التأويل هي في الحقيقة طريقة السلف، بمعنى أن الفريقين اتفقوا على أن هذه الآيات والأحاديث لم تدل على صفات الله سبحانه، ولكن السلف أمسكوا عن تأويلها، والمتأخرون رأوا المصلحة في تأويلها لمسيس الحاجة إلى ذلك ويقول: الفرق

أما قوله: «**جوازاً ذهنياً**»، يعني يتصوره الذهن.

قوله: «**أو جوازه خارجياً**»، فأن يتصف به خارجياً، يعني: يكون متصفاً به حقيقة، وكل هذا من باب التقديرات فقط، وإلا لا يجوز أن يوصف الله جل وعلا إلا بما وصف به نفسه، فمثلاً كونه لا تأخذه سنة ولا نوم واجب. ثم الوجوب معناه لزوم الشيء لذاته، فما اكتسبه من شيء آخر، فهو الحي وله الحياة الكاملة، ولا يتطرق إليه نوم ولا مبادئه، بل إذا حصلت الحياة الكاملة للمخلوق فلا ينام، ولما سئل الرسول ﷺ هل ينام أهل الجنة؟ قال: «**لا، النوم أخو الموت**»[1].

أما التقديرات الذهنية، فلا حصر لها على حسب عقيدة الإنسان يتصور شيئاً ويجوزه، أما خارجياً، يعني كون الفعل متصفاً به، فهذا لا وجود له إذا كان خلاف الذي يكون فيه إثبات الكمال، فلله الكمال المطلق من كل وجه.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩١٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤١٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

أن هؤلاء يعينون المراد بالتأويل، وأولئك لا يعينون لجواز أن يراد غيره.

وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف: أما في كثير من الصفات، فقطعاً مثل أن الله فوق العرش.

فإن من تأمل كلام السلف المنقول عنهم الذي لم يحك هنا عشره علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة، وأنهم ما اعتقدوا خلاف هذا قط، وكثير منهم قد صرح في كثير من الصفات بمثل ذلك.

والله يعلم أني بعد البحث التام، ومطالعة ما أمكن من كلام السلف، ما رأيت كلام أحد منهم يدل لا نصّاً ولا ظاهراً، ولا بالقرائن ـ على نفي الصفات الخبرية في نفس الأمر؛ بل الذي رأيته أن كثيراً من كلامهم يدل إما نصاً، وإما ظاهراً على تقرير جنس هذه الصفات، ....

قوله: «**وأولئك لا يعينون**» يعني السلف، «**لجواز أن يراد به غيره**»، أما الخلف فصاروا أعلم وأحكم من السلف؛ لأنهم عينوا المراد، وصاروا أحكم بالأمور وردوا على المشبهة وغيرهم، أما السلف فما ردوا عليهم، وهذا هو الذي سبق أنه مركب من مقدمتين كفريتين كاذبتين:

الأولى: استجهال السلف.

والثانية: ظنهم الظن الكاذب، أن هذه النصوص تدل على التشبيه، وعلى ما يتعالى الله عنه، فلهذا صرفت عن الظاهر.

قوله: «**أما في كثير من الصفات فقطعاً**» أنه كذب، وبعضها من غير قطع أنه كذب؛ لأن بعض الناس لا يفهم ذلك أنه كنصوص العلو والاستواء، وإلا فكلها قطعاً كذب، ولكن بالنسبة لبعض الناس ليس قطعاً.

ولا أنقل عن كل واحد منهم إثبات كل صفة، بل الذي رأيته أنهم يثبتون جنسها في الجملة؛ وما رأيت أحداً منهم نفاها، وإنما ينفون التشبيه، وينكرون على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، مع إنكارهم على من نفى الصفات، كقول نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً».

وكانوا إذا رأوا الرجل قد أغرق في نفي التشبيه من غير إثبات الصفات قالوا: جهمي مُعَطِّل؛ وهذا كثير جداً في كلامهم، فإن الجهمية والمعتزلة إلى اليوم يسمون من أثبت شيئاً من الصفات مشبهاً، كذباً منهم وافتراء حتى إن منهم من غلا ورمى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك، حتى قال ثُمَامة بن أشرس من

قوله: «**ولا أنقل عن كل واحد منهم إثبات كل صفة..**» يعني إذا أراد أن يثبت كل صفة بعينها عن السلف قد لا يجده، ولكنهم أثبتوا جنسها، ومعروف أن بعضها يكفي عن بعض، فما نقل عنهم: السمع نثبته، البصر نثبته، وهكذا خطاب الله جل وعلا يأتي مجملاً غالباً بالنسبة للأحكام، أما هذه فجاء مفصلاً، فإن الله يثبت له السمع، ويثبت له البصر، ويثبت له العلم، ويثبت له الإرادة، فهذه تكفينا، أما كوننا لا بد أن نجد أن السلف يثبتون هذه الأشياء التي أثبتها، فنقول: إن السلف لا يخالفون القرآن، بل قالوا به، ولهذا ما تكلموا في هذا لظهوره ووضوحه، ووجوده في كلام الله.

ونعيم بن حماد لم ينفرد بهذا القول، هذا قوله وقول أكثر السلف، ولكن نعيم بن حماد رَحِمَهُ اللهُ بُلي بالجهمية ولهذا قتلوه، وهو الذي قتل بالمحنة وغيره من أهل السنة الذين ثبتوا على الحق، فنقول: إن هذا أمر واضح ولا يحتاج إلى المجادلات، لأنه لو جئته بكل آية وهو معتنق هذا المذهب لا يتبعك إلا أن يشاء الله.

رؤساء الجهمية: ثلاثة من الأنبياء مشبهة، موسى حيث قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وعيسى حيث قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ومحمد حيث قال: «**ينزل ربنا**».

وحتى إن جُلَّ المعتزلة تُدخِلُ عامة الأئمة مثل: مالك وأصحابه والثوري وأصحابه، والأوزاعي وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد وغيرهم، في قسم المشبهة.

قوله: «**جل المعتزلة تُدخل عامة الأئمة في قسم المشبهة**» رمي الناس بما ليس فيهم هو شأن أهل البدع من قديم الزمان إلى اليوم، وقد يفترون عليهم الكذب الظاهر الجلي الذي لا يُصدق، فإذا كان مثل هؤلاء يجترئون على الأنبياء ويقولون هذا القول: إن الأنبياء مشبهة، فكيف بآحاد الناس؟

ثم إن الرسول ﷺ قد واجه من الناس مواجهات شتى، حتى رُمي بالجنون وأنه صابئ وأنه شاذ.. إلخ، ولا بد أن يكون لأتباعه إرثٌ مما ناله، وهذا لا يضير الحق ولا أهل الحق شيئاً، وإنما يضر أصحابه، ولكن هذا يدلنا على إغراقهم في التمسك بالباطل، وأنهم لا يقبلون الحق، وإلا كيف تكون الأنبياء مشبهة؟

نرى أن مثل هذا مشكوك في إسلامه أصلاً، فهو يقبل عن الله وعن رسوله ﷺ ما وافق هواه، وقد عرفنا أن جُلَّ أهل البدع يرون أن ظواهر النصوص تشبيه، فهذا ليس بعيداً، فإذا كان يرون أنها تشبيه مثل العلو والاستواء واليد والوجه، فليس بعيداً أن يقول الإنسان مثل هذا القول.

ثم أمر ثالث يدلنا على أن الإنسان إذا انصرف عن الحق فإنه لا حيلة في هدايته إلا أن يشاء الله جل وعلا، ولذلك أخبر الله جل وعلا عن مثل هؤلاء؛ أنك لو أتيتهم بكل آية ما آمنوا، حتى أخبرنا ربنا جل وعلا عن

. . . .

الكافرين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، ثم أخبر بعد ذلك أنهم كذبة: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فهذا يدل على أنهم لا يمكن أن يتزعزعوا عما هم عليه، وهذا كله بمشيئة الله، ولكن في هذه الدنيا، بل وفي الآخرة هم على ما هم عليه، فلا حيلة في مجادلتهم، وإنما اللجوء إلى الله في ذلك أن يستهدي الإنسان ربَّه الذي يهديه إلى الحق، وإلا فالحق واضح، والباطل لا يشتبه بالحق.

وبمثل هذا عرف الناس صفة أهل البدع؛ أنهم يتمسكون ببدعهم ويُعرضون عن الأدلة الواضحة الجلية من كتاب الله ومن سنة رسوله، فلا يمكن لعاقل يؤمن بالله أن يقدم رأيه وعقله على قول الله وقول رسوله ﷺ، غير أنك لو جادلتهم في هذا لقالوا: كتاب الله معنا وليس معك! فأنت مع التشبيه، وأن الذي تقوله يدل على التشبيه، ونحن ننزه ربَّنا أن يكون شبيهاً لخلقه، والقواعد التي وضعوها صارت حائلاً بينهم وبين الاهتداء، وهذا من عقوبة الله جل وعلا؛ لأن أعظم العقوبة للإنسان أن يستمر على الباطل، ولا يهتدي بالهدى الواضح الجلي.

وتسمية الناس بذكر أشخاصهم لا فائدة فيه، ولكن الإنسان يعتبر، حدثني أحد الناس الذين قد تتلمذ على بعض أهل البدع، يقول: إنه قيل لشيخه: لماذا المبالغة في ذم ابن تيمية ومحاربته، فإنا نرجو أن الله يجمعك معه في الجنة؟ فقال: الجنة التي يكون فيها ابن تيمية لا أريدها!!

هل يقول هذا عاقل؟ هل يقوله من يرجو لقاء الله جل وعلا؟ إغراقٌ في العداء؛ لأنه خالف المذهب فقط، وإلا بينه وبينه زمان طويل لم يلاقِهِ ولم يكلمه، فهذه موعظة يتعظ بها الإنسان ويعلم أنه لا يملك أن يهتدي، فإنما الهداية بيد الله جل وعلا.

وقد صنف أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن درباس الشافعي جزءً أسماه: «تنزيه الشريعة عن الألقاب الشنيعة»، وذكر فيه كلام السلف وغيرهم من معاني هذه الألقاب، وذكر أن أهل البدع كل صنف منهم يلقب أهل السنة بلقب افتراه، يزعم أنه صحيح على رأيه

فقوله: «**حتى إن جل المعتزلة تدخل عامة الأئمة مثل مالك وأصحابه، والثوري وأصحابه، وأحمد، والشافعي...**»، هذا شيء معروف، حتى إن منهم من ذكر عنه أشياء قد لا يستطيع الإنسان حكايتها، مثل: حديث ابن مسعود أن أحدهم رده رداً صريحاً، فقيل له: إنه صحيح السند، فقال: لو سمعت ابن مسعود يقول كذا لرددت عليه!! ولو سمعت الرسول ﷺ يقول كذا لقلت: ليس هذا الذي دلنا عليه!! ولو سمعت جبريل يقول كذا لقلت: ليس هذا الذي بيننا وبين ربنا!!

لهذا إذا أمرنا الله جل وعلا أن نفعل شيئاً؛ فإنه يجب أن نفعله، وإذا أمرنا أن نطوف على حجر يجب أن نطوف عليه، وإذا أمرنا أن نستقبل جهة من الجهات وجب علينا ذلك، ولهذا نحن نطوف على الكعبة لا أننا نعبدها، بل طاعةً لله جل وعلا، وكذلك الملائكة سجدوا لآدم ليس عبادة لآدم، وإنما هو طاعة لله جل وعلا حينما أمرهم.

فالعبد يجب أن يكون مؤتَمِراً بأمر سيده مهما كان، ولا يكون متأبياً ويقول: لازم يكون كذا، ولا أريد كذا! ولهذا تجد الناس الذين يتتبعون الأمور ويقيسونها على عقولهم تجدهم عصاة، وقد يكونون بعيدين عن الطاعة، والإسلام فيه جملة كبيرة لا دخل للعقل فيها من باب الابتلاء والامتحان، وهو الذي قال فيه الفقهاء: هذا تعبدي، يعني: أمر لا تعرف علته، وإلا لو كان الإنسان يقيس كل شيء بعقله وبنظره، لما قبل ما جاء به الرسول ﷺ جملة.

قوله: «**وذكر أن أهل البدع كل صنف منهم يلقب أهل السنة بلقب افتراه**»

الفاسد، كما أن المشركين كانوا يلقبون النبي ﷺ بألقاب افتروها، فالروافض تسميهم نواصب، والقدرية يسمونهم مُجْبرة، والمرجئة يسمونهم شُكاكاً، والجهمية تسميهم مشبهة، وأهل الكلام يسمونهم حشوية ونَوَابت، وغثاءً، وغثراً، إلى أمثال ذلك، ....

اللقب يدل على التنقص، والكنية تدل على الرفعة والإكرام، ولهذا يقول الشاعر:

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه فالسَّوْءة اللقب[1]

فهؤلاء يلقبون أهل السنة بألقابٍ يشنعون بها عليهم، ولا يضرهم ذلك، وسبق أن ذكرت بعض ألقابهم، حتى إنهم يأخذونها من النصوص، فيسمون أهل السنة «الأينية»، يعني أنهم يقولون: «أين الله»، ويسمونهم أيضاً «المكانية».

قوله: «**المُجْبرة**» وهم الذين يقولون: إن العبد مجبور على فعله، مع أن هؤلاء الذين يقولون بالجبر هم القدرية أنفسهم، وهم قسم منهم.

أما «**النواصب**» فهم الذين نصبوا العداء لآل البيت، فهل أهل السنة نصبوا العداء لآل البيت؟ على زعم الروافض أن أهل السنة هم الذين تولوا أهل البيت وأكرموهم وعظموهم، أما ما يقع من الفساق شيء من العداء، فهذا لا تخلو منه طائفة.

قوله: «**شُكاكاً**» السبب في تسميتهم؛ لأنهم يستثنون في الإيمان، يقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله، فسموهم شُكاكاً لذلك، وهذا من قِبل المرجئة الذين يقولون: إيمان فساق المؤمنين وفجارهم مثل إيمان جبريل!

قال: «**والجهمية**» الجهمية إذا جاءت مطلقة؛ فهي تشمل كل من نفى

---

(١) ينسب لبعض الفزاريين، كما في «شرح المرزوقي على الحماسة» (ص١١٤٦).

كما كانت قريش تسمي النبي ﷺ تارة مجنوناً، وتارة شاعراً، وتارة كاهناً، وتارة مفترياً.

الصفات، فيدخل فيهم الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة وغيرهم، وقد صار الآن الرافضة معتزلة، وكذلك الإباضية، ولكن المذهب الآن غير معروف كالاسم السابق، فعقيدتهم موجودة ولكن التسمية زالت.

قوله: «**حشوية**»، الحشو هو الشيء الذي لا فائدة فيه. و«**النوابت**» التي تنبت في الزرع ويجب أن ينزه الزرع منها وإلا تصير على حساب الزرع، فهم يقولون: يحشون البلاد بلا فائدة، ونوابت لا فائدة فيهم، وإنما هم يضيقون الديار ويغلون الأسعار فقط، هذا قولهم لأهل السنة. والغالب أن الذي يعيب الناس ويلقبهم هو أولى بألقابه من غيره، ولو تأملت لوجدت أن هذا فيه.

قوله: «**كما كانت قريش تسمي النبي ﷺ..**» فتلقبه تارة صابئاً، وتارة أنه شاذ، وتارة يقولون: إنه صنبور قطَّع أرحامنا، تبعه سراق الحجيج من غفار، وهذا لا عيب فيه، فكون الإنسان يُلَقَّب بالألقاب التي تصدر من أهل البدع لأنها ليست فيه، كما ترون الآن الكفار يصورون صوراً ويزعمون أنها الرسول ﷺ، مع أن الرسول ﷺ لما كانوا يسبونه يقولون: مذمماً، يقول: «**ألا تعتبروا! انظروا كيف يصرف الله جل وعلا عني سبهم وكلامهم؟ يسبون مذمماً وأنا محمد**»[1]، فهم يسبون غيره، فكذلك هؤلاء الكفرة يتصورون شيئاً، فيسبون ذلك الشيء، وليس هذا هو رسول الله ﷺ، وإنما هو خلاف ذلك، ولكن الذين يؤذون رسول الله أعظم من هؤلاء الذين يصورون هذه الصور، فالذين يسبون أصحابه ويسبون أزواجه أعظمُ أذيةً لرسول الله ﷺ من أولئك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قالوا: وهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة، فإن السنة هي ما كان عليه رسول الله ﷺ اعتقاداً واقتصاداً وقولاً وعملاً، فكما أن المنحرفين عنه يسمونه بأسماء مذمومة مكذوبة ـ وإن اعتقدوا صدقها بناء على عقيدتهم الفاسدة، فكذلك التابعون له على بصيرة الذين هم أولى الناس به في المحيا والممات، باطناً وظاهراً.

قوله: «**علامة الإرث الصحيح**» فكون أهل البدع يوجهون لهم هذه الألقاب والسب؛ لأنهم ورثوا الرسول ﷺ، فالرسول كان يوجه إليه من قِبَل الكفار هذه الأشياء أو قريباً منها.

وليس كلهم يرون أن أهل السنة على ضلال ومشبهة ولا فائدة في وجودهم، ولكن أكثرهم على هذا الشيء، ولاسيما كبارهم وأئمتهم، أما كثير من أتباع هؤلاء فأحسنوا الظن بهم، وظنوا أن هذا هو الحق، فاتبعوهم على هذا، وهذا لا يدفع عنهم ولا يفيدهم، ولكن يكون أخف من أولئك؛ لأن الله جل وعلا أعطى للإنسان عقلاً وفكراً، ولم يكلف أحداً أن يتبع أحداً إلا الرسول ﷺ، فإذا جاءك إنسان بأمر من الأمور فإنه يجب عليك أن تنظر بعقلك وتبحث وتسبر، ولا تأخذ الأمر هكذا وتتبعه وتُعمي عينيك وفكرك وتتبعه، فإن هذا لا يجوز، وهذا التقليد الأعمى الذي يكون صاحبه ملوماً.

ولهذا ذكر الله جل وعلا عن هؤلاء الذين يتبعون الكفار والضلال أنهم إذا كان يوم القيامة فإنهم يتبرؤون منهم، ويقولون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] ما يفيدهم هذا، ما كلفتم أن تطيعوا سادتكم وكبراءكم، ولكن كلفتم أن تطيعوا رسول الله ﷺ، فهل جاؤوكم بالدليل أن هذا قول الرسول؟ أبداً ما يكون هذا، ولهذا يعودون عليهم باللوم واللعن: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٨]؛ لأنه يتبين لهم هناك أنهم هم سبب ضلالهم، فلا فائدة في

وأما الذين وافقوا ببواطنهم وعجزوا عن إقامة الظواهر، والذين وافقوه بظواهرهم وعجزوا عن تحقيق البواطن، أو الذين وافقوه ظاهراً وباطناً بحسب الإمكان: لا بد للمنحرفين عن سنته أن يعتقدوا فيها نقصاً يذمونهم به، ....

اللوم، كل واحد يلوم الآخر ويلعن الآخر.

وهذا من معاني قول الله جل وعلا: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، الخبيث يجعل في جهنم، يعني الحسرات والندمات وتحسّر القلوب، وكذلك عذاب الأبدان كله يجمع في النار، عذاب النفس وعذاب البدن يجتمع عليه، ولهذا أخبرنا جل وعلا أن ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾، يعني مغلقة بأبواب ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ عمد حديد مما لو اجتمع الثقلان ليرفعوا العمود ما استطاعوا، وهذا تنكيلاً لهم حتى يكون عذابهم في أبدانهم ونفوسهم، والعذاب كله يجمع في جهنم، نسأل الله العافية.

وكذلك الأمور المؤذية كلها تجمع في النار الحيّات والعقارب، وجاء في حديث الله أعلم بصحته: «**الذباب في النار**»[1]، إذا صح الحديث معنى ذلك أنه مؤذٍ، وكل مؤذٍ يكون في النار فإنه يؤذي أهل النار.

يقول: «**وأما الذين وافقوا ببواطنهم وعجزوا عن إقامة الظواهر**» يعني: مثل هؤلاء قد يكون لهم شيء من العذر؛ لأنهم حاولوا أن يطبقوا بواطنهم مع ظواهر النصوص، فإذا عجزوا فالعاجز يعذر إذا بذل الجهد.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٩٤١٥)، من حديث ابن عمر مرفوعاً.
قال الحافظ ابن حجر: «أخرج أبو يعلى، عن ابن عمر مرفوعاً: «عمر الذباب أربعون ليلة، والذباب كله في النار، إلا النحل»، وسنده لا بأس به، وأخرجه ابن عدي دون أوله من وجه آخر ضعيف». «فتح الباري» (١٠/ ٢٥٠).

ويسمونهم بأسماء مكذوبة وإن اعتقدوا صدقها، كقول الرافضي: من لم يبغض أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً، لأنه لا ولاية لعلي إلا بالبراءة منهما. ثم يجعل من أحب أبا بكر وعمر ناصبياً، بناءً على هذه الملازمة الباطلة، التي اعتقدوها صحيحة، أو عاندوا فيها وهو الغالب.

وكقول القدري: من اعتقد أن الله أراد الكائنات وخَلَق أفعال العباد، فقد سلب العباد القدرة والاختيار، وجعلهم مجبورين كالجمادات التي لا إرادة لها ولا قدرة.

قوله: «**ويسمونهم بأسماء مكذوبة**» مثل ذلك: المتكلمون الذين يجعلون إثبات اليد والوجه تشبيهاً، فإذا رأوا من يثبت ذلك سموه مشبهاً، بناء على هذه الملازمة بزعمهم وهذا كثير. ولهذا كثر ذكر المشبهة في كتبهم، ولو طلب إنسان طائفة بعينها ما يجد مَنْ تسمى بالمشبهة، ولا تجد لهم كتباً مخصصةً أو رجلاً بعينه له أتباع يقال: هؤلاء المشبهة، وإنما صار التشبيه فقط إذا اعتقد معتقدٌ أن هذا القول تشبيه، وسمع قائلاً يقول به رماه بالتشبيه، ولهذا صار التشبيه نسبياً، فتجد الجهمي يسمي المعتزلي مشبهاً، والمعتزلي يسمي الأشعري مشبهاً، والأشعري يسمي أهل السنة مشبهة وهكذا، كله بناءً على الظن الكاذب.

قوله: «**لأنه لا ولاية لعلي إلا بالبراءة منهما**» لأنهم يقولون: لا ولاء إلا بالبراء، ثم أبو بكر وعلي إخوانٌ لم يحدث بينهم أي شيء يدعو إلى التقاطع أو البغض أو الظلم، وكلها أمور أحدثها لهم شياطينهم، فألزموهم بها، وصارت عقيدة راسخة في أذهانهم، من كثرة الافتراء الذي يفترونه عليهم، ويجعلونه ديناً.

قوله: «**وجعلهم مجبورين كالجمادات التي لا إرادة لها ولا قدرة**» هذا من الباطل، والله جل وعلا ما أجبر أحداً، والإجبار يأتي من باب النقص،

. . . .

ولهذا امتنع أهل السنة من إطلاق لفظة «جبر» على الله جل وعلا، بل قالوا: إن الله يجبل ويفطر خلقه، أما يجبُر فلا.

وإنما يذكر الفقهاء في كتب الفقه يقول: هل للأب أن يجبِر ابنته البكر على الزواج؟ ثم يختلفون في هذا؛ لأنه لا اختيار لها إذا أجبرت، والصحيح أنه ليس له إجبارها؛ لأن الأمر إليها، فيجب أن تختار هي، ولكن يُذكر لها الشيء الذي فيه المصلحة.

المقصود أن «الجبر» كلمة باطلة، ولهذا إذا قال الإنسان: هل هو مجبور أو أنه حر؟ أو هل هو مُسير أو مخير؟

نقول: هذا كلام مجمل لا يجوز إطلاقه، يجب أن يُفصل، فالإنسان لا مُسير ولا مخير، بل هو عبدٌ لله جل وعلا، يجب أن يَمْتثل أمر ربه، وما جُبر على شيء، بل الله جل وعلا أمره بأوامر محددة وواضحة وسهلة وميسورة، وبإمكانه أن يفعلها بكل سهولة، فإذا امتنع؛ فبقدرته وإرادته، ولا أحد يجبره على هذا.

أما أن يتصور أن القدر السابق يجبر على ذلك؛ فهذا غير صحيح، وتصور باطل، وذلك أن القدر السابق والكتابة السابقة إنما هي عبارة عن علم الله فيك، فعلم الله في هذا المخلوق أنه يعمل أعمالاً، فكتب علمه أنه سيوجد ويفعل أفعاله باختياره وقدرته، فكتبها جل وعلا، فهو زيادة علم. ثم نفس العبد ما يدري ما كُتب له، فهو يفعل الشيء الذي يفعله باختياره بدون علمه أن هذا مكتوب أو غير مكتوب، ولا يعلم أنه مكتوب حتى يقع، فكيف يكون مجبوراً؟! لا يمكن، وإذا تأمل العاقل عرف أن هذا باطل.

ثم هو غير مجبور ومقهور على شيء معين، بل قيل له: هذا الحق وهذا الباطل، فإن شئت آمن، وإن شئت اكفر، ومرجعك إلى الله، ولن

وكقول الجهمي: من قال: إن الله فوق العرش، فقد زعم أنه محصور، وأنه جسم مركب وأنه مشابه لخلقه.

تُعجز الله جل وعلا، فجُعل الأمر إليه مع خلق القدرة والاستطاعة والاختيار، وإذا وجدت القدرة والإرادة، فلا بد أن يوجد المراد.

وكذلك ليس مخيراً، يعني: أنه يفعل ما يختار، بل هو مقيد بأوامر الله، وهناك حدود حدَّها الله لا يجوز له أن يتعداها، ولا يجوز له أن ينتهك المحارم التي حرمها الله جل وعلا، فهو غير مخير، بل عبد مُقيَّد بأوامر الله جل وعلا، ويجب أن يتقيد بها.

فهذه الكلمة التي تطلق من كثير من الناس: هل العبد مسير أو مخير؟ نقول: إطلاق لا يجوز ولا يصح، ويجب أن يفصل.

وكل هذا الكلام لو قدمته لمن اعتنق هذه الأمور فإنه لا يقتنع، وإلا فكلام الله أبلغ من ذلك وأوضح وأجلى، وكذلك كلام الرسول ﷺ، ولكن الرسول كان يخاطب أناساً يفهمون تمام الفهم، ولهذا لما كان ﷺ عند قبرٍ يُلحد ونظر إليه قال: **«ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده في الجنة أو في النار»**. فقال قائل من الصحابة: ألا نتكل على كتاباتنا؟ قال: **«لا، اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لِما خلق له»**[1] اكتفوا بهذه الكلمة، وعرفوا أن هذا يدل على الاجتهاد في العمل؛ لأنه ليس المراد أن يكون الإنسان بنفس الكتابة من أهل النار أو من أهل الجنة، وإنما يكون بالعمل، فهو ييسر لما كتب له، بالعمل الذي يعمله، وجاء تفصيل ذلك كثيراً في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، لمن يتأمله ويعرف مواقع الخطاب.

قوله: «**فقد زعم انه محصور..**» المحصور والجسم والمركب والمشابهة كلها تعود إلى رب العالمين في كلام هذا المُضِل تعالى الله عن ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧)، من حديث علي رضي الله عنه.

وكقول الجهمية المعتزلة: من قال: إن لله علماً وقدرة، فقد زعم أنه جسم مركب وهو مشبه، لأن هذه الصفات أعراض، والعَرَض لا يقوم إلا بجوهر متحيز، ....

فـ«**الجسم**» اختلفوا فيه كثيراً كما سبقت الإشارة إليه، ولا يجوز وصف الله جل وعلا بأنه جسم، وكذلك لا يجوز أن يوصف بأنه «**مركب**»؛ لأنه أحد صمد تعالى وتقدس، ولا «**أنه مشابه لخلقه**»؛ لأنه يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ولكن هؤلاء مثل ما قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «نحكي قول اليهود والنصارى» يعني في الله «ولا نستطيع أن نحكي قول هؤلاء الجهمية»[(١)]؛ لأن عندهم من عدم المبالاة وعدم تقدير الله الشيء الذي لم يوجد عند أحد، وقد جاء بعدهم من هو أشر منهم.

قول الجهمية والمعتزلة: «**من قال: إن لله علماً وقدرة، فقد زعم أنه جسم مركب وهو مشبه**»؛ لأنهم لا يعرفون هذا إلا من أنفسهم، فالذي عنده علم وقدرة يكون جسماً مركباً؛ لأنهم يعرفون قدرتهم وعلمهم، فهو كذلك.

قولهم: «**الصفات أعراض، والعرض لا يقوم إلا بجوهر..**» يقولون: العلم عرض، والعرض لا يقوم إلا بجسم، وبنوا إيمانهم على هذا، وعندهم أن الذي لا يعرف العرض والجوهر ليس بمسلم، فهذه مصيبة. لكن هؤلاء لا عبرة فيهم، فهم شرذمة شذوا في عقولهم وفي أفكارهم وفي دينهم، وتركوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، غير أنهم صاروا شراً عريضاً في الناس، شغلوهم بالمجادلة وشغلوهم في بيان مذهبهم خوفاً من عوام المسلمين أو الذين لم يفهموا هذا المذهب أن يقعوا في حبائلهم.

قولهم: «**والعَرض لا يقوم إلا بجوهر**» الجوهر: ما قام بنفسه وشغل

---

(١) «الشريعة» للآجري (١/ ٢٧٣)، «الإبانة» لابن بطة (٣/ ١٣٩).

وكل متحيز فجسم مركب، أو جوهر فرد، ومن قال ذلك فهو مشبه، لأن الأجسام متماثلة.

مكاناً، ويمكن أن تشاهده قائماً بنفسه، أما العرض فهو الذي لا يقوم إلا بغيره، مثل الصحة والمرض والعلم والجهل، وهكذا الألوان فلا يمكن أن تجد لوناً قائماً بنفسه، كالسواد والبياض وغير ذلك فلا بد أن يكون بجسم.

ويقولون: كل المخلوقات انحصرت في هذا، فلا يجوز أن يكون الله عرضاً أو جوهراً، ومعنى ذلك أنه لا يجوز أن يقوم بنفسه، ثم بناءً على ذلك لا يجوز أن يكون في مكان، ولا يجوز أن يكون مستوياً على العرش، وكل هذا بناء على هذه القاعدة الباطلة أو ما يسمونه برهاناً، فهم ما عرفوا الله جل وعلا بأسمائه وصفاته، وإنما تعرفوا إليه بما دلتهم عقولهم عليه، وعقولهم قاصرة ولم تدل إلا على الباطل.

قولهم: «**وكل متحيز فجسم مركب، أو جوهر فرد**» المتحيز الذي تميز عن غيره وقام بنفسه، فكل من تميز عن غيره فهو متحيز، والحيز هو المكان، وحاز فلان كذا أو حازه البيت أو حازه المكان يعني حواه، ولهذا لا يجوز أن يطلق الحيز على الله جل وعلا بهذه المعاني الفاسدة، فهذا اصطلاح اصطلحوا عليه.

قولهم: «**لأن الأجسام متماثلة**» يعني أن الجسم لا بد أن يقوم بنفسه ويحوزه حيّز، ويكون متشخصاً مرئياً، وما من جسم يخالف هذا، فالأجسام متماثلة في ذلك، والجواهر والأعراض كذلك متماثلة في هذا الأمر. فعلى هذا الأساس صار الله عندهم لا وجود له في حقيقة الأمر! وإلا فهم يقولون: هو الكون كله! وهذا إذا تأمله الإنسان عرف بطلانه من أول وهلة.

وقد حضر أحد هؤلاء عند أحد ملوك المسلمين مع أنه كان من كبار العلماء في ذلك الوقت، فسأله كيف صفة الله؟ قال: لا يجوز أن نقول: الله

ومن حكى عن الناس المقالات وسماهم بهذه الأسماء المكذوبة بناءً على عقيدتهم التي هم مخالفون له فيها، فهو وربه. والله من ورائه بالمرصاد، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

وجِماع الأمر: أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام، كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة:

قسمان يقولان: تُجرى على ظواهرها.

وقسمان يقولان: هي على خلاف ظاهرها.

وقسمان يسكتون.

فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا داخل العالم ولا خارج العالم، ولا في مكان، ولا يجري عليه زمان. فقال: لو أمرتك أن تصف لي العدم هل تستطيع أن تصفه بأكثر من ذلك؟[1].

فهذا العدم الذي تصف، فالكلام كله يخالف العقول، ويخالف الفطر، ولا يمكن تصديقه.

قوله: «فهو وربه» يعني أن الله سوف يجزيه على ذلك؛ لأن هذا من البهتان، والبهتان هو الذي إذا تبيّن لمن قيل له؛ انبهت لعِظمه؛ لأنه ما يكفي أنه كذب.

قوله: «**الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام**» المقصود بهذا الأقسام الممكنة عقلاً، لا أنها لابد تكون على هذا الشيء، بل هي قسمة العقل والسبر والتقسيم والنظر، فلا تخرج عن هذا الشيء، ولا يلزم أن تكون كلها حقاً، بل أكثرها باطل، والحق واحد فقط، ولكن أقوال الناس ما تخرج عن ستة أقسام، فأهل السنة وأهل البدعة كلهم ينحصرون

---

(١) انظر: «التدمرية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٩٠).

أما الأولان: فقسمان:

أحدهما: من يجريها على ظاهرها، ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين، فهؤلاء المشبهة، ومذهبهم باطل، أنكره السلف، وإليهم توجه الرد بالحق.

في هذه الأقسام، فهو أراد أن يحصر المذاهب هذه ثم يبين الحق فيها، وأن البقية كلها باطل.

وهذه الأقسام كلها مرت، ولكن هنا الحصر والبيان والتفصيل لما سبق.

فقسمان يقولون: تُجرى على ظاهرها وهم قسمان: أهل السنة، ويقولون: ظاهرها حق ويتبعون الظاهر وليس فيه باطن، وأهل الباطل الذين يقولون: تُجرى على ظاهرها مع عدم إرادة المعنى، فهؤلاء على باطل.

وقسمان يقولون: على خلاف الظاهر، فهم أهل التأويل، وبدؤوا في المعتزلة ثم ورثهم الأشاعرة والماتريدية وغيرهم.

وقسمان يسكتون عن ذلك، وهم أهل التجهيل، وهم قسمان كما سيأتي.

قوله: «**أحدهما: من يجريها على ظاهرها، ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين، فهؤلاء المشبهة**» لكن غير معروف أن هناك طائفة تسمى المشبهة، وإنما رُمي بعض الأشخاص فقط، وأول من رُمي وفاه بالتشبيه رجال من الرافضة، وهم هشام الجواليقي وصاحبه، فهم الذين عرفوا بالتشبيه وفاهوا به.

أما البقية مثل ابن كرام، ومقاتل بن سليمان، فهؤلاء لم يثبت عنهم، وإنما عرف ذلك عن أعدائهم، والآن مقاتل بن سليمان طبع له التفسير وليس فيه شيء من التشبيه، والتشبيه هو مظنة تفسير الآيات، فهو على طريقة السلف، وقد اشتهر أنه مشبه وقد جاء عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال:

والثاني: من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله، كما يجرى ظاهر اسم العليم، والقدير، والرب، والإله، والموجود، والذات، ونحو ذلك، على ظاهرها اللائق بجلال الله، فإن ظواهر هذه الصفات في حق المخلوقين: إما جوهر محدث، وإما عرض قائم به.

فالعلم والقدرة والكلام والمشيئة والرحمة والرضا، والغضب، ونحو ذلك: في حق العبد أعراض.

«جاء من قِبل الشرق مذهبان خبيثان: أحدهما: مذهب جهم النفي والتعطيل. والثاني: مذهب مقاتل بن سليمان»[١].

ومقاتل بن سليمان قد جاء عنه أنه سئل هل أنت مشبه؟ قال: أما أنا فأقول: «ربنا مستو على عرشه، وأنه فوق خلقه، وأن له يدين»، ويظهر أنه رمي بذلك زوراً، وإلا ما ثبت عنه شيء من ذلك.

ويقولون: كان المنصور جلس في مجلسه وصار ذباب يقع على أنفه ويطرده ثم يقع ويطرده فأضجره، فقال للخادم عنده: انظر من في الباب؟ فذهب وقال: مقاتل بن سليمان. قال: ائذن له ليدخل. فأذن له، فلما دخل سأله المنصور لماذا خلق الذباب؟ فقال: ليذل الجبابرة، وسكت المنصور لم يقل شيئاً[٢].

المقصود أنه طبع كتابه الذي هو التفسير وانتشر، وقد تتبعت آيات الصفات التي فيه، وكلامه فيها هو كلام أهل السنة وليس فيه شيء من التشبيه، ولهذا يقول شيخ الإسلام فيه: «أظن أن هذا مكذوب عليه، وأنه لا يثبت عنه»[٣].

فإذاً المشبهة ليست طائفة بعينها، وإنما هذا من باب الحصر والتقسيم،

---

(١) انظر: «تاريخ بغداد» (١٥/ ٢١٢).
(٢) «تاريخ بغداد» (١٥/ ٢٠٨).
(٣) «منهاج السنة» (٢/ ٦١٨).

والوجه واليد والعين: في حقه أجسام.

فإذا كان الله موصوفاً عند عامة أهل الإثبات بأن له علماً وقدرة وكلاماً ومشيئة وإن لم يكن ذلك عرضاً يجوز عليه ما يجوز على صفات المخلوقين؛ جاز أن يكون وجه الله ويداه ليست أجساماً يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين.

ولكن لو قدر أن هناك طائفة، وقد عرف بعض الأشخاص منها، فهو مذهب باطل.

قوله: «**والوجه واليد والعين في حقه أجسام**» ولكن لا يجوز أن نقول هذا في الله جل وعلا، فإن هذا باطل، فالله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، في جميع الأشياء التي نشاهدها ونراها، فنقول: إن لله جل وعلا علماً وقدرةً، ويغضب ويرضى ويرحم ويسخط، وأن له وجهاً ويدين، ولا يجوز أن نقول: إنها أبعاض أو أعراض، وأهل الكلام هكذا يعبرون: إن الله يتنزه عن الأعراض والأبعاض والأغراض، ومرادهم بهذا أنه لا يوصف بأن له وجهاً ولا يدين ولا رجلين، وأما الأعراض؛ فينفون الرضا، والغضب، والرحمة، والسمع، والبصر وغير ذلك.

وأما الأغراض؛ فينفون أنه يفعل لحكمة، أو يأمر لغاية، فهم ينفون الحكم والغايات، وقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، هذا لا يجوز عندهم، أنه خلقهم للعبادة أو خلقهم للابتلاء أو خلقهم للإثابة أو للعذاب أو غير ذلك، فهذا كله ضلال بعيد.

قوله: «**فإذا كان الله موصوفاً عند عامة أهل الإثبات..**» هذا من باب الجدل ومن باب العقل، وإلا فلا نحتاج إلى مثل مجادلة هؤلاء، فالله جل وعلا أخبرنا أن له هذه الصفات وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، تأمل في هذه

....

الآية، فلما ذكر في أول السورة أحوال الناس، قال بعد ذلك: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فإنه ثبت أنه ذكر الخلق الذين لهم سمع ولهم بصر، فلما أثبت البصر والسمع أسبقه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يعني كأنه جل وعلا يقول: لا يحدوكم أو يمنعكم أنكم تتصفون بالسمع والبصر أن تنفوا عن ربكم جل وعلا صفة السمع والبصر، فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، يعني سمعه ليس كأسماعكم، وبصره ليس كأبصاركم، وهذا شمل جميع الصفات، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله تعالى وتقدس، وكلها دخلت في هذا.

وهذا فهمه الصحابة، وفهمه أهل الحق تماماً، وامتثلوه واتبعوه، وعلموا أن صفات الله جل وعلا لا تشبه صفات المخلوقين، ولكن قامت شُبه عند هؤلاء، والشُبَه التي قامت في أنفسهم هي الأمور المشتركة التي لا يُفهم الكلام إلا بها، فالمخلوق له يد، والله له يد، فإذا قلت: يد بدون إضافة وبدون تقييد، يصح أن تكون يداً للمخلوق أو يداً لله جل وعلا، وهذا يسمى اشتراكاً مطلقاً قبل التخصيص والإضافة، فقال: هذا الاشتراك المطلق هو الذي جعلهم ينفرون من أن يكون الله جل وعلا موصوفاً بشيء من ذلك؛ لأن هذا الذي يقولون فيه: التشبيه.

وليس هذا لكُلهم، بل لبعضهم الذين أوغلوا في النظر والتفكير في هذه الأشياء، ووضعوا لهم مقاييس معينة في الكلام والمنطق وغيره، ولهذا قالوا: لا يكون الإنسان مؤمناً كامل الإيمان إلا إذا قال: إن الله لا يشبهه شيء بوجه من الوجوه، وقد أرادوا الإمام أحمد على هذا، وقالوا: لا نتركك حتى تقول: إن الله لا يشبهه شيء بوجه من الوجوه. قال: لا، هذا تعطيل؛ لأنه فهم مرادهم، فقال: هذا تعطيل، فأبى أن يقول ذلك.

. . . .

وقال: أعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله أقول به، أما هذا فلا أقول به، فصبر حتى نصره الله جل وعلا بعد ذلك.

ثم هذا الذي تصوروا أنه تشبيه هو الشيء الذي لا يُفهم الكلام إلا به، حتى في الأمور المخلوقة، مثلاً: لو كنا ما نعرف العنب، ثم يخاطبنا ربنا جل وعلا ويقول لنا: في الجنة عنب، ما نفهمه ولا نعرفه، فإذا عرفنا هذا الشيء عندنا، وكذلك عرفنا الشيء الذي فيه لذة، ثم خوطبنا به وقيل: إن الذي في الجنة ليس كالذي عندكم، فإنه شيء فوق ذلك بكثير.

فكذلك بالنسبة إلى صفات الله جل وعلا، لو لم يكن عندنا شيء اسمه يد أو اسمه سمع أو بصر، ثم خاطبنا ربنا جل وعلا بأن له يدين وله سمعاً وله بصراً، ونحن لا نعرف هذا أصلاً ولا يوجد في لغتنا، فلا يمكن أن نعرفه؛ لأن هذا أمر غيبي، فلما كان هذا معلوماً عندنا خاطبنا جل وعلا بذلك وقال: إنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ عرفنا أن هذه الصفات حقيقة، ولكنها لا تماثل صفات المخلوقين.

فعلى هذا يكون الاشتراك في اللفظ إذا أطلق فقط، فإذا قلت مثلًا: يد وأطلقتها، فهذا يشترك فيها كل من يصح أن يكون له يد، ولكن هذا لا وجود له في الخارج المشاهد والواقع، وإنما يكون في الذهن فقط؛ حتى تضيفه أو تخصه بأحد فيكون له وجود، فعند الإضافة والتخصيص يزول الاشتباه نهائيًا، فإذا قلت: يد زيد؛ فما تشاركه أنت في يده وإن كانت يدك قريبة منه، فكيف في هذا اشتباه بين المخلوق وبين الخالق؟ هذا بعيد جدًا.

فالمقصود أن هذه من الشُبه التي عرضت لهم، فمنعتهم من أن يصفوا رب العالمين بصفاته التي تخصه، وصفاته تخصه وتليق به لعظمته، وصفات

وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره من السلف، وعليه يدل كلام جمهورهم، وكلام الباقين لا يخالفه، وهو أمر واضح، فإن الصفات كالذات، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات، فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات.

المخلوق تخص المخلوقين وتليق به وبضعفه وحاجته، فلا يشارك رب العالمين في ذلك، وهكذا يقال في جميع الصفات، وإذا تأمل الإنسان هذا المعنى انحلت الشبه التي يقولها هؤلاء أو كثير منها.

قوله: «**فإن الصفات كالذات**» يعني أنها تخص الله ولا يشاركه المخلوق فيها تعالى الله وتقدس.

فإنه يوجد في المخلوقات أشياء لا تُعقل ولا تفهم، ولا يدرى ما حقيقتها، مع أنها توصف بأنها تأتي وتذهب وتألم وتنعم، ونحن ما نعرف ما حقيقتها، وما نعرف ما هي، مثل الروح التي بها الحياة، فلا أحد يعرفها، وقد وصفت بأنها تصعد وتنزل وتألم وتنعم وغير ذلك، وهل يستطيع أحد أن يشبهها بشيء؟ لأن هذا أمر غيبي غُيّب عنا، مع أنه موجود في جسم كل أحد، فإذا كان هذا في شيء في مخلوق صغير موجود، ما نستطيع أن نعرفه، فكيف يحاول المخلوق الضعيف أن يعرف حقائق صفات الله جل وعلا؟

ومثل ذلك يقال في الجنة، فالجنة فيها أشياء لها أسماء عندنا موجودة، ولكن الحقائق غير ما هي موجودة عندنا أصلاً، ولهذا لما قال الرسول ﷺ في صلاة الكسوف لما صلى في مسجده، رأوه تأخر، ثم تأخرت الصفوف تقهقر من خلفه، وكان خلفهم النساء، ثم تقدم فتقدموا، ومد يده ثم كفها، ولما سلم قال: «**ما رأيت كاليوم، عرضت علي الجنة والنار دون هذا الحائط، فرأيت عمرو بن لحي الخزاعي فيها يجر قُصْبَه**»؛ لأنه أول من غير

. . . .

دين إبراهيم، وسيب السوائب، وحمى الحامي، قال: «ورأيت فيها امرأة في هرة حبستها حتى ماتت، لا هي أطلقتها تأكل في خشاش الأرض، ولا أطعمتها؛ رأيتها فيها تخمش وجهها في النار، ثم رأيت الجنة فهممت أن آخذ منها قطفاً حتى تروه، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ثم بدا لي ألا أفعل»[1]، فتركه؛ لأنه أمر غيبي يثاب عليه الإنسان في إيمانه بالغيب، أما إذا شاهده، فتزول الحكمة وتنتهي.

فالمقصود هنا مخالفة ما في الدنيا، فمهما جمعت من العنب في مكان وصار الناس يأكلون فإنه ينتهي ويفنى، وهذا الشيء الظاهر، أما الشيء الباطن فأمر آخر، مثل الطعم واللون والنفع وغير ذلك، فهذا لا يُدرك.

وهذه الأشياء التي جاءت في ذكر الجنة والنار خصوصاً التي تذكر في النعيم ما كانت معلومة قبل هذه الأمة علماً يشترك فيه الناس، وإنما كثر ذكرها في القرآن وفي أحاديث الرسول ﷺ، حتى صار الذي يتتبع أحاديث الرسول ﷺ يأتي كأنه يشاهد ذلك، يحس به بالتقسيم، والسبب في هذا أن الآخرة قربت، وهذا من رحمة الله حتى يكون هناك ترغيب في هذا، وكذلك ترهيب من العذاب، فيحدث للناس إقبال ورغبة في هذا، فإن الإنسان إذا أحس بشيء صار إقباله أكثر.

والإنسان يقرأ كتاب الله، ولو رأى رؤيا في المنام فيمكن أن تؤثر فيه أكثر من الآيات التي يقرؤها، وقد ذكر ابن أبي الدنيا في أحد كتبه يقول: ذهبت قافلة للحج من بغداد، فكان فيها شاب لا يفتر عن الذكر والقراءة، وإذا نزلوا في الصلاة دائماً، في الليل والنهار، فقالوا: ما شأنك أنت؟ فقال: أنا شأني ذو شأن ولن أفتر، فقالوا: ما الذي حملك على هذا؟

---

(١) انظر: المسند (٦٤٨٣).

فمن قال: لا أعقل علماً ويداً إلا من جنس العلم واليد المعهودين.

قيل له: فكيف تعقل ذاتاً من غير جنس ذوات المخلوقين؟ ومن المعلوم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته، فمن لم يفهم من صفات الرب الذي ليس كمثله شيء إلا ما يناسب المخلوق فقد ضل في عقله ودينه.

وما أحسنَ ما قال بعضهم: إذا قال لك الجهمي: كيف استوى، وكيف ينزل إلى السماء الدنيا، وكيف يداه ونحو ذلك؟ فقل له: كيف هو في نفسه؟

فإذا قال لك: لا يعلم ما هو إلا هو، وكنه الباري غير معلوم للبشر.

فقل له: فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف، فكيف يمكن أن تعلم بكيفية صفة الموصوف، ولم تعلم كيفيته، وإنما تُعلم الذاتُ والصفاتُ من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي له،

قال: حملني رؤيا رأيتها، رأيت قصراً من ذهب، ورأيت بين شرفاته امرأة، فقالت لي: إياك أن تُقْطَع دوننا، فامرأة لا أستطيع أصف حسنها وجمالها، فأنا أريد ألا أُقْطَع دونها[1].

أليس هذا يقرأ مثل سورة الرحمن والواقعة؟ يقرؤها بلا شك، ولكن أثَّرت فيه هذه الرؤيا هذا الأثر، ولم يؤثر فيه القرآن الذي هو كلام الله ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٣]، والسبب أن المشاهدة لها دور كبير جداً في تأثر الإنسان، وإن كانت في الرؤيا.

---

(١) انظر: «صفة الجنة» لابن أبي الدنيا (ص٢٢٧).

بل هذه المخلوقات في الجنة قد ثبت عن ابن عباس ﵄ أنه قال: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء»(١).

وقد أخبر الله أنه لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، وأخبر النبي ﷺ: «**إن في الجنة ما لا عين رأتْ، ولا أُذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بَشَر**»(٢).

فإذا كان نعيم الجنة ـ وهو خلقٌ من مخلوقات الله ـ كذلك، فما الظن بالخالق ﷻ.

وهذه الروح التي في بني آدم قد علم العاقل اضطراب الناس فيها، وإمساك النصوص عن بيان كيفيتها، أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام في كيفية الله تعالى؟

مع أنا نقطع بأن الروح في البدن، وأنها تخرج منه وتعرج إلى السماء، وأنها تُسَلّ منه وقت النزع، كما نطقت بذلك النصوص الصحيحة، ولا نغالي في تجريدها غلو المتفلسفة ومن وافقهم حيث نفوا عنها الصعود والنزول، والاتصال بالبدن والانفصال عنه، وتخبطوا فيها حيث رأوها من غير جنس البدن وصفاته، فعَدَمُ مماثلتها للبدن لا ينفي أن تكون الصفات ثابتة لها بحسبها، إلا أن يفسروا كلامهم بما يوافق النصوص، فيكونون قد أخطؤوا في اللفظ،

وقول ابن عباس: «**ليس عندكم مما في الجنة إلا الأسماء**» يعني أنها لا تتفق مع ما في الدنيا إلا في الأسماء فقط، أما الحقائق فهي تختلف، فلا وجود لشيء في الدنيا مما في الجنة، لا في الطعوم، ولا في الحقيقة، ولا في الألوان، والروائح وغيره.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٢٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٤٨).

وأنى لهم بذلك؟

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها؛ أعني الذين يقولون: ليس لها في الباطن مدلول هو صفة الله تعالى قط، وأن الله لا صفة له ثبوتية، بل صفاته إما سلبية وإما إضافية وإما مركبة منهما، أو يثبتون بعض الصفات السبعة، أو الثمانية أو الخمس عشرة أو يثبتون الأحوال دون الصفات، كما عرف من مذاهب المتكلمين، فهؤلاء قسمان:

قسم يتأولونها ويعينون المراد مثل قولهم: استوى بمعنى استولى، أو بمعنى علو المكانة والقدر، أو بمعنى ظهور نوره للعرش، أو انتهاء الخلق إليه، إلى غير ذلك من معاني المتكلفين.

قوله: **«وأنى لهم بذلك»** فما يستطيعون؛ لأنهم وصفوها بما وصفوا به رب العالمين تعالى الله وتقدس، فإنها لا تكون فوق ولا تحت ولا يمين، ولا أنها داخل البدن ولا كذا ولا كذا، وهذا يدل على قصور الإنسان وضعفه، شيء بين جنبيه لا يعلمه، بل ما هو أقل من هذا، إنسان يحس بمرضه ببدنه ولا يدري ما هو، ولا يدري أين هو؟ فالإنسان قاصر جداً، كيف تنزع له نفسه أنه يعرف شيئاً من حقائق صفات رب العالمين تعالى وتقدس؟! والسبب في هذا أن الإنسان ظلوم وجهول، وإذا اجتمع الظلم والجهل، استحكم الفساد والشر كله.

قوله: **«صفاته إما سلبية»** أي النفي، مثل ما يقولون: إنه ليس له كذا وليس له كذا. **«وإما إضافية»** الصفات الإضافية: مثل أن تضاف إلى المكان فوق أو تحت أو إلى غيرها، أو مثل الأبوة والبُنوة وما أشبه ذلك، فهذه يسمونها إضافية، وهذه من مصطلحات المناطقة.

قوله: **«يتاولونها ويعينون المراد، مثل قولهم: استوى بمعنى استولى..»** وهذه المعاني باطلة، ومن العجيب أن هذا يوجد في كلام علماء كبار مثل

وقسم يقولون: الله أعلم بما أراد بها، لكنا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجة عما علمناه.

ابن العربي المالكي، تلميذ الغزالي، صاحب «عارضة الأحوذي» وغيره من كتب كثيرة، وله كتاب سماه «العواصم من القواصم» وهذا كتاب عام يقع في مجلدين، ومحب الدين الخطيب رَحِمَهُ اللَّهُ أخذ ما يتعلق بالصحابة ونشره، والباقي تركه؛ لأنه ما يصلح، فأكثره تأويل باطل، يقول فيه: «إذا قال لك المشبه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ فقل: للاستواء خمسة عشر معنًى، أيها تريد». ويقول مثل هذه الأشياء: استوى بمعنى ملك، استوى بمعنى قهر، استوى بمعنى استولى[1].

وذكر ذلك ابن القيم عنه وقال: «كلا والذي فطر الخلق على معرفته ليس للاستواء الذي ذكره الله جل وعلا على العرش إلا معنًى واحد فقط، وهو العلو على عرشه جل وعلا»[2]. هذا جوابه، ولكن هذه الأمور استقرت عندهم؛ لأنهم تلقوها على مشايخهم الذين تربوا على أيديهم وأحسنوا الظن فيهم، فاستبعدوا أن يكونوا مخالفين لكتاب الله، فصعب عليهم أن يأتوا بالمعاني التي هي ظاهر كلام الله مخالفة لمشايخهم، فحاولوا أن تكون معاني الكتاب تتفق مع العلم الذي تربوا عليه، وتلقوه من مشايخهم، فصار البلاء الذي انتشر في الناس من هذا التأويل، ثم صاروا ينشرون بالكتب الكثيرة التي ملأت الأرض أنهم هم أهل السنة، واغترَّ بهم كثير ممن لا يعرف الحق في ذلك.

قوله: «**لكنا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجة عما علمنا**» يعني: الشيء الذي علموه من أنفسهم، وهو التشبيه.

---

(١) انظر: «العواصم من القواصم» (ص٢١٤).
(٢) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٣/ ٩٣٨).

وأما القسمان الواقفان:

فقسم يقولون: يجوز أن يكون المراد ظاهرها الأليق بجلال الله، ويجوز أن لا يكون المراد صفة الله ونحو ذلك. وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم.

وقوم يمسكون عن هذا كله، ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات.

فهذه الأقسام الستة لا يمكن الرجل أن يخرج عن قسم منها.

الصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطعُ بالطريقة الثابتة كالآيات والأحاديث الدالة على أن الله سبحانه فوق عرشه.

قوله: «**القسمان الواقفان**» هؤلاء هم أهل التفويض، والتفويض أشر من التأويل؛ لأنهم يجعلون الكلام لا معنى له، فمعنى ذلك أن الله خاطبنا بشيء لا يمكن أن نفهمه! ولا يفهمه غيرنا على حد قولهم! حتى يقولون: إن الرسول لا يفهم معنى الشيء الذي جاء به! ولهذا صار أَشَرَّ من مذهب المؤوّلة.

قوله: «**فهذه الأقسام الستة لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها**» يعني أن هذه التقسيمات عقلية، فلا يلزم أن تكون واقعةً موجودةً، وتسمى في علم المنطق السبر والتقسيم، أي تسبر الأحوال ثم تقسمها كلها، بحيث لا يخرج منها شيء، فهذه لا يخرج منها أحد ممن يؤمنون بالله جل وعلا وتشتغل أذهانهم في ذلك، ومعلوم أن بقية الأقسام الخمسة باطلة، والحق فيها واحد فقط، وهو أنها على ظاهرها، ولكن ظاهرها لا يتفق مع ظواهر ما للناس من الصفات، بل هو ما يليق بعظمة الله وجلاله، وهو مذهب أهل السنة.

قوله: «**والصواب في كثير من آيات الصفات..**» فإن قال قائل: لماذا لم يقل: في آيات الصفات وأحاديثها كلها؟

وتعلم طريقة الصواب في هذا وأمثاله بدلالة الكتاب والسنة والإجماع على ذلك دلالةً لا تحتمل النقيض، وفي بعضها قد يغلب على الظن ذلك مع احتمال النقيض.

فالجواب: أن هذا بالنسبة للناس، فكثير منهم ما يقطع بهذا، وإلا فالواقع أن نصوص الصفات لا تختلف، الظاهر منها الجلي أو الذي لم يظهر ويتجلى لكثير من الناس، فالطريقة واحدة فيها، فكلها حق على ظاهرها.

ولكن المصنف يتكلم عما يتعلق بفهوم الناس وأقوالهم ومذاهبهم، فعند الناس أن المقطوع به كثير من الصفات أنها على ظاهرها كما دلت عليها النصوص، وهناك أشياء كثيرٌ من الناس لا يقطع بها، وليس مقصوده التفرقة بين صفات الله جل وعلا أن هذه يقطع بها وهذه لا يقطع بها.

قوله: «**وفي بعضها قد يغلب على الظن ذلك مع احتمال النقيض**» هذا السبب عند بعض الناس، أنه يغلب على الظن أن الصواب هو ما وافق الأمور القطعية مثل العلو والاستواء، والبقية اليد والرجل والوجه يتردد فيها، هل الوجه مراد به وجه حقيقة أم المقصود الذات؟

الأشاعرة يقولون: المراد به الذات، وليس هناك وجه؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، هل تقول: إن الباقي الوجه فقط والبقية يهلك؟ فهذا يكون دليلنا على أن المقصود من الوجه الذات.

فيقال لهم: يعبر عن الوجه والبقية تبع له كما هو معلوم من الخطاب، فليس معناه أنه يبقى الوجه وبقية الذات تهلك، مع أن هناك احتمالات أخرى أيضاً، ولهذا قال فيها من قال إن المقصود بالوجه ما أريد بوجه الله جل وعلا من الأعمال، حتى روي هذا عن بعض السلف، وليس هذا من

. . . .

باب التأويل كما بين ذلك الحافظ ابن كثير في تفسير الآية[1] أن هذا مما دلَّ عليه الكلام بالضمن، وليس معنى ذلك هو النص في الكلام، وإلا فالكلام فيه النص على الوجه.

والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذه الآية ذكر كلاماً غريباً، وأشكل على بعض الناس؛ لأنه ذكرها في موضعين، ذكرها في التفسير من صحيحه، وذكرها في كتاب التوحيد[2]، أما في كتاب التوحيد فبيَّن أنها صفة لا إشكال فيها[3]، ولكن في كتاب التفسير في تفسير سورة القصص، قال: «وقيل: ما أريد به وجهه، وقيل: ويبقى ملكه»، وهذا من أغرب ما يكون. كيف يقال: وجه الله ملكه؟ وهذا كلام متناقض وإن قاله البخاري؛ لأنك إذا تأملت ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ أيش هو الشيء الهالك؟ أليس هو ملك الله؟ هل يقال: كل شيء هالك من الأمور التي يملكها الله إلا ملك الله؟ هذا متناقض. وقد سألت الشيخ محمداً رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا القول الذي قاله البخاري قال: «لا أدري أيش معناه».

والحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر أن هذا الكلام نقله عن أبي عبيدة في «مجاز القرآن»[4]، ولما راجعت مجاز القرآن لم أجده، ولكن هذا ليس

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦١).

(٢) انظر: «الصحيح» (٦/ ١١٢).

(٣) «الصحيح» (٩/ ١٢١).

(٤) في «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٤٧٢) قال: «(إلا وجهه: إلا ملكه) في رواية النسفي؛ وقال معمر، فذكره. ومعمر هذا هو أبو عبيدة بن المثنى. وهذا كلامه في كتابه «مجاز القرآن» لكن بلفظ: (إلا هو). وكذا نقله الطبري عن بعض أهل العربية، وكذا ذكره الفراء».
وانظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١١٢)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٨)، و«التفسير» للطبري (١٣/ ٣٥٣).

. . . .

دليلاً على أنه ليس قوله؛ لأن بيننا وبين أبي عبيدة زمان طويل، والنساخ إذا نسخوا الكتاب تغير، وقد يسقط منه كلام وقد يغير، وإذا كان الخليل بن أحمد في زمنه يقول: «إذا نسخ الكتاب مرتين عاد أعجمياً»[١]، فكيف إذا تخالفت عليه الأيدي الكثيرة؟! فيجوز أنه مثل ما قال الحافظ، أن هذا من أبي عبيد.

فالمقصود أن الإنسان قد يقرأ مثل هذا الكلام، ثم يشكل عليه، نقول: ما يشكل علينا الشيء الذي يخالف كتاب الله أبداً، يجب أن يكون الإنسان عنده يقين في هذا؛ لأن من عقيدتنا أنه لا أحد يكون معصوماً إلا رسول الله ﷺ، والعصمة لكتاب الله ولسنة الرسول ﷺ فقط.

أما كلام الناس كله فيجب أن يُعرض على كلام الله وكلام رسوله، فإن وافق كلام الله وكلام رسوله قبلناه؛ لأنه وافق كلام الله وكلام رسوله، لا لأنه كلام فلان وفلان، وإذا لم يوافقهما رددناه، وهذا لا يدعوننا إلى أننا نحتقر الناس أو نتكلم في العلماء، بل نقول: الإنسان يجتهد وهو مأجور على اجتهاده، وإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر الاجتهاد، والخطأ معفو عنه إن كان قصده صحيحاً وسليماً، وهو أهل للاجتهاد.

وقد يقول قائل: إن ما ذكره البخاري من التفسير باللازم؟

نقول: ما يصح هذا التفسير حتى باللازم؛ لأنك إذا قلت: كل شيء هالك إلا ملك الله؛ ما يستقيم الكلام أبداً، كل شيء هالك إلا الهالك، هذا معناه لا يستقيم أبداً، مع أن هذا بعيد؛ لأن الله جل وعلا قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ ما قال: إلا ملكه، وإنما قال: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أما اللازم، فهو الذي ذكره ابن كثير إلا ما أريد به وجهه، هذا من اللازم؛ لأنه

(١) انظر: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٥٨٧).

. . . .

معنى ذلك أن الذي ما أريد به غير وجه الله باطل، فكل عمل لم يُرَدْ به وجهُ الله فهو هالك باطل، ولا يلزم أن هذا نص الآية، ولكن هذا من لازم مفهوم الآية، وإلا فنصها أنه استثنى وجهه جل وعلا.

والمقصود هو تعالى وتقدس، وقد بينت النصوص هذا أنه يموت كل أحد حتى جبريل وإسرافيل؛ كلهم يموتون، ما يبقى إلا الله، ولهذا جاء في تفسير قوله جل وعلا: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ جاء في الحديث «**إن الله يقبض سماواته وأرضيه وكل مخلوقاته فيقول: لمن الملك؟ فلا يجيب أحد**»؛ لأنه لا أحد موجود، وكلهم هلكوا، فيجيب نفسه فيقول: «**لله الواحد القهار**»[(١)] تعالى وتقدس، فهو الباقي وحده، وكل مخلوق يهلك ويموت ثم بعد ذلك يبعثهم ويحييهم.

ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [الزمر: ٦٨]، فهذا الاستثناء حارَ فيه كثيرٌ من العلماء، من المستثنى؟

فمنهم من يقول: الحور العين الذين في الجنة، ومنهم من يقول: الشهداء، ومنهم من يقول: الأنبياء، والأنبياء قد ماتوا، وهم لم يبعثوا بعد؛ لأن هذا في نفخة الصور الأولى.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ينفخ في الصور النفخة الثانية، فأكون أول من يبعث**» يعني يبعث قبل الناس كلهم.

وفي رواية: «**فأكون أولَ من ينفض التراب عن رأسي، فأجد موسى**

---

(١) أخرجه إسحاق في «مسنده» (١٠)، والطبراني في «الطوال» (٣٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وتردد المؤمن في ذلك هو بحسب ما يؤتاه من العلم والإيمان، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة ﵂ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يصلي يقول: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السماوات والأرض، عالِمَ الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[١].

باطشاً بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أبعث قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟»[٢]، وهذه فيها إشكال أيضاً، ما معنى جوزي عن صعقة الطور؟

ولكن معناه على كل حال أنه بعث قبله، والمقصود أن الإنسان إذا جاءه شيء يشتبه عليه؛ فإنه يجب أن يتثبت ويقف ويسأل، حتى يتبين له.

قوله: «**كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يصلي يقول**» هذا الدعاء من رسول الله ﷺ، أليس الرسول قد هُدي، وهو أهدى الأمة، بل أهدى الخلق في ذلك الوقت، وأعلمهم وأقربهم إلى الله، فهو مع ذلك يتوسل هذا التوسل.

قوله: «**رب جبرائيل**» هذه ربوبية خاصة، وليست ربوبية عامة.

قوله: «**فاطر السماوات والأرض**» فاطر يعني: موجد، فطر الشيء: أوجده.

قال: «**أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون**» ومعنى هذا أن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٨، ٦٩١٧)، ومسلم (٢٣٧٤)، من حديث أبي سعيد الخدري ﵁، وأخرجه مسلم (٢٣٧٣)، من حديث أبي هريرة ﵁.

وفي رواية لأبي داود: كان يكبر في صلاته ثم يقول ذلك[١].

الإنسان لا يملك لنفسه هداية، إن لم يهده الله، فلا هادي له، والرسول يعلمنا هذا ويبين أنه هو نفسه لا يملك لنفسه هدايةً إن لم يهده الله فلا هادي له، فكيف نتجه إليه ونسأله؟ ونقول: أعطنا وافعل بنا كذا، وأزل عنا كذا! كل هذا يدل على الجهل. وربما أغرق الإنسان في الغلو، وجعل كل شيء بيد الرسول ﷺ، وربما يجعل حقوق الله، أو ملك الله أو الذي بيد الله يجعله بيد الرسول! وربما يقول: هو السر في الوجود كله، ولولا الرسول ما وجد شيء! هكذا يقولون.

والبرعي ـ من أهل اليمن ـ له ديوان شعر جلّه مدائح للرسول، ولكن ليست مدائح، وإنما غلو فوق الغلو المعروف لنا، يخاطب الرسول بكل شيء، ويدعوه لكل شيء أن يزيل عنه المرض، وأن ينتصر له من عدوه، وأن يفعل به كذا وكذا، وأشياء عجيبة جداً، وعلى هذا المنوال كثير من الشعراء. وما يقوله البوصيري أيضاً أقل مما يقوله هذا بكثير.

قوله: «**كان يكبر في صلاته ثم يقول نلك**» يعني أن هذا في استفتاح صلاة الليل. وجاءت الاستفتاحات متنوعة، مما يدل على أن الأمر في ذلك واسع، يعني يقول هذا ويقول غيره، فله استفتاحات، ولهذا جمعها النووي رَحِمَهُ اللهُ في الأذكار[١]، وذكر أنه ينبغي أن يقول كل مرة واحداً، يقول هذا مرة، وهذا مرة، كما كان الرسول ﷺ يفعل ذلك.

ومثل ذلك: ما جاء في حديث أبي بكر الصديق قوله للرسول ﷺ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي. فقال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً**». وفي رواية: «**كبيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من**

---

(١) «السنن» (٧٦٨).

(٢) «الأذكار» للنووي (ص١١٧).

فإذا افتقر العبد إلى الله ودعاه، وأدمن النظر في كلام الله وكلام رسوله وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين: انفتح له طريق الهدى.

ثم إن كان قد خَبَرَ نهايات إقدام المتفلسفة والمتكلمين في هذا الباب، وعرف غالب ما يزعمونه برهاناً وهو شبهة، ....

عندك، **إنك أنت الغفور الرحيم»**[1]، يقول النووي رَحِمَهُ اللهُ: كلا اللفظين صح، فينبغي أن يقول: **«إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً كبيراً»**، وهذا فيه نظر، فالرسول ما قال هكذا: ظلماً كثيراً كبيراً، وإنما قال واحدة، والثانية رويت بالمعنى، ولكن إذا أراد الإنسان أن يقول هذا مرة وهذا مرة، فهو أحسن، ولهذا نظائر جاءت في الأحاديث.

قوله: «**فإذا افتقر العبد إلى الله ودعاه.. انفتح له طريق الهدى**» إذا تجرد من التعصب ومن الهوى، أما إذا لم يتجرد، فلا ينفتح له، يبقى مسدوداً أمامه.

يقول: «**ثم إن كان قد خبر نهايات إقدام المتفلسفة والمتكلمين..**» يعني: نهاية ما وصلوا إليه.

قوله: «**وعرف غالب ما يزعمونه برهاناً وهو شبهة..**» يعني الذي يقولون: إنه براهين إنهما هي شُبَه وليست براهين، فهي شُبه لا تنفع في الحق شيئاً، وعلى الإنسان أن يحذر من ذلك.

والبرهان لا يجوز أن يُطلق على كل دليل، فالبرهان يجب أن يكون بالدليل الواضح الجلي الذي لا إشكال فيه، ولهذا البرهان في اللغة هو شعاع الشمس الذي لا يخفى على أحد، فالدليل إذا قيل عنه: برهاناً؛ فإنما هو تشبيه بذلك، وما كان مشتبهاً لا يكون برهاناً، ولكنهم يسمونها براهين

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

رأى أن غالب ما يعتمدونه يؤول إلى دعوَى لا حقيقة لها، أو شبهةٍ مركبة من قياس فاسد، أو قضيةٍ كلية لا تصلح إلا جزئية، أو دعوى إجماع لا حقيقة له، أو التمسك في المذهب والدليل بالألفاظ المشتركة.

ثم إن ذلك إذا رُكب بألفاظ كثيرة طويلة غريبة عمن لم يعرف اصطلاحهم، أوهمت الغِرَّ ما يوهمه السرابُ للعطشان، ....

تمويهاً على الناس وزعماً منهم، وهي مجرد شبهة عرضت لهم فقط، وإلا لغيرهم فليست شبهة، فغيرهم يعلمون أنها باطل.

يقول: «**رأى أن غالب ما يعتمدونه يؤول إلى دعوى لا حقيقة لها**» يعني دعوى ادعوها هم لا حقيقة ولا وجود لها، ولا يمكن أن تُنْتِجَ للإنسان أي علم وأي فائدة.

قوله: «**أو شبهة مركبة من قياس فاسد**»، أن يقيسوا رب العالمين على ما يعرفونه من أنفسهم، وهذا هو الأصل عندهم.

قال: «**أو قضية كلية**» الكلية: هي التي تكون في الذهن فقط ولا وجود لها في الخارج، «**لا تصلح إلا جزئية**»، يعني أنها كلية لا تصح ولا وجود لها.

قال: «**أو دعوى إجماع لا حقيقة له**»، وكثيراً ما يدعون الإجماع ـ على حسب ظنونهم ـ يظنون أنه إجماع وليس إجماعاً، بل هو دعوى.

قال: «**أو التمسك بالمذهب**» وهذا هو الغالب، فيتمسكون بمذاهبهم. «**والدليل بالألفاظ المشتركة**» أي الألفاظ التي لا تدل إلا على أمر مشترك.

قوله: «**ثم إن ذلك إذا ركب بألفاظ كثيرة طويلة غريبة عمن لم يعرف اصطلاحهم**»، وهذا يوجد في كلامهم كثيراً، وتركيب الألفاظ الطويلة الغريبة التي إذا سمعها الإنسان يتخيل أن وراءها شيئاً، وهي ليس وراءها إلا الهراء

ازداد إيماناً وعلماً بما جاء به الكتاب والسنة.

فإن الضِدَّ يُظهِر حُسْنَه الضدُّ، وكل من كان بالباطل أعلمَ كان للحق أشدَّ تعظيماً وبقدره أعرفَ.

والظنون كاذبة، ولهذا يسمون هذه الأشياء: براهين! والإنسان في غنية عن هذه الأشياء.

ولهذا كان العلماء ينهون عن الخوض في قراءة كتبهم والخوض في ذلك؛ لأنها لا تزيد الإنسان إلا جهلاً، ولا يمكن أن يكتسب منها علماً، إذ لو كان فيها علم لهدتهم ولنفعتهم، ولكنهم أوغلوا في الضلال، وقد جُرب هذا، فإن الإنسان إذا اشتغل بهذه الكتب وجد قسوةً في قلبه، وبُعداً عن الله جل وعلا، فالإعراض والابتعاد عنها أولى.

وقوله: «**ازداد إيماناً وعلماً**» يعني عند مقابلة كلام المتكلمين بكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ يزداد إيماناً وعلماً بأن الحق والهدى والنور في كلام الله ورسوله ﷺ.

قوله: «**فإن الضِدَّ يُظهِر حُسْنَه الضدُّ**» يعني إذا عرف الحق عرف الباطل والحق، أما إذا لم يعرف فهو حائر، ولهذا الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لما كانوا يعرفون الشرك تماماً كان الشرك من أبغض ما يكون إليهم، وهم أشد الناس بعداً عنه، ولكن لما نشأ في أناس لا يعرفون الشرك وقعوا فيه وهم لا يدرون، ولهذا تجد الإنسان يطوف على القبر ويستنجد بصاحبه ويقول: لا إله إلا الله! وهذا تناقض، فلا يعرف معنى هذه الكلمة «لا إله إلا الله»، أنها تبطل ما يعمله ويفعله، وإذا قلت له: هذه عبادة وهذا شرك، تبرأ منك واستبعد الأمر، يقول: أعوذ بالله، تسمي هذا شركاً؟!! نحن مسلمون ونصلي ونقول: لا إله إلا الله، تجعلنا في المشركين!

وهذا لأنهم ما عرفوا الشرك في الواقع، ولا عرفوا العبادة وما معناها

فأما المتوسط من المتكلمين، فيخاف عليه ما لا يخاف على من لم يدخل فيه، وعلى من قد أنهاه نهايته، فإن من لم يدخل فيه هو في عافية، ومن أنهاه فقد عرف الغاية، فما بقي يخاف من شيء آخر.

في الشرع واللغة؟ يرون أن العبادة مجرد الصلاة والصوم والحج فقط، وكذلك الإله لو سألته أيش معنى الإله؟ لما عرف، ويقول: الخالق الذي يخلق ويرزق، وقد يقول لك: ما أدري! فكيف تعبد شيئاً ما تدري ما هو؟

ولهذا وقعوا في الشرك، ولأنه قد يرى أيضاً ـ مما يزيد الأمر شدة ـ بعض العلماء يشاهدونه ولا يقولون له شيئاً، فيزيد الأمر ويقول: لو كان فيه شيء مما لا يجوز لنهينا عنه! وهكذا تكون الفتنة.

قوله: «**فأما المتوسط من المتكلمين، فيخاف عليه ما لا يخاف على من لم يدخل فيه**» لأنه تخفى عليه هذه الأمور، فهو متوسط حاله في العلم، فيجوز أن يلتبس عليه الأمر، فيكون متبعاً لما يقولونه في هذا الضلال.

قال: «**وعلى من قد أنهاه نهايته**» ولكن إذا كان أنهاه ما الذي يخلصه؟ إذا كان قد استحكم عليه فإنها مصيبة، ولكن إذا كان قد عرف أنه فاسد فنعم، ولكن إذا كان وصل إلى غاية ما يتكلمون فيه؛ فمعناه أنه يحار كما يحار الأذكياء منهم؛ لأنهم يرون أن ما يقولونه وما يقوله خصومهم متكافئ؛ دليل هذا يقاوم الدليل الآخر، فيبقى متحيراً ما يدري أين الحق؟

والسبب في هذا: أنها كلها أدلة عقلية يخترعها العقل، ولو كانت أدلة من عند الله ومن سنة رسوله؛ فلا يمكن أن يكون هذا وصفها أبداً، فالعقول قاصرة، ولها حد تنتهي إليه، وقد تكون متناظرة، فعقل هذا يناظر عقل هذا، فإذا استنتج أدلة استنتج الآخر مقابلها تماماً فيقاوم دليله. ولو كانوا يعتمدون على كتاب الله وسنة رسوله فلا يمكن أن يحاروا؛ لأن كلام الله

فإذا ظهر له الحق وهو عطشانُ إليه قَبِلَه، وأما المتوسط فمتوهم بما تلقَّاه من المقالات المأخوذة تقليداً لمعظَّمه وتهويلاً.

وقد قال الناس: أكثر ما يفسد الدنيا: نصف متكلم، ونصف متفقه، ونصف متطبب، ونصف نحوي، هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان.

ومن عَلِم أن المتكلمين من المتفلسفة وغيرهم هم في الغالب في ﴿قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: ٨ ـ ٩] يعلم الذكي منهم العاقل: أنه ليس هو فيما يقوله على بصيرة، وأن حجته ليست بيِّنة، وإنما هي كما قيل فيها:

حججٌ تَهافتُ كالزجاج تَخَالُها حقاً وكلٌّ كاسرٌ مكسور

ويعلم العليم أنهم من وجه مستحقون ما قاله الشافعي رضي الله عنه حيث قال: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام».

وكلام رسوله ليس مبنياً على عقول وأفكار تستنج أشياء محدودة يمكن لكل عاقل أن يكون بهذه المنزلة.

وهو هدًى وشفاء لداء الجهل، ومخرج من ظلمات الشكوك إلى نور العلم والإيمان، ولكن ذلك لمن يشاء الله تعالى.

قوله: «**فإذا ظهر له الحق وهو عطشان..**» وهذا الكلام الذي يقوله الشيخ هنا يقصد به أناساً معينين في وقته، ومنهم القضاة والعلماء، فكلهم كانوا بهذه المنزلة بالنسبة لصفات الله جل وعلا وأسمائه، فهم لم يصلوا إلى علم، وإنما أخذوا كلام المتأخرين، مثل الفخر الرازي والجويني وغيرهما فاعتمدوها، وهي خلاف ما قاله الله وقاله الرسول ﷺ.

ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القَدَر، والحيرةُ مستولية عليهم، والشيطانُ مستحوذ عليهم؛ رحمتَهم ورفقتَ عليهم، أُوتُوا ذكاءً وما أُوتوا زكاءً، وأُعطوا فُهوماً وما أُعْطُوا علوماً، وأُعطوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

ومن كان عليماً بهذه الأمور تَبَيَّنَ له بذلك حِذق السلف وعلمهم وخبرتهم، حيث حذروا عن الكلام ونهوا عنه، وذمُّوا أهله وعابوهم، وعلم أن من ابتغى الهدى في غير الكتاب والسنة لم يزدد إلا بعداً.

فنسأل الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين.

يقول: «**إذا نظر إليهم بعين القدر**»، يعني: أن هذا أمر مُقدّر وأنه واقع فيهم لا بد منه.

يقول: «**والحيرة مستولية عليهم والشيطان مستحوذ عليهم**»؛ لأنه صدهم عن كتاب الله وسنة رسوله، «**رحمتهم**» مع ظهور الحق ووضوحه، كيف خفي على هؤلاء الأذكياء والعلماء الذين أفنوا أعمارهم في التعلم وطلب العلم؟؟ ثم وصلوا إلى هذه النتيجة.

ومع هذا القول واجه منهم مواجهات شديدة، فسجنوه مراراً، وأخيراً مات مسجوناً بسبب ذلك، وقد قال له بعض أصدقائه: لو أعرضت عن هذا الشيء، فإنه أثار عليك الناس من القضاة وغيره. فقال: لن أعرض عن هذا؛ لأن هذا حصل فيه ضلال الأمة، فلا بد أن يبين ذلك مهما كان الأمر.

فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه الله خيراً عما قدم للأمة من البيان والإيضاح، وقد صبر وصابر حتى لقي أجله.





قواعد مهمة

وقبل أن ننتهي لعلنا نذكر بعض القواعد التي ينبغي لنا أن نعرفها:

القاعدة الأولى

الهدى والسعادة في اتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ظاهراً وباطناً، وهذه قاعدة يجب أن تكون ثابتةً عندنا، فلا هدى ولا علم نافع إلا باتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما كلام الناس وتفسيراتهم وشروحهم؛ فهي للاستعانة على فهم كلام الله وفهم كلام رسوله ﷺ.

القاعدة الثانية

أن الرسول ﷺ بيَّن كل ما نحتاج إليه في عقيدتنا وما ينفعنا في دنيانا وآخرتنا، والأدلة على هذا كثيرة جداً في الآيات والأحاديث، فإذا كان بيّن لنا الرسول ﷺ كل ما نحتاج إليه، فهل نحتاج إلى أقوال المتكلمين، وفلسفة المتفلسفين؟ لسنا بحاجة إلى هذا.

فيجب أن نفهم ما قاله الرسول ﷺ، ونحرص على هذا، ولا نزدري العلماء، أو نقلل من شأنهم، ومن كتبهم، بل يستعين الإنسان على الوصول إلى ذلك بهذا، ثم نتعاون على الفهم، فالإنسان لا يجوز له أن يعمِد إلى آية أو حديث ثم يستقل بفهمها بنفسه ولا يرجع إلى كلام العلماء وإلى كلام من يستعين بكلامه ولو من نظرائه، فالأحاديث التي جاءت تدل على هذا، كما في «صحيح مسلم»: **«حقاً على كل نبي بعثه الله أن يبين لأمته كل ما يحتاجون إليه»**[1].

---

(١) تقدم تخريجه.

القاعدة الثالثة

أن التوحيد العلم والعمل، وهو الأصل الذي يُبنى عليه العمل، وإذا دخل العمل خلاف هذا فسد، ومعلوم أن التوحيد أقسام ثلاثة كما هو معروف، وهذه الأقسام كلها متلازمة فلا ينفك واحد عن الآخر، ولا يمكن إذا حصلت واحداً أو اثنين أن تستغني عن الثالث، وبعضها يلزم منه الآخر، وبعضها متضمن للآخر، سواء عرفنا هذا أو لم نعرفه، فنفهم أنها مترابطة، وهذه الأقسام الثلاثة عُرفتْ بالسبر والتقسيم والنظر في فهم كلام الله جل وعلا.

ومعلوم أن معنى «الله» ليس هو معنى «الرب»، فـ«الرب» له معنى، و«الله» له معنى، ولهذا جاء عن ابن عباس أنه قال: «الله ذو الألوهية والعبودية على الخلق أجمعين»[1].

أما الرب فهو المالك المتصرف الذي يملك ويتصرف، فهذا له مفهوم وهذا له مفهوم.

وهذه الأقسام تتعلق بأفعال الله وخلقه، أما أن نأتي بأشياء أخرى، وهي داخلة في هذا فلا معنى لذلك، ولكن نقول: إنها متلازمة بهذا المعنى، وهي واضحة.

القاعدة الرابعة

أن عبادة الله بالعلم والعمل متوقفة على الكتاب والسنة، فلا بد أن تكون بما جاء به الرسول ﷺ، وإلا كانت بدعة، فالأصل في العبادة أنها محرمة ولا يجوز لك أن تُقْدِمَ عليها حتى تعرف الأمر بها، بخلاف المعاملات والمأكولات وغيرها، فهي بعكس ذلك، فالأصل فيها أنها مباحة حتى يأتي النص بالمنع، وهذا يدلنا على أننا مقيدون بأشياء معينة

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١/ ١٢١).

بالعبادة، فلا بد أن نكون مرتبطين بالأمر والنهي، ولهذا فسّر الصحابة قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي آمرهم وأنهاهم، هذه العبادة.

وجاء عن علي رضي الله عنه أنه قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، ألّا يُؤمَرَ ويُنهى[(١)]، فالأمر والنهي هو العبادة، فلا بد من التزام الأمر والنهي.

القاعدة الخامسة

أن أسماء الله وصفاته كاملة من جميع الوجوه، وإذا احتمل الاسم أو الصفة شيئاً من النقص فإنه لا يدخل في أسماء الله ولا صفاته، فلا يكون من هذا النوع من أسماء الله أو صفاته، فيجب ألا يأتي الإنسان بأشياء قد يجدها في النفوس ويصف الله جل وعلا بها، وهي تحتمل، فإذا جاء مثل هذا؛ فإنها تخرج عن الوصف إلى الخبر، فباب الخبر أوسع، ولا يجوز أن نكون مثل من يشتق لله صفات وأسماء، كأن يقول: شائي أو متكلم أو مريد أو ما أشبه ذلك، فهذه لم تأتِ، فيجب أن تكون الأسماء بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله.

أما الخبر، فالأمر فيه واسع، فالله جل وعلا يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤]، فلا نسمي الله زارعاً؛ لأنه خبر.

ومن ذلك: ما يخبر الله جل وعلا به عن عقابه لبعض الناس كقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، وما أشبه ذلك، فهذا يجب أن نبقيه على ما جاء فقط، ولا يجوز أن نسمي هذا صفة، كما يقول بعض الناس: صفة

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٢٣/٥٢٦) عن مجاهد.

الاستهزاء، صفة المكر، لا يجوز أن نقول هكذا، فهذه ليست صفة، وإنما تطلق على الله كما أطلقها على نفسه.

ثم أسماء الله جل وعلا ليست محصورة في عدد، لا في مئة ولا في تسع وتسعين ولا في غير ذلك، ولكن ثبت في الصحيح من قول الرسول ﷺ: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً؛ من أحصاها دخل الجنة»**[(١)]، فهذا حُكْم هذه الأسماء أن من أحصاها دخل الجنة، وليس فيه حصر لأسماء الله جل وعلا كما هو معروف في كلام العلماء، وهذا لا يقتضي الحصر؛ لأنك لو قلت: عندي مئة كتاب أعددتها للمطالعة أو للحفظ أو للإعارة؛ فلا ينفي أن وراءها شيئاً عندك من الكتب، فهذا قُصِدَ بها هذا الحكم: **«من أحصاها دخل الجنة»**.

ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: **«من أصابه هم أو غم ثم قال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميتَ به نفسك، أو أنزلته في عبادك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»**[(٢)].

فقسم الأقسام ثلاثة:

الأول: أنزله في كتابه، أي في كتبك التي أنزلتها على أنبيائك، فكتاب هنا اسم جنس، وكل رسول جاء بكتاب.

الثاني: **«أو علمته أحداً من خلقك»** يعني ما أنزل في الكتب، ولكنه علمه أحداً من خلقه، سواء من الملائكة أو من البشر، ولا يكون هذا غريباً أو مستحيلاً، فقد جاء في كتاب الله قصة سليمان عليه السلام أنه لما كان عند جنده، وأراد أنه يحضر عرش بلقيس قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣٧١٢)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠]، يقولون: هذا الذي يعرف اسم الله الأعظم[١]، وليس هذا بمقدوره، فدعا الله جل وعلا باسمه الأعظم، فحضر في لحظة، وليس هذا بمقدور البشر، وهذا الذي عرف اسم الله الأعظم دون سليمان.

فالمقصود أن هذا يدل على قوله: **«أو علمته أحداً من خلقك»**، فإنه قد يُعلِم جل وعلا شيئاً من أسمائه لبعض من يشاء من خلقه.

الثالث: «أو استأثرت به في علم الغيب عندك»، يعني شيئاً لم ينزله في كتبه، ولم يعلمه أحداً من خلقه، فهو عنده، وهذا يدل على أن أسماء الله لا حصر لها، والأدلة على هذا فيها الكثرة.

إلى غير ذلك من القواعد التي يجب أن نعتني بها ولا تفوتنا، وللشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ «القواعد المثلى»، فهي في هذا الباب نافعة جداً، وهناك كتاب آخر أوسع منه في قواعد الصفات رسالة كتبت في جامعة الإمام محمد بن سعود وهي مطبوعة ينبغي الاطلاع عليها، والاستفادة منها[٢].

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد.



---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٦٠).

(٢) اسمها «القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف» لإبراهيم بن محمد البركان.




فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

